

محمد إبراهيم العلي



حياتي والإعدام

جوانب مغفلة من السيرة

الجزء الرابع

2018





حياتي .. والإعدام

جوانب مغفلة من السيرة — الجزء الرابع

• حياتي والإعدام..

جوانب مغفلة من السيرة - الجزء الرابع

• محمد إبراهيم العلي

• الطبعة الأولى - دمشق - 2018

• حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

• الإخراج والعمليات الفنية: منير الرفاعي



محمد إبراهيم العلي

حياتي .. والإعدام

جوانب مغفلة من السيرة

الجزء الرابع

2018



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

المرسوم رقم ١٥٧

ان رئيس الجمهورية

بناءً على احكام الدستور

وتلى الحكم الصادر عن محكمة أمن الدولة العليا المؤرخ في ٢١ شعبان ١٣٨٢ و ١٢ كانون الثاني ١٩٦٣ رقم ١ لسنة ١٩٦٣ القاضي باعدام اللانم اول محمد بن ابراهيم العليسي والعسكري المتطوع محمد بن مصطفى يوسف .

وبعد استطلاع رأي مجلس الدفاع العسكري ورأي القضاة المكلفين بتدقيق احكام محاكم امن الدولة وثاناً للمادة ١٦ من القانون ١٦٢ لسنة ١٩٥٨ ورأي قضاة الدائرة القانونية في رئاسة الجمهورية .

وبناءً على اقتراح وزير الدفاع

يرسم ما يلي :

المادة ١ - ينفذ حكم الاعدام الصادر عن محكمة امن الدولة العليا بتاريخ ٢١ شعبان ١٣٨٢ و ١٢ كانون الثاني ١٩٦٣ رقم ١ لسنة ١٩٦٣ باللانم اول محمد بن ابراهيم العليسي والعسكري المتطوع محمد بن مصطفى يوسف .

المادة ٢ - ينشر هذا المرسوم ويبلغ من يلزم

دشق في ٩ / ٩ / ١٣٨٢ و ٩ / ١ / ١٩٦٣

نور الدين

صدر عن رئيس الجمهورية

رئيس مجلس الوزراء

وزير الدفاع

٥

بسم الله الرحمن الرحيم

* فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون *

صدق الله العظيم

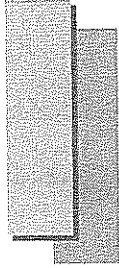


الملازم الأول محمد إبراهيم العلي

الإهداء

إلى والديّ وزوجتي
هؤلاء الثلاثة هم الذين جعلوا مني
وبتربيتهم لي
صغيراً .. ورجلاً .. وشيخاً
وكانوا قدوتي بكل أعمالهم
لهم مني الشكر
وأطلب رضاهم وغفرانهم
إذا قصرتُ في عملٍ ما
تجاه وطني والناس طوال حياتي
وأنا قريب من التسعين عاماً من عمري
أحبّ هذا الكتاب رحلة كفاح
وأرجو لأولادي وأحفادي
النجاح في أعمالهم

محمد إبراهيم العلي



مقدمة

هذه سورية مفترق طرق لثلاث قارات آسيا-أفريقيا-أوروبا، حدودها البحر الأحمر جنوباً والبحر الأبيض المتوسط غرباً وجبال طوروس شمالاً وقسم من نهر دجلة شرقاً مع بادية من الجنوب وليست صحراء. منذ أن تكونت، مر بأراضيها أقوام كثر وكان الإنسان البدائي وكانت حضارة الأنباط.. والحثيين- والهكوس-والفراعنة- والبابليين- والآشوريين- والأموريين- والعموريين- والآراميين وأقوام كثيرة.. وقد عانت من احتلال اليونان أكثر من 200 عام والرومان 800 عام.. والصليبيين 200 سنة والعثمانيين الأتراك 400 سنة، ولكنهم رحلوا جميعاً وبقيت سورية.

في بداية القرن العشرين غزاها الفرنسيون والإنكليز ومزقوها أربع دول..
سورية الحالية.. الأردن.. لبنان.. فلسطين.

وبعد الحرب العالمية الثانية (1940-1945) أضافوا إليها كياناً خاصاً
هو الكيان الصهيوني (إسرائيل) برضا دولي.

وقطعوا قسماً من أراضيها لصالح تركيا هو لواء إسكندرون وجنوب
طوروس، ولصالح العراق قطعوا الموصل وقسماً من الأنبار الجنوبي.

الآن غزو جديد لسورية في بداية القرن الواحد والعشرون ولا ندري متى

سينتهي؟؟

وماذا سيكون؟

ولكن الزمن كفيل بحل كل المشكلات كما حلت سابقاً.. وستبقى سورية .

أما فيما يتعلق بحياتي الشخصية ومحكمتي..

أقول لكل البشر .. الأعمار بيد الله وكما قال المثل (الرزق مقسوم والعمر
محتوم...).

وقد كانت المحكمة مختلطة مكونة من خمسة أعضاء وهي محكمة

استثنائية خاصة

رئيس المحكمة هو الأستاذ أحمد الراشد ومعه أربعة أعضاء هم: منير

برمدا، وعبد الواحد، واللواء فواز أبو علوان من القوى الجوية، والعميد عبد

الكريم العابد.

ومع المحكمة نيابة عامة مؤلفة من:

1- الرائد عز الدين الحفار

2- الدكتور الداودي وهو مستشار في القصر

3- النقيب سليمان النابلسي

وكتبة عددهم حوالي عشرة يجلسون خلف المحكمة في قاعة المسرح العسكري الواقعة في شارع بيروت جانب نادي الضباط الحالي الموقع أعضاء المحكمة والنيابة العامة على خشبة المسرح العسكري والمحامون : الدفاع على اليمين وعددهم خمسين والادعاء على اليسار وعددهم حوالي 49 ويجلسون في الصف الأول من المسرح

والمسرح يستوعب حوالي ألف متفرج وكان مملوءاً بالبشر وهناك أناس يقفون يقدر عددهم بحوالي مئة أو أكثر.

وبدأت الساعة الحادية عشر من يوم 17 كانون الثاني 1963 وصاح منادي المحكمة:

محكمة

وقف الناس جميعاً وخرج أعضاء هيئة المحكمة بلباسهم الرسمي الثوب الأسود والوشاح الأخضر، والضباط بلباسهم العسكري الرسمي وأعضاء هيئة النيابة بالوشاح الأحمر كان منظراً مهيباً ثم قال رئيس المحكمة..

المتهمون وقوفاً وحسن من وضع نظارته ورتب الفني وضع المكرفونات أمام هيئة المحكمة وبدأ يقرأ رئيس المحكمة الحكم تلاه خلال ثلاث ساعات ثم رفع الجلسة للاستراحة مدة ساعة، ودخل إلى غرفة الممثلين وبعد ساعة..، الساعة الثالثة استأنفت الجلسة كالعادة وقرأ صفحات من الحكم طوال مدة ساعتين وصدر الحكم. ثم ساد صمت رهيب في القاعة والمحامون ينظرون إليّ وكل من في القاعة ينظرون إلي هل أنهار أم لا؟؟

وصاح رئيس المحكمة بشكل مفاجئ..
محمد إبراهيم العلي، فوقفت، ما رأيك في الحكم..
كنت هادئاً: أجبته: رأيي في الحكم..
قال: نعم

قلت: يا سيدي الرئيس في الثورة الفرنسية حكم على دانتون بالإعدام
وساقوه للمقصلة فالتفت إلى روبسبير وقال له: ستلحقني عما قريب، وبعد
أربعين يوماً أعدم روبسبير بعد دانتون بالمقصلة نفسها..
ولكن كما أرى الآن والأعمار بيد الله جميعكم أكبر مني سنّاً ستموتون
قبلي وألحق بكم عندما ينتهي أجلي..
تحياتي لهذا الشعب، والتفت إلى القاعة المملأ بالناس كنت أنكلم
بصوت عالٍ موجهاً حديثي للقاعة وقلت شكراً لكم جميعاً..
انتهت المسرحية في هذا المسرح ووقف الناس المتفرجون يصفقون وأنا
أرفع يدي.

رحم الله أعضاء المحكمة والذين من خلفهم وأرجو من الله أن يسامحنا
جميعاً وكانت 8 آذار وسيبقى الوطن للجميع..

محمد إبراهيم العلي

2017/10/21



الفصل الأول

سورية الطبيعية

سورية القديمة تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى خليج العقبة جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً إلى سهل الموصل شرقاً وتقدر مساحتها بحوالي المليون كم²، وهي تقع طرق مواصلات على ثلاث قارات وتقع على البحر الأبيض المتوسط غرب آسيا وتتصل بأفريقيا عن طريق مصر وسيناء وتتصل بأوروبا عن طريق البحر الأبيض المتوسط ويمر فيها طريق الحرير الواصل بين الصين وأوروبا إلى العهد القديم قبل 4000 ق.م، كانت لها حضارة متميزة ووضعت حروف الأبجدية من أجل المراسلات فتعتبر في هذه المنطقة أول من وضع الأبجدية، وكان لحكامها دساتير وقوانين تنظم العائلة والقرية والمدينة وحقوق المرأة وحقوق الزواج والطلاق وكان يسكن مجموعة من الأقوام المتناصرة والمتنازعة وكانت تسكنها على طول لساحل الفينيقيون، وكانوا يجوبون البحر الأبيض المتوسط من أفريقيا إلى أوروبا، ويعملون بالتجارة والصناعة ولهم عادات وتقاليد قديمة مسجلة في كتب التاريخ ولا أريد أن أبحث بتفصيلات دقيقة من هذه العادات والتقاليد.

وكانوا يهتمون بالحرير وصناعة النسيج، وبصناعة الجلود وكذلك بزراعة الزيتون ويصدرون هذه الصناعات أو بعضها ما يفوق عن حاجاتهم بكثير إلى الدول المجاورة.

وكثيراً من أقوامها القدامى مثل الحثيين والهكسوس الذين كانوا على علاقة مع المصريين ووصل بعض هؤلاء في تقلد المناصب إلى أن أصبح فرعوناً وهذه العلاقات تقدم على الزواج والمصاهرات، وأحياناً على الحروب مثل حركة قادش جنوب غرب حمص.

وكان كثير من اللغات التي مرت عليها مع الشعوب التي احتلتها قديماً مثل الأنباط والآموريين والعموريين والآشوريين والكلدانيين والبابليين، وكانت اللغة المستخدمة بين هذه الأقوام هي اللغة الآرامية.

وفي القرن الألفين ق.م غزاها الفراعنة وتصدى لهم البابليين ووصل الفراعنة إلى أرمينيا واجتاحوها ثم غادروا وطردتهم الآشوريون والبابليون، ثم اجتاحتها البابليون في عهد حمورابي الذي سن القانون وعرف بأبي القوانين الأولى في التاريخ، وقسمتها إلى ممالك ومقاطعات من ماري بين البوكمال ودير الزور ومملكة إيبلا في منطقة حلب بين حلب وحماه ثم مملكة حلب ثم لتقسم الممالك إلى مناطق مثل حماه ومملكة السلمية ثم مملكة القدموس ومملكة طرطوس ومملكة جبلة ومملكة بنت جيل بلبنان ثم مملكة صور وصولاً إلى غزة، ووقعت معاهدة بين حمورابي والفرعون، واعتبر غزة منطقة حرة للطرفين يتبادلان فيها التجارة.

طبعاً أخذنا اللغة الآرامية التي كانت تستخدم في تلك المناطق (مثل ايمانه بشراغني، بسنديانه، بحنين، بعزرائيل.. بسخوار، بسوطر، برمانه المشايخ) هذه

مناطق الساحل وهي أسماء آرامية عدا الأسماء الموجودة في المناطق الشمالية السورية في ريف حلب ومناطق دير الزور.

واللغة الآرامية كانت شبه مكتوبة وأغلب الأقوام إضافة إلى لغتهم المحلية كانوا يتحدثون الآرامية أعني العرب القدامى وصلت إليهم اللغة الآرامية إلى أكثر هذه الأقدام.

وفي الألفين قبل الميلاد ظهر إبراهيم الخليل أب الأنبياء، ظهر في العراق وتزوج من هناك واختلف مع قومه وطردوه مع أهله فهرب إلى الجزيرة إلى منطقة مكة وبنى بيتاً كما ورد في القرآن الكريم، بنى بيتاً في وادٍ غير ذي زرع وكانت هذه المنطقة منطقة برمانية وهناك ولدت زوجته ولداً سماه إسحاق ثم ولداً آخر سماه إسماعيل، وإسحاق هذا تزوج أيضاً وولدت زوجته يعقوب، ويعقوب تزوج أكثر من امرأة فأتاه اثنا عشر ولداً، وهاجر يعقوب إلى منطقة فلسطين وبعدها ابنه يوسف الصغير كشأن أي عائلة أصبح أحسن الأخوة فباعه من عثر عليه في البئر إلى تجار مصر، وهناك يوسف كان ذكياً جداً ونبهياً، فاستخدمه الفرعون وسماه عزيز مصر وأعطاه مكانة مميزة وهذا ما ورد في القرآن الكريم سورة يوسف وبعد ذلك دعا أخوته وأباه إلى مصر وهناك دعا الفرعون إلى أن يؤمن بإله واحد وكان ذلك في القرن 1800 ق.م ثم بعد يوسف تطور أتباع يوسف وأبناء يعقوب في مصر، وكان لهم عشيرة كبيرة وخاصة ابنه يهوذا وفي القرن الخامس عشر ق.م صارت تطورات بين الفراعنة والبابليين مما أدى إلى صلح في منطقة غزة ، وبعد عدة قرون ظهر موسى وأخوه هارون كما ورد في القرآن الكريم ودعا الاثنان اتباع يهوذا أن يغادروا مصر إلى فلسطين وهناك عبروا سيناء وذلك في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. يقال إن موسى

ظهر في القرن التاسع قبل الميلاد ويقال إنه ظهر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وعندما عبروا سيناء سمّوا بالعبرانيين وسكنوا منطقة القدس والخليل لأنهم اعتبروا من أحفاد إبراهيم الخليل. أما أبناء إسماعيل فهم العرب وجدهم إبراهيم الخليل، وفي القرن السادس قبل الميلاد ظهر سليمان ابن داود وكان حاكماً ذكياً وتاجراً كبيراً يتاجر مع كل القبائل المجاورة له، حتى وصلت تجارته إلى اليمن وتحالف مع ملكة اليمن بلقيس وتزوجها كما ورد في القرآن الكريم ولكن اختلف معها فعادت إلى اليمن وبقي سليمان في مملكته في فلسطين.

سليمان كان تاجر الذهب وغزا العشائر التي حوله، وحصل على الكثير من الذهب، وهو سليمان ابن داود كما ورد في القرآن الكريم عن بلقيس وسليمان وعرش بلقيس لأن بلقيس كانت تتكلم اللغة الحميرية وبعد فترة كانت هذه الديانة التي اعترف بها موسى ويوسف وداود وسليمان قد اجتاحت المنطقة، وبعد ستمائة سنة أصبح خلل في هذه الديانة في 235 ق.م حين غزا الإسكندر المقدوني سورية والمنطقة بكاملها واجتاح منطقة الشرق الأوسط وتزوج امرأة سورية (إنه الإسكندر ابن الملك فيليب المقدوني من مقدونيا)، وهذه المرأة اسمها أفايا وبعد أن اجتاح الشرق الأوسط بكامله ووصل إلى الهند واجتاح إيران، بلاد فارس وبعد أن وصل إلى الهند رجع عن طريق إيران وكان الطقس حاراً فمات ربع من كان معه في صحراء بلوچستان ووصل إلى طهران فعكف فيها فترة من الزمن، وكان هناك زواج لكثير من جنوده من الفرس ثم غادر إيران وتوفي في أرمينيا، وكان عمره حوالي ثلاثة وثلاثين عاماً ق.م وعادوا به (يقال

إن الإسكندر مات بمغص شديد ولم تنفع معه الأدوية فأزرق ومات ولم تكتشف آنذاك الزائدة الدودية).

أما سلوقس القائد العسكري عند الإسكندر فقد وضعه في صندوق وطوفه بالعسل وقاده بعربة تجرها الخيول إلى مقدونيا وتولى سلوقس الأول حكم هذه المنطقة فاستمرت الإمبراطورية السلوقية مئتي عام حتى أتى الرومان وحلوا محل السلوقيين، وحكم الرومان وكان هناك صراع بين سورية وما حولها ومع شمال أفريقيا ووصلوا إلى أرمينيا حوالي 800 عام.

والرومان عندما دخلوا وحكموا هذه الأقوام مدة ثمنئة عام سيطرت روما على مصر وشمال أفريقيا وسيطرت على سورية وما حولها، ثم عندما نهض الفرس، ولكن مع تطور الزمن بقي الصراع، فترة يسيطر عليها اليونان، وفترة يسيطر عليها الرومان وعندما أتى السيد المسيح، والسيد المسيح كان يهودياً، أتى كي يصلح المذهب اليهودي ولكن الرومان اعتبروه خارج عن المذهب اليهودي ودسّ له أحبار اليهود.

والعرب عندئذ كانوا قبائل في الجزيرة العربية والخليج العربي واليمن والعراق كان المناذرة من بني شيبان، وكان في سورية الغساسنة وفي منطقة حوران وأتباع المسيح وتلاميذته تلقوا الأناجيل عن السيد المسيح وخاصة بطرس الرسول الذي وصل إلى دمشق وبنى أول كنيسة فيها وكلمة كنيسة تأتي من كلمة الكنيس اليهودي، وبعد فترة من الزمن انتشرت الديانة المسيحية في منطقة الشرق الأوسط ومصر والحبشة شمال أفريقيا، وقام الرومان بإعدام الكثيرين من ثلاثمائة راهب من الأقباط لأنهم آمنوا بديانة السيد المسيح ولكن هذه الإعدامات زادت من انتشار المسيحية في شمال أفريقيا والحبشة ومر الزمن

وظهر النبي الكريم ولكن قبل ظهوره انشقت الكنيسة المسيحية على نفسه وآمن الرومان بالمسيحية واعتبروها المذهب الرئيسي لهم واحتل الرومان القدس والقسطنطينية (اسطنبول حالياً) وامتدت هذه الإمبراطورية شرقاً وكان الصراع في سورية بين الفرس والرومان وهنا ظهر الإسلام.

وَأَلَفَ النِّسَاطِرَةَ اتِّجَاحاً دِينِيّاً فِي الْمَسِيحِيَّةِ وَبَعْدَ الْمَسِيحِيَّةِ أَتَى الْإِسْلَامَ بِسِتْمِائَةِ وَائْتِنِ وَعِشْرِينَ، ظَهَرَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ وَكَانَ الْعَرَبُ يَغْطُونَ فِي جَهْلٍ عَمِيقٍ وَيَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ وَلَكِنَّ الْعَرَبَ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَانُوا تِجَارَةً وَرِعَاةَ يَرْبُونَ الْأَغْنَامَ وَالْإِبِلَ وَالْخَيُْولَ وَكَانَ لَهُمْ عِلَاقَةٌ تِجَارِيَّةٌ مَعَ الْيَمَنِ وَمَعَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ. وَفِي الْخَلِيجِ كَانَ لَهُمْ تِجَارَةٌ. وَوُردَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي سُورَةٍ عَنْ هَذِهِ التِّجَارَةِ "لَا يَلَافُ قَرِيشٌ إِلَّا بِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ".

وحاولت الحبشة (إمبراطور الحبشة) هدم الكعبة هذا البيت الإسلامي حتى تنتهي هذه الأسطورة أسطورة إبراهيم الخليل الذي بنى هذا البيت ولكن انشقاق الكنيسة حمى البيت لأن الكثير من سكان هذه القبائل كان على المذهب المسيحي النسطوري فرد الحملة مع بعض القبائل العربية التي دافعت عن مكتسباتها التجارية (ووردت سورة في القرآن الكريم "ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل") ولكن كلمة الفيل مشكوك فيها كثيراً لأن في الجزيرة العربية لم يعيش الفيل فمنهم من قال إن الفيل قائد الحملة واسمه الفيل ومنهم من قال أتوا بالفيل وركب عليه وانتهت حملة الحبشي بأنه ارتد جيش الحبشة عن البيت ولم يهدم (يقال إن عبد المطلب ذهب إلى قائد الحبشة

وكان يتصور أن يطلب منه عدم هدم البيت ولكنه طلب منه أنكم استوليتم على جمالي فردوها لي. وقال له القائد الحبشي الفيل كنت أتصورك بأن تطلب مني عدم هدم الكعبة وأجابه "إن للكعبة رباً يحميها"، وعادت الحملة إلى الحبشة مهزومة وفي هذا العام ولد النبي محمد (ص) ابن عبد الله وأمه آمنة بنت وهب عليه السلام.

وعندما كبر اشتغل في التجارة وتزوج من خديجة بنت خويلد وكانت نسطورية (مسيحية) وجرت في مكة في البيت الحرام على المذهب النسطوري وعندما بلغ الأربعين جاء له الوحي وبشر بالإسلام وناضل كثيراً حتى اتبعه عدد قليل من المسلمين في البداية ، منهم أبو بكر أول رجل ومن النساء زوجته خديجة ومن الفتيان علي ابن أبي طالب وهاجر قسم من أتباعه إلى الحبشة، وعندما اشتد ساعده في مكة المكرمة ونشر دعوته على الملأ وبدأ الصراع بين هذه القبائل بين أتباع النبي محمد وبين الذين يعبدون الأصنام وانشقت قريش على نفسها وازداد الصراع في مكة المكرمة ثم هاجر الرسول إلى المدينة المنورة وساندته قبيلتا الأوس والخزرج في المدينة المنورة مشاكسة الذين لم يسلموا في قريش وعندما اشتد ساعده أكثر وكثر أتباعه، جرت معارك بينه وبين قريش منها معركة بدر وأحد والخندق قرر الهجوم على مكة، وفتحت مكة وأسلم أهلها منهم من أسلم قسراً ومنهم من أسلم طوعاً ومنهم من أسلم لمصالحه الاقتصادية والتجارية، وكان الاقتصاد مهماً وغير الرسول عادات وتقاليده دينية منها عدم اتخاذ القدس قبلةً.

فغير الصلاة باتجاه مكة، وأصبحت مكة حسب ما ورد في القرآن قبلة الإسلام والحج إلى البيت الحرام، لأن الحج كان سوقاً تجارية يتبادل فيها

الشعراء والاقتصاديون والتجار بيع الأبل والأغنام والخيول وكان جانب من السوق مكان يسمى سوق عكاظ يتبادل الشعراء الملهمون في تلك السوق الشعر.

قبل ظهور النبي الكريم كانت توجد إرهابات لثورة الفقراء ضد الأغنياء ومنها ثورة الصعاليك وشعراء الصعاليك وأدب الصعاليك وقاد هذه المجموعة (عمر ابن الورد) قائد الصعاليك في الجزيرة العربية.

كان الكثير من القبائل العربية تؤمن بالدين اليهودي وبالدين المسيحي على سبيل المثال بني قريضة يهود، بني قينقاع يهود ، بني المصطلق يهود، بني شيبان مسيحيون ، الغساسنة مسيحيون، وعندما بدأ الإسلام يشتد عوده أكثر و ينتشر بشكل أوسع وانتشر في اليمن وأصبحت قبائل بني حنيفة مسلمين وقبائل الخليج العربي أسلمت بكاملها ، حاول بعض قبائل اليهود من بني قريضة التآمر على الرسول وقتله فطردهم من المدينة المنورة فالتحقوا بحصن خيبر، وهناك لاحقهم المسلمون وكثر عددهم وجرت معركة حول حصن خيبر حتى قتل قائد حصن خيبر واستسلم الحصن، ولذلك يقال إن اليهود هم العبرانيين الذين عبروا نهر الأردن وتزوج الرسول من يهودية صفية الحلية ابنة أحد قادة اليهود وشاعر المسلمين حسان بن ثابت تزوج من أختها سيرين القبطية بعد معركة خيبر فيها جرت أغلب القبائل اليهودية الساكنة حول مكة والمدينة هاجروا باتجاه الشمال وكان يسيطر على الشمال الحكم الروماني وعلى سورية الكبرى الحكم الروماني ومن الشرق الحكم الفارسي، وكان التنافس ما بين الفرس والرومان أحياناً يصل الرومان إلى غرب الفرات وأحياناً يصل الفرس إلى غرب الفرات.

وهناك سقطت مملكة تدمر في هذا الصراع بين الفرس والرومان.
سيدنا محمد (ص) كان تاجراً موهوباً وتعرف إلى الراهب بحيرة في بصرى
الشام وكان نقاش حول إصلاح الدين اليهودي والنساطرة وزوجته النسطورية
خديجة وخالها ورقة بن نوفل كان أحد القساوسة في المذهب النسطوري في
مكة المكرمة والذي مهد للرسول الكريم بعد أن آنس فيه إصلاح هذه القبائل
العربية وعندما اشتد ساعد الإسلام وأسلمت قبائل اليمن وقبائل الجزيرة أرسل
الرسول كتابين إلى إمبراطور بيزنطة وإلى كسرى ملك الفرس ولكن إمبراطور
بيزنطة قتل الرسل الذي حمل الرسالة فشكّل الرسول (ص) جمهرة من المقاتلين
بقيادة جعفر الطيار بن أبي طالب والقائد الثاني زيد بن حارثة. هذه الحملة
كانت للهجوم على الرومان في سورية وفلسطين، ودارت معركة مؤتة وقتل
جعفر بن أبي طالب، وقتل بعده زيد ابن حارثة وقتل بعده القائد الثالث وكان في
الجيش خالد بن الوليد وكان إسلامه حديثاً فحمل الراية وانسحب وعاد إلى
المدينة المنورة وكادت نساء الشهداء أن يهجمن على خالد، وحصلت بعدئذٍ
معركة تبوك فانتصر فيها المسلمون.



الفصل الثاني

أصول العائلة .. وهجرتها

كانت سورية الطبيعية وفق اتفاقية سايكس بيكو قسمت إلى أربع دول. لبنان وسورية إلى فرنسا، وفلسطين والأردن والعراق إلى بريطانيا وبعد أن غادر الملك فيصل سورية واستشهد يوسف العظمة وزير دفاعه في منطقة ميسلون في وادي القرن غرب ميسلون ونقل مجروحاً إلى ميسلون وحاولت نازك العابد معالجته، لكنه فارق الحياة في ميسلون ودفن هناك ودخل الجنرال غورو إلى دمشق واحتل دمشق. لقد اقتطع من سورية محافظة طرابلس وأضيفت إلى لبنان وكذلك محافظة البقاع الشرقي ومنطقة رياق وزحلة والبقاع الجنوبي اقتطع من سورية وأضيف إلى لبنان وتشكلت دولة لبنان وشكل غورو دولة لبنان..

أما في سورية فقد قسمت إلى خمس دول وهي دولة الساحل ودولة حلب ودولة الجزيرة ودولة حمص وحماة ودمشق ودولة السويداء ولكل دولة لها علم. ودستور وقانون وبدأ هنا كفاح الشعب السوري من أجل وحدته وكفاحه من أجل استقلاله..

وعدت فرنسا تركيا بلواء اسكندرون وذلك في معاهدة لوزان 1923 كذلك اقتطعت من سورية الموصل وأضافوها إلى العراق وحصلت تركيا على

شمال سكة الحديد حتى قمة طوروس. هذه الأراضي والسهول كانت لسورية وتقدر مساحتها (600 × 40) أي 24000 كم². واقتطع أيضاً (سهل الخصب) من سورية من الجنوب الشرقي وأضيف إلى العراق وهكذا حددت حدود سورية الحالية بخمس دول ومساحة 180000 كم² وسيطر الفرنسيون سيطرة كاملة على سورية وبدأت المقاومة السورية هناك لإعادته.

سورية كما هي الآن وفي عام 1936 وافقت دولة العلويين على نقل برلمانها إلى دمشق وجرى الاتحاد مع دولة دمشق وأضيف إليها هذه الدول المتفرقة وقاد المقاومة في الجنوب سلطان باشا الأطرش والأشمر وحسن الخراط في دمشق والعبيسي وقباز في حماة وعدد من الحماصنة أيضاً.

في أيام الحكم العثماني وانتهاء المقاومات في الوطن العربي واحتلال الأوروبيين لشمال أفريقيا. وفي أثناء الحكم العثماني لسورية كان العلويون يسكنون في هذه الجبال وكثير من الذين يدينون بهذا المذهب في بعض المناطق (عفرين، سنجار، المدن) كانوا مفترقين ولا أحد يعرف عنهم إلا أنهم مسلمون. واستمر حكم العثمانيون في سورية حوالي 400 عام.. دخلوا 1516 وخرجوا من سورية 1918.

في منتصف القرن التاسع عشر صار اهتزازات بالخلافة العثمانية وكان احتلالهم لمناطق العلويين كان قاسياً جداً وكان سكان هذه المنطقة في هذه الفترة يدينون فيها بديانات ومذاهب مختلفة (سنة، مسيحيين، علويين واسماعيليين..). ولكن الأغلبية هم علويون وكان الوالي مركز اللاذقية وكان الذين يشاغبون يحكمون عليه بالإعدام والإعدام هو الخازوق وكان العلويون والمسيحيون يقيمون احتفالاتهم الدينية مثلاً (العلويون يعملون على عيد

البربارة) وهو عيد مسيحيين ويعملون على ميلاد المسيح ثم يعملون على أعياد النيروز وهو عيد كردي إضافة إلى أعياد رمضان والأضحى والغدير، وفي هذه الأعياد كلها يشكلون فيها أفراحاً مشتركة لأن سكان المنطقة فيها مسيحيون كثر في قرية السودا شمال شرق طرطوس، وظهر صفراء، ومتن بيت عرنوق وإضافة إلى منطقة صافيتا ووادي النصارى فهذه الأفراح تكون مختلطة ويحضرها رجال الأمن العثماني، وهناك قرية الخريبات وبعض القرى المسيحية بين بانياس وطرطوس على المذهب المسيحيين وهم من الموارنة.

كما اعتقد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان هناك احتفالات في إحدى القرى التابعة لمنطقة الشيخ بدر اجتمع القرويون في هذا العيد في قرية لأحد زعماء العشائر وحضر رجال الأمن الأتراك وكان هناك عائلة تحضر هذه الاحتفالات رجل وزوجته وبنته وأولاده.

والرجل في حوالي الأربعين من العمر وزوجته أصغر منه بقليل وكان اسمه علي محمد العلي ويبدو أن أحد رجال الأمن العثمانيين أعجب بزوجة هذا الرجل وابنته وأعلم ابن شيخ العشيرة قائلاً له أخبر هذا الرجل بأننا سنمضي يوماً قبل رأس السنة في بيته وسوف أعطيه قطعاً من أرض السلطان ليوسع أرضه.

وقل له نحن سنحضر ضيافتنا وانتهى الاحتفال في تلك القرية في عيد الميلاد وأخبر ابن الوجيه علي بأن المسؤول العثماني سيزور منزله قبل رأس السنة بيومين في 27 كانون الأول وعليه فقط استقباله، ولا تكلف عائلتك بالضيافة فنحن نأخذ ضيافتنا معنا.

أجابه علي: لا أملك سوى منزل واحد والمنزل الجبلي يتألف من غرفة واحدة طولها 7م وعرضها 6م وفي منتصفها ساموك من الخشب يحمل أربع

سواميك من الخشب وسقفها من كسح السنديان (أغصان السنديان) وفوق هذه العيدان يطينونها ويدلبوها في الطين واسمها (العرجلينة) وارتفاع السقف 6م لأن هذا البيت يقسم إلى مكان للماعز وفوق الماعز يسمى العرزال وفوق هذا العرزال ينام الأولاد وأحياناً كامل العائلة تنام، وفي القسم الثاني من المنزل يوجد مكان للحيوانات مثل البغلة أو الحصان أو البقرة في القسم الآخر ويفصل بين الماعز والبقرة مجموعة من أغصان السنديان وهناك سيباط نهاراً يجلس عليه الأولاد والعائلة وفي وسط هذا السيباط يشعلون النار للتدفئة في الشتاء والباب من الخشب (خشب السنديان) وله قفل من الداخل بعد أن تغيب الشمس وتدخل العائلة إلى هذا المنزل ومواشيه ودوابه يقفل الباب، وكان هناك نوافذ صغيرة من أجل التنفس أما الماعز فكانوا في الشتاء يكسحون لها أغصان السنديان ويأتوا لها إلى البيت لتأكل أوراق الأغصان أما الأغصان فتكسر وتكون حطباً في الموقد، وعند الباب في الخارج يوجد تنور من أجل الخبز.

فكر علي لماذا اختاروني ليسهروا عندي.. وقلق من هذا الأمر ولكنه لم يخبر زوجته، وعندما عاد إلى القرية أخبر أخوها يوسف ابن عمه وبدأ الجميع يتناقشون في هذا الأمر ولكن علي كان من الرجال الأقوياء جسدياً فقال أنا أتصور أنهم لن يأتوا من أجلي وإنما سيأتون من أجل زوجتي أو ابنتي، كان اسم الزوجة فاطمة واسم البنت هادية وأولاده الذكور هم محمد وحسن وسليمان ومحمود، ولأن علي لم يقتنع بهذه الزيارة فقد قرر في اليوم الثاني وفي هذا الثلج الذي يعم الجبال أن تكون عائلته بكاملها خارج القرية، لذلك نقلهم في اليوم الثاني إلى منطقة الشيخ بدر وكانت سابقاً قرية والآن أصبحت (منطقة) ثم

ذهب شرقاً إلى وادي العيون ثم اتجه شرقاً إلى قرية السنديانة التي تبعد شرق وادي العيون حوالي 7 كم.

وهناك عنده قريب قال له: سنمضي رأس السنة عندك وقد جئت مبكراً فرحب به قريبه وبعد قليل قال له نسيت أن أخبر ابن عمي وقد يأتي في رأس السنة لذلك سأترك العائلة والأولاد عندك وأعود إلى القرية.

قد أتأخر بعض الوقت ولكن ليلة رأس السنة سأكون عندك وعاد مشياً على قدميه حتى وصل إلى القرية، والقرية اسمها العرقوب ومن يقف على تلالها يشاهد البحر الأبيض المتوسط ويشاهد جبال مصيف الشرقية لأنها أعلى قرية في المنطقة وعندما وصل إلى القرية وكان مسلحاً بالساطور الذي يكسح فيه الشجر وعيدان السنديان واجتمع مع شقيق زوجته مرة ثانية وقال له فإن قبلوا بالعشاء فأهلاً وسهلاً، وإن أرادوا أن يتمادوا أكثر ستكون هناك مشكلة كبيرة وقال له أنت شقيق زوجتي وابن عمي خذ جميع الاحتياطات للهروب من القرية. وفي يوم 28 كانون الأول وفي نهاية عام 1880 تقريباً في 28 كانون الأول وبعد غروب الشمس وصل القائد العثماني ووصل أحد العثمانيين ولا أعرف رتبته هل هو امباشي أو شاويش أو يوزباشي وقد حضر معه ابن الوجيه ومعهم أواني الطعام وذن من الخمر وذن من عرق التين وكان هناك سكان الجبال يصنعون العرق من التين وأنزلوا هذه الموائد وكان في السابق حصيد ومدة عليها الرجل لحافاً كبيراً وأيضاً أنزل الوسادات من العرزال إلى الأرض. وفتح الباب ورحب بالضيوف وعندما وضع الطعام على الشرفف وكان الطعام من اللحم المسلوق والمشوي وصبوا العرق وبدأوا يشربون وبعد دقائق سألوا وكانوا

قد علموا بأن اسم الزوجة فاطمة واسم ابنتها هادية فسألوا علي.. أين زوجتك وابنتك؟؟

قال علي لهم: ذهبوا لزيارة أهلها وقال له العثماني: سأعطيك بعض الحواكير لتملك أكثر من أملاك السلطان وبعد حوالي أكثر من نصف ساعة ويبدو أن الكحول أخذت مفعولها وعلي لم يشرب الكحول لأنه متحفر لما سيحصل، قال له: هذا المسؤول العثماني. اذهب وأحضر زوجتك وابنتك فقال علي له: لماذا أنا جاهز لخدمتكم. هل يوجد أي نقص في الخدمة قال له يوجد نقص يجب أن تحضر ابنتك وزوجتك وابن الوجيه قال لعلي أيضاً لا يوجد مشكلة اذهب وأحضرهما.. وإلا سيكون هناك مشكلة كبيرة، وقال المسؤول العثماني إذا لم تحضرهما ستموت وسوف نأخذهما معنا ، اذهب وأحضرهما.. قال علي: إذا لا بد من الموت. فقال له ابن الوجيه: إذا لم تحضرهما ستموت. وكان علي قد وضع الساطور في الساموك أي علّقه على الساموك.

وقال لهما: إذا كان لا بد من الموت فأنا ذاهب لإحضارهما وخرج، وأخذ الساطور وضرب العثماني بيه فقتله، وكان هذا الساطور يقطع شجر السنديان، وهرب ابن الوجيه من الباب، وهرب علي أيضاً!

خرج علي تاركاً منزله إلى منزل ابن عمه وأخبره بما حصل.

وقال له: اهرب وأخبر القرية أن يهربوا جميعاً لأنه قد تأتي قوة وتهدم القرية ويعدمون كثيراً من أفراد القرية. وذهب شرقاً مع أسرته في هذا الليل المخيف والأرض مغطاة بالثلوج وقال له ابن عمه إلى أين فأجابه: أرض الله واسعة ولكن أنا متجه لجهة الشرق ولا تقول لأحد هذا وقد تكون المحطة

الأولى في حماة: ووصل عند الفجر إلى قرية السنديانة وهناك بدا هادئاً ولم يتكلم بشيء.

ولكن قال لمضيفه يبدو أنني غيرت رأيي في رأس السنة ويجب أن أذهب مع عائلتي إلى منطقة مصيف لي هناك لهم أقرباء في قرية (بقرافة) وهي تقع شمال مصيف إلى الشرق قليلاً حوالي 8 كم.

وركب ابنته وزوجته على البغلة ووضع الطفل محمود وسليمان في الخرج أما محمد وحسن فكانا كبيرين وتابعا على الطريق سيراً على الأقدام شرقاً ولكنه لم يذهب إلى بقرافة بل ذهب إلى قرية الشميسة جنوب مصيف حوالي 8 كم وله قريب فيها ووصلها بعد الظهر، وهناك توقف ولم يقل لهم شيئاً إلا أنه أتى لزيارتهم ومن البرد الشديد مات ابنه الصغير محمود.. ودفن في قرية الشميسة.

وفي اليوم الثاني صباحاً إلى قرية السويداء التي تبعد حوالي 10 كم جنوب شرق مصيف وهناك توقف قليلاً عند قريب له، قال له اسمع يا علي أخبرني لماذا أتيت في هذا الطقس البارد فسر له كل ما حدث معه. وقال له: إلى أين أنت ذاهب فقال له إلى حماة.

ولكن قريبه سأله: هل تعرف أحداً في حماة.

قال علي: لا..

قال له: إذن غير الطريق واتجه إلى الجنوب إلى قرية القبو التي تبعد عن السويداء حوالي 20 كم وفعلاً غير علي الطريق بناء على نصيحة قريبه.. ووصل إلى القبو عند الغروب، وقال له:

انزل في بيت قريب لهما اسمه عوض بالقبو، ولا تقل له ما حدث معك.

قال له: هل تعرف زوجتك ما حدث معك.. وأولادك أيضاً.

قال علي: لا.

قال القريب: إلى قرية القبو فوراً.

وصل إلى القبو عند الغروب إلى بيت عوض واستقبله الرجل بترحاب هو وعائلته وبعد العشاء ناموا متعبين والثلوج تغطي الأرض، وقد أصاب علي مغص شديد في الليل ولم تنفع له كافة المشروبات الساخنة مثل الزوفا والبابونج والزهورات فتوفي الرجل ليلاً في بيت عوض (يبدو أن الزائدة الدودية قد التهبت وانفجرت..). ولم تكتشف بعد الزائدة الدودية فيقولون (انمغص وازرق ومات..).

وذهب عوض إلى الشيخ طراف وكان من زعماء القرية وشيخ مشايخ العلويين في المنطقة فقام الشيخ طراف ونقل المتوفي إلى المقبرة ودفنه بجانب قبة أبيه الشيخ طراف الأول. وبقيت الزوجة والبنت والأولاد في بيت عوض وسأل الشيخ طراف: من هو هذا الرجل فقال له: أتى من الغرب (غربي) باللهجة العامية. أي غريب أتى مساءً.. ومات وسمي أولاده وزوجته بالغربية.

بعد مقتل المسؤول العثماني بالساطور، شكل العثمانيون حملة وأتوا إلى القرية ودمروها وهدموا بيت علي وحرقوا مواشيه وهجروا أهالي القرية جميعاً.

قام شقيق زوجة علي واسمه يوسف بعد سنوات من الحادثة وذهب إلى الشيخ سلمان (شيخ العشيرة..). وقال له: ألم يحن الوقت لنبحث عن علي.. قال له: يجب أن نبدأ البحث.

وكان ذلك أوائل شهر شباط من عام 1880م وقام رجال ثلاثة بمهمة البحث هم يوسف والشيخ سلمان ورجل يسمى (العكام) وهو مرافق للشيخ

سلمان، واتجهوا شرقاً ووصلوا إلى السنديانة ومن هناك ذهبوا إلى قرية الشميسة مباشرة وسألوا عن علي فقال لهم قريبهم إنه ذهب إلى حماة.

فمضوا على بغالهم واتجهوا إلى حماة وعند وصولهم وقت الغروب.. نزلوا بيت الشيخ صالح جعلوك وكان من مشايخ العلويين في مدينة حماة ومدينة حماة يوجد فيها عائلات علوية كثيرة. لأنها قبل الحكم العثماني كانت تدين بالمذهب العلوي ولكن العثمانيين هدموا المآذن على رؤوس أصحابها وفرضوا عليهم تغيير مذهبهم وكون المذهب العلوي من المذاهب الباطنية فلا يزال فيها قسم كبير من عائلات علوية ومنهم الشيخ صالح جعلوك (الشيخ سلمان هو جد الشيخ صالح العلي..).

وفي الليل أصاب الشيخ سلمان مغص شديد وتوفي في بيت الشيخ صالح جعلوك. وفي الصباح حملوا جثمان الشيخ سلمان في عربة تجرها الخيول إلى قرية (بيصين) التي تقع جنوب غرب حماة حوالي 20 كم وهناك دفن الشيخ سلمان (يوجد شيخ اسمه الشيخ سلمان أيضاً، لكنه من قرية المشرفة) وأهل القرية بنوا للشيخين مزاراً يسمى بمزار الشيخ سلمان بيصين وبعد الدفن عاد الشيخ صالح جعلوك إلى حماة أما يوسف والعمام فقد ذهبا غرباً إلى قرية السويدية وهناك اجتمعا مع قريب علي وقالوا له نحن نبحت عن علي وهذا ما حدث معنا فقد توفي الشيخ سلمان دفن في قرية (بيصين).

وعاد يوسف ومرافق الشيخ إلى قرية السويدية إلى عند قريبه وسأله هل

علمت شيئاً عن علي.

قال له: انتظر.

وغادر مرافق الشيخ عائداً إلى قرية المريقب التي تقع غرب منطقة الشيخ بدر بحوالي 2 كم أو أقل وبقي يوسف عند قرية فقال له علي ذهب إلى القبو ولا تقل لأحد فركب الاثنان على البغلة ومعهما بغلة ثانية وذهبا إلى القبو إلى بيت عوض وشاهد شقيقته فاطمة وابنتها وأولادها الثلاثة وعرف عن وفاة علي في يوم وصولهم وشكر عوض وحملوا العائلة وغادروا إلى قرية السويدية وترك شقيقته وأولادها في قرية السويدية وغادر ليطمئن عن زوجته وأولاده أيضاً الذين أودعهم شرقاً في قرية (بريصين).

وبعد أن اطمئن عليهم استشار أقرباءه فقال له العثمانيون يبحثون عنكم في كل مكان فنقل عائلته بكاملها شرقاً إلى قرية السويدية وكان ذلك في أواخر شهر آذار 1880م واتفقوا جميعاً أن رجال الأمن العثمانيون يبحثون في كل مكان عن علي ولذلك قرروا أن يذهبوا شرقاً واجتازوا حماة إلى شمال شرق حماة في منطقة الحمرا ثم ذهبوا شمالاً أيضاً إلى منطقة أبو الظهور وهناك كانوا بعيدين عن السلطة العثمانية لأن سكان المنطقة من البدو وخاصة قبيلة الحديدية والمنطقة تابعة لعشائر الحديدية وزاروا شيخ عشائر الحديدية الشيخ نواف صالح الشرخ واعتبروهم لاجئين فأضافهم إلى إحدى عشائره وعنده عشيرة تسمى (الكوما) وأعطاهم أوراق تعريف للكبار منهم وكتب اسم يوسف فقط لأنه كان أكبرهم وعدهم من عشائر الحديدية وعاشوا هناك بين البدو في البداية كانوا رعاة وبعدها سكنوا في القرى الشرقية الخاضعة لمنطقة البدو وفي سنة 1883م قررت أم الأولاد تزويج الولد البكر محمد بعد أن زوجت ابنتها هادية في قرية السويدية.

وبحثت فاطمة وشقيقها يوسف وابنها محمد عن فتاة ليتزوجها وكانوا مثل آخرين هربوا من أرياف طرطوس إلى منطقة الشرق سواء لطلب الرزق أو الهروب من سلطة العثمانيين وكانت تلك المناطق تسمى (بالجفتلك).

أي أرض السلطان وكان في قرية مريود التي تبعد شمال شرق عن حماة (شيخ من قرية بريصين) قرب الشيخ بدر اسمه الشيخ محمد إبراهيم، فذهب يوسف وشقيقته فاطمة وابنها محمد إلى قرية مريود وكان عند الشيخ شقيقه اسمها بحر وطلبوا من الشيخ أن يزوجهما لابنها محمد، فوافق الشيخ على ذلك وقرأ الفاتحة وعقد القران بينهما.

وحملوها معهم إلى منطقة الحمرا شرقاً إلى منطقة الحديددين وهناك عاشوا جميعاً... هذه المرأة حملت وأنجبت الولد الأول وسمي علي علي اسم جده المتوفي في القبو وبعد حوالي أربع سنوات ولدت ولداً ثانياً وسموه إبراهيم وبعد سبع سنوات أنجبت الولد الثالث وسمي عبد الله..

وفي نهاية هذا القرن التاسع عشر قررت أن تزوج ابنها الثاني حسن وبحثت له عن فتاة وكانوا يتابعون أخبار العائلات التي تأتي من الغرب إلى الشرق فكان في القرية عائلة تدعى بيت سلوم (قرية تدعى السمينة شمال السلمية 20 كم..). وذهبوا إليها فاطمة وحسن فقط لأن شقيقها يوسف توفي.

وخطبت له فتاة من بيت سلوم اسمها حسن وأهلها رجال دين أيضاً وعقدوا قران حسن وحملوها شمالاً إلى قريتهم في منطقة (أبو الظهور) وبعد زواجه من حسن وكان الوقت شتاء والبرد شديداً وبينما هو يرعى غنمه في المنطقة أصابه ألم في البطن وتوفي في الأرض ثم نقلوا جثمانه ودفنوه في المقبرة، وبقيت حسن مع العائلة وكان هناك خلاف في الرأي هل يعيدوها إلى

أهلها أو يتزوجها شقيقه سليمان وقررت فاطمة أم سليمان أن تزوج سليمان من حسن زوجة أخيه المتوفي، وفي هذه الفترة بعد زواجه من حسن حملت وولدت له بنتاً سماها فاطمة على اسم أمه لأن أمه توفيت، بعد أقل من سنة أصاب حسن ألم شديد في البطن وتوفيت.

والصغيرة فاطمة ربتها بحر (أم علي) وبعد حوالي أكثر من سنتين تزوج سليمان من امرأة، أهلها رجال دين من منطقة حمص من بيت الشيخ الأسمر واستمروا في العيش في منطقة الحديددين وفي عام 1913م ولد لسليمان ولد اسمه يوسف على اسم جده شقيق فاطمة..

وفي عام 1914 كان قد كبر علي وإبراهيم وسليمان، وبدأت الحرب العالمية الأولى ويبدو أن مخبري العثمانيين في المنطقة وشوا أن هؤلاء البدو سليمان وعلي وإبراهيم (ليسوا بدواً) وإنما هم من الحضر، وذهب العثمانيون واعتقلوهم وهذا الذي وشى بهم لم يعرف من هم، ولكن قال لهم إن كنيثهم (الغريبة) وهم يحملون أوراقاً من شيخ عشائر الحديددين بهذه الكنية واعتقلوهم ثلاثتهم وساقوهم إلى معرة النعمان ليساقوا بعدئذ إلى حرب البلقان ولكن أخوهم الصغير عبد الله سأل شيوخ عشائر الحديددين وبعض عشائر الموالى (نحن بدواً) لماذا يساق أخوتي إلى الجيش؟! ودلهم أحد البدو على الشيخة عائشة أخت مفتي السلطان أبو الهدى الصيادي والبدو لا يقولون عن عائشة باسم عائشة بل يقولون عويش (عويش شقيقة أبو الهدى). وذهب عبد الله شقيق علي وإبراهيم إلى الشيخة وكانت تسكن في قرية أبو الهدى الصيادة (مفتي السلطان) واسم هذه القرية (قبيبات أبو الهدى). وعرض عليها عبد الله

المشكلة. وكانت الشيخة إذا ذهبت لحل مشكلة لا بد من أن يكون لها إكرامية.

وهي ستقدم إكرامية أيضاً للسلطة المحلية أو للسلطة في حلب. ولذلك اتفق عبد الله معها على خمس عشرة ليرة ذهبية. ثم ركبت على فرسها وهو على بغلته وذهبا إلى المعرة واستقبلهما قائد الحامية العثماني هناك وقالت له: هؤلاء من جماعتي، وهم بدو، يجب أن يخلي سبيلهم وهكذا كان..

فأطلق سراحهم وعادوا إلى البدو وكل واحد أخذ حصته من هذا المبلغ. وكان علي وإبراهيم أصبحا شايبين، اجتازا العشرين من العمر أما عبد الله فلا يزال أصغر من الثمانية عشر عاماً.

هذا هو تاريخ أسرتي التي عانت الكثير بسبب الظلم الذي وقع عليها، ومثلها كثير، من قبل العثمانيين، فقد كانت حياة التنقل والخوف والمعاناة والمرض وعدم امتلاك أي شيء هي السمات التي وسمت حياة أسرتي!



الفصل الثالث

حماة وثورة الشيخ صالح العلي

طبعاً بعد أن احتل الفرنسيون دمشق تابعوا باتجاه حمص ووقفوا عند النبك فترة طويلة وكانت المعارك دائمة في المنطقة بطريقة عنيفة فرجعوا مرة ثانية احتلوا السودة ورجعوا ليمارسوا نفس الطريقة وحرقوا هذه القرى بالطيران وتابعوا الهجوم عليها لكن للمرة الثانية لم يستطيعوا السيطرة عليها وكان قائد المقاومة الوطنية الرئيسي النقيب جميل ماميش مع الكتائب التي جلبها من حماه، واعتقد أنه استشهد في هذه المعركة من المجاهدين حوالي أربعين مجاهداً وجرح حوالي مئة وعرفت هذه القرى للمرة الثانية القصف بالغارات الجوية وفي هذه المعركة الثانية والغارات الجوية الثانية أسقط الثوار طائرتين وأسروا من الجيش الفرنسي حوالي أربعة عشر جندياً جزائرياً كانوا من ضمن القوات الفرنسية، وهؤلاء قابلهم الشيخ صالح العلي وأقنعهم أنهم مسلمون فكيف يقاتلون المسلمين واقتنعوا بأن يقاتلوا معه لكن قال لهم أريد منكم شيئاً قاتلوا مع لوائكم وعندما يبدأ الهجوم علينا أنتم انسحبوا واهربوا كي يهرب الجيش الفرنسي! قالوا له يمكن أن يعدمونا إذا رجعنا الآن لكن فاضوا علينا، وهذا ما حدث، منهم رجعوا ومنهم قاتلوا معه حتى وقف القتال، وقد استخدم الشيخ

صالح العلي أحد المراكشين مترجماً عنده من أجل إذا قبض على أي جندي فرنسي أو سنغالي أن يترجم له، واستمر حتى انتهى القتال وهرب هذا الجندي المغربي إلى لبنان وبعدها لم يعرف أي شيء، ولم يذكر إطلاقاً أسماء هؤلاء الجنود الجزائريين أو المغاربة! بعد ذلك حدثت هدنة، كان الفرنسيون خلالها يعدون العدة والثوار يعدون العدة،

واستقدم الفرنسيون فرقة من لوائين، لواء احتل منطقة مصيف وبعض زعماء العشائر شعروا أنه لا يوجد فائدة من الثورة فراحوا يتصلون بالجنرال غورو في بيروت سراً وقالوا له نحن نستطيع أن نسحب عشائرتنا سراً بحيث لا تلقى مقاومة عندما تحتل مصيف وفعلاً عندما انسحب غالب الشعلان وسقط الحكم الفيصلي وانحل الفوج الملي ولم يبق سوى

السرية الفدائية مع جميل ماميش فقاتل جميل ماميش مع الشيخ صالح العلي هو والسرية وأصبح أهل حماه يمدونهم بالمال والعتاد. بعد أن احتلت مصيف وانسحب بعض أفراد العشائر تخلخلت الجبهة الداخلية ورجع القتال مرة ثانية على منطقة السوداء وأحرق الفرنسيون كل هذه المناطق وكان ذلك في آواخر آب 1920 وحاولوا الدخول إلى حماه بعد أن احتلوا حمص ثم إلى مصيف وأتوا من طرابلس عبر الفاصل بين تل كلخ وأن المجاهد الوطني عبد الرزاق الدندشي كان يمد ذخائر الثورة من منطقة تل كلخ ولكن الفرنسيين كانوا قد بعثوا ثمانية بغال مع بعض العملاء الذين يراقبون جميع الطرق وأخبروا الفرنسيين بقافلة الإمداد التي أرسلها الدندشي فقام الطيران الفرنسي بتدميرها. بعدئذ حاول الشيخ صالح العلي أن يبعث جندياً من بيت الأرنؤوط من حماه لكي يشتري ذخائر للمجاهدين من جبل عامر، وقد اشترى ذخائر حمولتها

حوالي ثمانية جمال وأغلب هذه الذخائر كانت هبات من السكان ولم يأخذوا ثمنها مع أن الارناؤوط، وحين وصلت الجمال إلى منطقة صافيتا عرف بها الجيش الفرنسي فأمر الطيران بتدمير هذه الجمال واستولى على الأسلحة والذخائر للمجاهدين وقد قرر القائد بولانجي أن يتولى قيادة حملة للقضاء على المقاومين في منطقة الشيخ صالح العلي، أي في الشيخ بدر فقرر الهجوم من منطقتين، منطقة مصيف وادي العيون الشيخ بدر ومنطقة السوداء بحنين الشيخ بدر، ويتكون الهجوم من فرقتين مشاة تحت غطاء جوي من سربين للطائرات، وعرف المجاهدون بهذا الهجوم ففي المنطقة الشرقية أعطى القيادة لواحد من وادي العيون من بيت شاكر وكان معه خال الشيخ صالح العلي (حبيب محمود) وهو من القادة المقاتلين الأشداء فأستنفر القرى المجاورة فأرسل أهلها الأسلحة والذخائر ودرسوا على طول الوادي كمائن حتى أصبح اللواء قبل ألف متر من وادي العيون شن الهجوم على هذه القوات الفرنسية فاشتعل وادي العيون ومنيت هذه القوات الفرنسية بخسائر وهربت شرقاً هربوا كيفياً، لكن القوات من الغرب وصلت لمنطقة الشيخ بدر ولم تستطع احتلال الشيخ بدر مع أن المقاومة قد انهارت وأغلب مقاتليها قتلوا، فقد خسر المجاهدون مئة شهيد والجهة تضععت، عزز الشيخ صالح العلي أواخر خريف 1920 قيادته.

بعد أن أخفق القائد الفرنسي بولانجي وأخفق الكولونيل راسان وميجر في الشمال قرر قيادة الهجوم من الشرق الجنرال غورو شخصياً فدفع بفرقة لاحتلال مصيف ثم عزز هذه الفرقة بلوائين تقدما إلى منطقة القماقم لكن الفدائيين أوقفوا هذا الهجوم وقد كانت خطة الجنرال غورو تعتمد على أن

يسحب أكبر عدد من المجاهدين لجهة الشرق وبذلك يخفف الضغط على القوات التي تهاجم من الغرب وقد احتلت هذه القوات منطقة الشيخ بدر ورغم أن المجاهدين أبلوا بلاءً جيداً في هذه المعركة لكن منطقة الشيخ بدر احتلت في هذا الهجوم وحين انسحب الشيخ صالح العلي وذهب إلى الصقيلية اغتحم الفرنسيون غيابه وقرروا الهجوم على منطقة الشيخ بدر في حالة غيابه وشن الجنرال غورو هجوماً من الشرق وأعاد ترتيب قيادته في خرايب سالم ومعرين وتواصل الهجوم على قرية بشرعني من قبل قوات فرنسية لأنهم اعتقدوا أن الشيخ صالح العلي في بشرعني وولم يكن الشيخ صالح العلي فيها ومنيت القوات الفرنسية بهزيمة منكرة في هذه المعركة وكان فيه مجاهدون. ونتيجة الانتصار في المعركة تشجع شباب القرى للتطوع مع الشيخ صالح العلي وغنموا بهذه المعركة بعض الأسلحة وفي هذه الفترة حاول الجنرال غورو الهجوم على قوات الشيخ صالح العلي من الشرق أيضاً فاحتل أبو قبيس وهاجم عن طريق وادي جهنم المنطقة ودارت معركة في هذه المنطقة عند قرية أبو قبيس وانتهت هذه المعركة واستشهد هنا من المجاهدين حبيب عسعوس وعدد من المقاتلين وبعد هذه المعركة وقعت معركة الدميميس معركة رأس صارم ومعارك البودي في تلك الجبال وأحداث الأجرد ورأس ملوح ثم وقعت معركة قرفيص في 1921/2/10 حاول الشيخ الاتصال بإبراهيم هنانو حتى يطلع على أحوال الثورة هناك، ويعطيه حاجته من المعدات، وطلب منه إيفاد بعض المحنكين فأرسل إليه أربعة ضباط وكمية وافية من السلاح، استمرت المراسلات بينهما ثم اتفقا على اللقاء وجهاً لوجه في قرية الصقيلية. في هذه الاثناء كان إبراهيم هنانو يدير معركة فاصلة حيث هاجم المعرة مع الفجر. أما الشيخ صالح فقد

شكل قوة لمهاجمة جبله وكانت القوة موزعة في خمسة اتجاهات وسلم قيادتها للشيخ عبد الحميد علي عيد ومعاونه يوسف عيد ذهب هو في اتجاه ولكن الصقيلية احتلت من قبل الفرنسيين وسارت مع قوة من عشائر الموالي لمنطقة وادي الجقار، فراحوا ليحتلوا الصقيلية وقد كان الشيخ صالح العلي بالقرب منها فغادر مكانه عن طريق قرية الحورات إلى خرايب سالم وكان له أحد المسؤولين عن الإمداد والتمويل وخاض معركة أبو قبيس ومعه محمد الخدام، وفي هذه الأثناء قلّ تمويل المجاهدين بعد احتلال حماه ومحددة ومناطق عين الكروم والجبال المحيطة، لهذا أعطى الشيخ صالح العلي تعليماته للشيخ عمر البيطار أن يقاتل وينشط المعارك ولكن عمر البيطار طلب أن تجري الإمدادات من حلب من قبل هنانو من جسر الشغور وأن لا أحد يستطيع أن يجلب أي ذخائر بعد أن أغلقت تركيا حدودها مع سورية، كذلك أصبح عمر البيطار في وضع صعب جداً أكثر من الشيخ صالح العلي. أما الهجوم الذي بدأه المجاهد عبد الحميد عيد قبل عودة الشيخ صالح العلي من الصقيلية اعتبره الشيخ صالح خطأ لأن الفرنسيين كانوا قد أخبروا بهذا الهجوم من قبل رؤساء العشائر ووقع المجاهدون في الليل بالأسلاك الشائكة وقتل منهم حوالي أربعين مجاهداً وجرح الكثير وتراجع الكثير أيضاً. وهنا الثورة ضعفت كثيراً وقتل في البودي قائد الهجوم لكن المجاهدين صعدوا إلى جبل الكلبية وكانوا من عشائر الدراوشة ومكثوا عدة أيام ولكن الطيران الحربي شتتهم ونزلوا من جبل الكلبية وقتل منهم عدد كبير بهذه الغارات وتفرقوا. عمر البيطار لم يمد بالأسلحة وبذلك أصبحت المواجهات مع الفرنسيين فردية.

انتهت أغلب المعارك وأصبحت معارك فردية مثلاً إسبر زغبية مع مجموعة من رفاقه يدبرون كمائن وصالح ميهوب في بشراغني قائد معركة فتوح وهو بطل مشهور ولكن هنا خفت المعارك فأصدر الفرنسيون حكماً بالإعدام على الشيخ صالح العلي واستنفر الجبل كله، وهنا قرر الشيخ صالح العلي القتال حتى الموت، اجتمع وجهاء العشائر وراحوا يتباحثون في الأمر واتفقوا على أنه لا بد من إيجاد حل لأنه ما دام الشيخ صالح العلي محكوماً عليه بالإعدام ومتوارياً عن الأنظار لا يوجد استقرار فاجتمع زعماء العشائر مع الجنرال غورو وبعث الجنرال غورو برقية إلى كليمنصو رئيس وزراء فرنسا عن الوضع فأصدر الأخير عفواً عاماً عن الشيخ صالح العلي وكل من اشترك معه في الأعمال الحربية وهنا بعث غورو البرقية والعفو بعد شهر من صدوره ورمته الطائرات على كل مناطق الجبل ولكن الشيخ صالح العلي قال لهم إنه لا يقبل إلا أن يكون معه الذي ساعده والذين مدوه بالعتاد والأسلحة وخاصة من أهالي حماه وأصر على ذلك فكتبوا والذين ساعده أيضاً.

بسبب الأحداث والمعارك، احترقت حوالي 150 قرية، وحوالي عشرة آلاف مواطن هاجروا للشرق لأرياف حماه واحتلت تل كلخ كون تل كلخ تابعة لمحافظة اللاذقية وانتهت كامل الأعمال الحربية فبعد حكم العفو عن الشيخ صالح العلي ذهب إليه مجموعة من المشايخ والوجهاء إلى الشيخ صالح العلي وقالوا له إن الفرنسيين وحسين يسمعون أن الشيخ صالح موجود في قرية. يذهبون إلى القرية ويجمعون المواطنين ويعدمون قسماً منهم ويحرقون القرية وصار يقولون له رحمة بالأطفال والنساء أن تلقي السلاح أو تعلن عن إلقاء

السلاح ولكن الشيخ صالح العلي تنقل بين معربين وخرايب سالم وكان أغلب تواجده بيت عبود مرشد شيحا الذي رافقه منذ بداية الثورة.

تربث في إجابتهم فاستولى على الناس الهلع والرعب على حياة شيخهم وقائد ثورتهم وتمنى كل مخلص أن يكون بيته ملاذاً آمناً للشيخ صالح ليخفيه عن أعين الأعداء ولو أدى بالشخص للتضحية بحياته وذويه وهل ثمة أعز على المخلص من حياة شيخهم وزعيمهم لقد كان الشيخ صالح العلي في مكان لا يعلمه أحد، وهنا قلق الفرنسيون لأن الشيخ لم يسلم نفسه لذلك جمعوا زعماء العشائر فاجتمع مشايخ الدين وزعماء العشائر مع الجنرال غورو وقالوا مستحيل ، ما دام الشيخ صالح العلي متوارباً عن الأنظار فحياة زعماء العشائر بخطر لأننا لا نعرف من يكون معه ومن عنده سلاح وممكن أي شخص معه مسدس أن يقتل أي زعيم عشيرة. وبعد الكثير من اللقاءات بين المشايخ والفرنسيين انتهت الأعمال الحربية فيها في 1921/7/7 ولما عجز الفرنسيون عن اعتقال الشيخ والوصول إلى مقره مع أن الأخبار المتوافرة تثبت وتؤكد لهم أن الشيخ ما يزال في الجبل

لقد أيقن الشيخ صالح أن الطريقة و الوسيلة الوحيدة للتخفيف عن كاهل الشعب المرهق وإراحته مما يلقي من مظالم الاحتلال ومن متاعب المحتلين قرر الاستسلام وكان قرار الاستسلام رهيباً جداً ليس على الفرنسيين فحسب بل على كل من له علم بأخبار الثورة في كل مكان.

ورأسل الشيخ من يخبر مستشار جيلة بهذا القرار ويستقدم إلى قرية بشراعني ل يتم ذلك هناك وخبروا الجنرال غورو وكان الجنرال غورو غادر منطقة اللاذقية إلى بيروت وحل محله الجنرال بيلوت وخبروه باللاذقية ولكن الشيخ

صالح العلي قرر أن لن يغادر جبلة ويذهب للجنرال وهم يأتون لعنده وقرروا الاجتماع أن يكون في بيت الشيخ إبراهيم عيد ابن عم الشيخ عبد الحميد علي عيد قائد هجوم على جبلة. وحين اجتمع الجنرال الفرنسي الذي حل في مكان الجنرال غورو مع الشيخ صالح العلي سأله عن الدافع إلى تلك الثورة والباعث على تلك الحروب الضروس.

قال الشيخ : إنه حب الوطن.

وسأله الجنرال لماذا أوقف العمليات الحربية؟

قال: لم يكن ذلك خوفاً من الإعدام ولكن صوناً لكرامة الجهاد العربي وتابع: والله لو بقي معي عشرة جنود ومعهم السلاح ما تركت القتال.

فأعجب الجنرال بهذه الصراحة وعرض عليه حاكمية جبال العلويين (أنت حاكم الجبل) رفض الشيخ هذا العرض والمنصب المزيف ورفض قبول التعويض عما خسره من أملاكه التي حرق ودمرت ونهبت فاستغرب الجنرال من الشيخ ذلك وسأله عن السبب، وأجابه في صراحته المعهودة إن الله يقول في كتابه (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) فانتفض الجنرال من الغيظ وسأل الشيخ: هل نحن ظالمون.

فقال الشيخ: نعم، لولا أنكم ظالمون لما جئتم إلى هذه البلاد، وهكذا تجلّى العنفوان الوطني في هذه النفس الأبية.

وعاد الشيخ إلى الجبل بعد أن استقبله في الطريق سكان جبلة وطرطوس وبانياس وانزوى فيه وفرض على نفسه عزلة شديدة وانصرف على تدينه العميق ولم يخرج الشيخ صالح العلي من عزلته الهادئة إلا في المواقف الوطنية الحاسمة التي كانت تتطلب الاهتمام بمصالح البلاد وحين تمزيق المعاهدة مع

الفرنسيين وتعليق الدستور من قبل الفرنسيين فإن الشيخ صالح أول من استنكر ذلك وهاجمه وأصبح أول من نادى الضمائر الوطنية للقيام بثورة ضد الفرنسيين والمحتلين الغاصبين وقد خرجت الثورة من أغوار الجبل مرة ثانية، ولما قام الفرنسيون 1945 بالعدوان المنكر على دمشق وهبت الأمة صاخبة أبرق الشيخ صالح العلي إلى المراجع الرسمية برقيته التاريخية الخالدة يقول (سيوف المجاهدين تتلملح في الأغمام ونفوسهم في غليان واغتراب، ولا نقبل أن تنتهك كرامة الأمة، وتخرق حرمة الاستقلال إن للمعتدين بالمرصاد وسيرى الظالمون أي منقلب ستقلبون) وكان لهذه البرقية صدى هائل ودوي عميق في سائر أنحاء البلاد.

وجمع الشيخ حوله المجاهدين والأنصار وحاول الزحف والانقضاض على الثكنات العسكرية في مصياف وبانياس وطرطوس ولكن الظروف السياسية أرغمت الحكومة الوطنية على إرسال السيد صبحي المحتشم قائد قوى أمن طرطوس لكي يطلع الشيخ صالح العلي على أن المصلحة الوطنية تقضي بالألا يحرك الشيخ ساكناً لأن بعض الإقطاعيين في هذا الجبل كانوا يرغبون في هذه الحركة إلى جانب الشيخ ليتخذوها ذريعة لإشعال نار الفتنة وإثارة الاضطرابات في البلاد ومعاونة الفرنسيين في عدوانهم الصارخ على السوريين.

وهذا اضطر الشيخ من جديد إلى أن يصمت وقد كافأت الأمة الشيخ صالح العلي على جهاده العظيم فأقامت له حفلة تكريمية في اللاذقية بعد الاستقلال مع المجاهدة الشبيخة حبابة التي كانت مرافقته في معاركه، ولم تتركه لحظة واحدة، وكانت تحمل بندقية وتضمد جراح المجاهدين وكانت تؤمن الطعام والشراب وهي من النساء العربيات المناضلات في العهد العثماني كان

الشيخ صالح العلي خصماً للأتراك قبل الفرنسيين وكانت مواقفه من مفاخر الوطنية والتضحية والنضال وقد كان من أعظم الدعاة للقومية العربية كان رجلاً عظيماً بكل ما في العظمة من معاني الرجولة حكيماً في قيادة رجاله بروحه المستوحاة من قوة إيمانه وقدرته العسكرية التي أدهشت قادة الفرنسيين وقد أظهر في جميع المواقع تفهماً صحيحاً لوضعية المعارك الفنية ونتائجها.

كان كثير الحذر كتوماً حديدي الإرادة والإدارة شديد المراس.

في يوم الخميس الثالث من شهر نيسان 1950 خبا هذا البركان الثائر وأفل نجم هذا المجاهد العظيم فكان أمثلة حية لسجايه العربية الفذة وأمسى رمزاً خالداً بطولته وجهاده وتضحياته وقد ألحد في قرية المريقد التابعة لقضاء طرطوس.

مما هو جدير بالذكر أن النساء لعبن دوراً هاماً في الثورة اقتداءً بزوجته حبايه فكن يحملن الطعام إلى جبهات القتال وقد استشهد منهن كثيرات في غضون الحملات العسكرية.

أما عن جميل ماميش هذا الرجل المجاهد من اللاذقية فقد كان ضابطاً في الجيش العثماني ثم التحق قائداً لسرية المجاهدين مع ثورة الشيخ صالح العلي الذي اختاره الملك فيصل لمواجهة المجاهد الوطني عزيز أغا هارون لتشكيل الفوج الملي في حماه وكان أحد أركان الثورة وقد حكم عليه الفرنسيون بالإعدام ونجا من قبضة الفرنسيين وتوارى في بيروت ثم صدر العفو عنه ودخل في الجيش السوري وللعلم أن حماه التي قاتلت هذا القتال الشديد وقدمت الدعم والمساعدة إلى ثورة الشيخ صالح العلي قد استشهد منها الكثير أمثال كامل الباكير ومحمود الخولاني.



الفصل الرابع

الحركة التصحيحية 1970

اللحظات الأولى، التحالفات، والأحداث

طبعاً كل الأحداث والأخبار التي سبقت قيام الحركة التصحيحية لا أريد أن أدخل في جزئياتها ولكن إذا اعتبرنا حركة 16 تشرين بقيادة الفريق حافظ الأسد وزير الدفاع نجحت بسهولة دون طلقة رصاص واحدة، فإن ذلك يعود للأسباب التالية:

- 1- جماعة القيادة القومية مع جماعة صلاح البيطار وعددهم غير قليل في الجيش انضموا إلى الفريق حافظ الأسد.
- 2- جماعة أكرم الحوراني، هناك الكثير منهم في الجيش انضموا إلى الفريق حافظ الأسد، وكذلك جماعة أمين الحافظ وعددهم غير قليل انضموا إلى الفريق حافظ الأسد. وأيضاً جماعة محمد عمران انضموا إلى الفريق حافظ الأسد وبقي فقط جماعة 23 شباط وانقسموا إلى مجموعة مع القيادة القطرية بقيادة صلاح جديد ومجموعة ثانية منهم مع الفريق حافظ الأسد وتعاون جميع هؤلاء لسحق حركة 23 شباط ولكن كون الفريق حافظ الأسد من جماعة 23

شباط فلم تعتبر هذه الحركة إلا تصحيحية لـ 23 شباط ولذلك سميت بالحركة التصحيحية وكل من هذه المجموعات ظنت أن الفريق حافظ الأسد يشكل مرحلة وبعدها يعود محمد عمران وكذلك جماعة أمين الحافظ والقيادة القومية وأكرم الحوراني، وكان الفريق حافظ الأسد يدرك هذا الموضوع بدقة ولكن استطاع بخبرته ومعرفته بجميع هؤلاء أن يستوعبهم جميعاً وقد تعقدت الأزمة بينه وبين القيادة القطرية بعد المؤتمر القومي العاشر، وعندما بدأ بتنفيذ الحركة كان بذهنه أن يتعاون معه قسم من القيادة القطرية.

بدأت الحركة يوم 13 ت 2 الساعة الثالثة إلا رباعاً حيث كنت لا أعلم عنها شيئاً ولكن أعرف أن الأزمة في ذروتها، وفي الساعة الثالثة أخذت التلفون المباشر، أعني التلفون

العسكري لأتحدث مع الفريق حافظ الأسد فوجدته مقطوعاً لا يوجد فيه حرارة، وكنت أتناول طعام الغداء أنا وعائلي، وبعد دقيقة أو دقيقتين رن الهاتف العسكري فرددت عليه، وكان المتكلم الفريق حافظ الأسد فقلت له: احترامي سيدي.. وعلمت من هذه الكلمة (أم الندي) أنه الفريق حافظ الأسد فأخذت مني سماعة الهاتف وقالت له: أتريد أن تسجن زوجي محمد فقال لها: لا.. هو يسجنني، وأنا لن أسجنه، أعطني إياه لأتحدث معه وقال لي: ماذا تعمل الآن.

وأجبته: أتناول الطعام.

قال لي: تعال لعندي فوراً وبعدها تعود لتتناول الغداء.

وأضاف: أنا موجود في آمرة الطيران، وكانت المسافة بيني وبين آمرة الطيران لا تتعدى دقيقتين في السيارة. وإذا ذهبت سيراً على الأقدام يأخذ الطريق معي حوالي عشر دقائق فذهبت بالسيارة وكان علي الباب مرافقه الرائد

خالد الحسين فأخذني إلى مكتبه فوراً وعندما فتحت الباب كان يقف في الصالون ينتظرني فقلت له: احترامي سيدي.

ومد يده وصافحني ونظر في وجهي وقال: محمد أنا عندي صلاح جديد وفوزي رضا ومحمد سعيد ع شماوي وهم في الغرفة المجاورة وعندهم العميد ناجي جميل..

ما رأيك؟؟؟

وساد الصمت بيننا لأنني فوجئت باعتقالهم ثم جاوبت: وبعدين.. (أي بعد الاعتقال..).

قال: أنا لا أريد أن أكون رئيس دولة.. ولا رئيس وزراء سابقى وزيراً للدفاع وقائد القوى الجوية والدفاع الجوي.. أطلب منك أن تحاور رئيس الدولة نور الدين الأتاسي ورئيس الوزراء يوسف زعين كي يتعاونوا معي ويبقى كل منهما في مكانه.

قلت: وما مصير الحزب؟؟؟

قال: الحزب سيستمر كما هو.. وأنا لا أريد إلا هؤلاء الثلاثة وهؤلاء لن يعودوا إلى القيادة القطرية لأنهم هم سبب الأزمة والمشاكل الحاصلة بيننا... وعندما قال الحزب سيستمر قلت علينا أن نعمل جاهدين لتكون الخسائر بالحزبين هي أقل ما يمكن فأجابني: هل أنت موافق على ذلك. أجبته: إذا استمر الحزب.

قال: تعرف أنا (أنا وأنت) أصدقاء من مصر. تابع لي مع نور الدين الأتاسي ويوسف زعين وسوف يراجعك ضباط كثر وحزبيون كثر.. ماذا ستقول لهم!

قلت له: عليكم أن تراجعوا الفريق حافظ الأسد فابتسم هنا وقال: شكراً محمد وخبرني عن هذه المفاوضات..

وعندما عدت إلى البيت في شارع الروضة وجدت في منزلي عبد الله الأحمر وعبد الحليم خدام ومحمد حيدر فقالوا لي: هل سمعت ما حدث. صلاح جديد وفوزي رضا ووزير الداخلية محمد عيد عشاوي محتجزون.. ما رأيك؟؟

فقلت لهم: الرأي رأي الفريق حافظ الأسد لنذهب إليه وذهبنا الأربعة إلى مكتبه، وكان قد انتقل إلى الأركان واستقبلنا (اعتقدت بأن هؤلاء الثلاثة أرسلهم الفريق حافظ الأسد إلى بيتي ليقنعوني بأن الذي حصل هو صحيح وعلينا أن نقف معه).

فقلت لهم لنذهب إلى الفريق حافظ الأسد.. في المساء اتصلت بالدكتور نور الدين الأتاسي وتناقشت معه في هذا الموضوع فكان جوابه: أنا سأعمل مع السيد الفريق ولكن أنا أمين عام لهذا الحزب وقد اعتقل الآن الأمين القطري المساعد صلاح جديد وأعضاء قيادة قطرية فأتمنى أن يخرجوا من السجن لأتمكن من متابعة عملي! طبعاً قبل ذلك كان كل من الفريق حافظ الأسد وصلاح جديد ونور الدين الأتاسي ويوسف زعين ومعهم محمود المعاينة من الأردن اجتمعوا في منزلي بالروضة اجتماعات مطولة ليصلوا إلى حل وهذه الاجتماعات كانت في شهر آذار 1970 والاجتماع الرابع الذي كان يجب أن يكون.. لم يحضر صلاح جديد لذلك فشل الاجتماع وكانت هذه الاجتماعات تبدأ الساعة السادسة مساء.

وللحقيقة في الاجتماع الأخير (حضرت لهم فطور الصباح) وكان الاجتماع يبدأ يوم الجمعة الساعة السادسة مساءً وينتهي في الساعة الرابعة صباحاً وأنا كنت أحضر الاجتماعات إلا عندما أحضر (القهوة أو الشاي أو العشاء). وفي الاجتماع الأخير وكان يوم الجمعة اتصل بي الفريق حافظ الأسد وقال الاجتماع اليوم.
أجبت: طبعاً.

وقال: اللواء صلاح جديد موجود؟؟
فقلت له: سأخبره كي يأتي وكان يومذاك في الجولان.
قال: اذهب إليه وأخبره .. وذهبت إلى هناك فعلاً وقابلت صلاح جديد وكان الحديث بيني وبينه.
قلت له: يوجد عندنا اجتماع.

وكان ذلك قبل الغروب.
قال: محمد القيادة القطرية مزعوجة من هذه الاجتماعات الجانبية. وأنا لا أريد أن أخسر القيادة القطرية. فمن كان له حديث فليتحدث في اجتماع القيادة القطرية.

ثم عدت بخفي حنين ولم أستفد شيئاً ثم اتصلت بالفريق حافظ الأسد ونور الدين الأتاسي ويوسف زعين ومحمود المعاينة وقلت لهم: الاجتماع ألغي. وهكذا طويت هذه الاجتماعات وبدأت الأزمة تتصاعد إلى يوم 13 ت 2 بعد المؤتمر القومي العاشر.

وفي يوم 14 ت 2 عادت اتصالاتي مع دكتور نور الدين الأتاسي ويوسف زعين وعدد من أعضاء القيادة القطرية وكذلك أعداد كبيرة من الضباط وطبعاً

كما أذكر (المخابرات العسكرية كان نشيطة لصالح الفريق حافظ الأسد) ولم نصل إلى أي توافق في يوم 14 ت2.

وكان منزلي يتوافد عليه الكثير من الضباط من كل الأطراف ليأخذوا رأيي، فأخبرهم بصوابية ما قام به الفريق الأسد.

وفي يوم 15 ت2: وصل القذافي إلى سورية مساء وهو رئيس دولة وقد رفض نور الدين الأتاسي الخروج للمطار لاستقباله.

فخرج وزير الدفاع الفريق حافظ الأسد لاستقباله وكان بيان 16 ت2 قد حُضِرَ (بعض العناصر الذين توافدوا على الأركان ووزارة الدفاع.. كتبوا بيان قيادة قطرية مؤقتة) وأعطى أمراً من المطار أن يذهب محمد حيدر الذي دقق البيان باللغة العربية وقال له: يذيع البيان المذيع في التلفزيون على ألا يكون الخبر الأول. الخبر الأول هو وصول القذافي إلى دمشق واستقبال الفريق حافظ الأسد له في المطار ثم الخبر الثاني إذاعة بيان /16 ت2/ وقد نشرت هذا البيان في الجزء الثالث من حياتي والإعدام. وكانوا يتصورون أن القذافي أتى إلى سورية في صباح 16 ت2 ليتوسط بين أعضاء القيادة والفريق حافظ الأسد ولكن عندما سمع بالبيان من الراديو قال للفريق حافظ الأسد: لقد تأخرت يا حافظ الأسد ثلاثة أيام. وهكذا شكلت قيادة قطرية مؤقتة وأذيعت الأسماء في التلفزيون والراديو. وشكلت وزارة برئاسة الفريق حافظ الأسد رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع وقائد القوى الجوية والدفاع الجوي وعين الأستاذ أحمد الخطيب رئيس دولة وأصبح مصطفى طلاس رئيس الأركان عضواً في القيادة القطرية.

وفي هذه الفترة استقبل الفريق حافظ الأسد الكثير من الضباط الموالين لصالح جديد واستمروا جميعاً في الجيش وحين أذيع البيان وتشكلت قيادة قطرية مؤقتة غضب بعض أعضاء القيادة القطرية السابقة وخاصة نور الدين الأتاسي ويوسف زعين (رئيس الوزراء) فتم احتجازهم. وبقي أعضاء من القيادة القطرية السابقة أحراراً مثل سليمان الخش والعميد أحمد الأمير الذي أحيل للتقاعد وكذلك بعض أعضاء القيادة القطرية الآخرين مثل مصطفى رستم عضو القيادة القومية والقطرية وبعد حوالي عشرة أيام من الحركة التصحيحية قرر الرئيس حافظ إرسال أنا ومحمد حيدر والعميد عبد الغني إبراهيم لنقوم بجولة على الفروع فقمنا بجولة خلال أربع وعشرين ساعة كان هنا فرع في دمشق قابلناه، وفي اليوم الثاني ذهبنا منذ الساعة الخامسة صباحاً ووصلنا حمص في الساعة السابعة واجتمعنا مع قيادة الفرع واستمر الفرع مؤيداً لحركة 16 ت 2 وبعد ساعة غادرنا إلى مدينة حماة وشُكل الفرع وعين أمين الفرع غالب السبع وأعطى تشكيلة الفرع.

غادرنا إلى مدينة حلب وعين كذلك أمين الفرع في حلب وأصبح الوقت بعد الظهر وكان فرع إدلب قد أيد حركة 16 ت 2 ولم نقف هناك طويلاً وتابعتنا إلى مدينة اللاذقية ووصلناها في الساعة الخامسة بعد الظهر وأيضاً شُكل الفرع وكان أمين الفرع من مدينة اللاذقية وفي الساعة السادسة وصلنا إلى مدينة طرطوس وكان أمين الفرع (أحمد الشاعر) مزعوجاً من حركة 16 ت 2 لذلك طلبنا من أمين الشعبة في طرطوس وقد كان أحمد الحسن (عضو القيادة القومية الحالي) يستلم الفرع وقال: اتركني دقيقة مع محمد إبراهيم العلي وأقنعه باستلام أمين الفرع وانتهى الاجتماع الساعة الثامنة في مدينة طرطوس.

وفعلاً كان قد أخذ منا الإرهاق والتعب وهذه السفرة الطويلة وقررنا أن نعود
لدمشق في المساء (ليلاً) وكنت أنا أقود السيارة وكان الطريق ليس أوتوستراد
وعند منطقة المنطار يبدو أن النوم أخذني فكدت أغفو وانحرفت السيارة قليلاً
عن محورها وصاح عبد الغني إبراهيم نحن في كل هذه الظروف القاسية التي
مرت بنا لم نمت.. هل تريد أنت أن تقتلنا فعلاً توترت أعصابي استيقظت
وتابعت المسير وعبد الغني إبراهيم يصيح يجب أن يأتي السائق كي يقود
السيارة وتابعنا المسير إلى حمص وأخذنا سندويش في الطريق (ودفعت أنا
ثمنه) لأنني أعرف الذين معي جيداً ثم وصلنا مدينة دمشق حوالي الساعة
الواحدة وقال عبد الغني إبراهيم (رحمة الله عليه كان رجلاً طيباً ومتواضعاً وغير
صدامي): لم أكن أتوقع أنك سائق ممتاز وقد أنجزنا المهمة على خير وقد رفع
محمد حيدر للفريق حافظ الأسد.

وفي هذه الفترة بعد أن مضى على 16 تشرين حوالي 15 يوماً أو أكثر
قام الفريق حافظ الأسد بزيارة للمحافظات الشمالية والغربية والشرقية (حلب
حماة وإدلب واللاذقية وطرطوس وحمص والسويداء ودرعا والقنيطرة) هذه
المحافظات زارها وكان معه ناجي جميل وعدنان دباغ وقائد الشرطة العسكرية
علي المدني واستقبل استقبالاً جماهيرياً في المحافظات وعندما عاد كان يداوم
مساء في مجلس الوزراء وكان مجلس الوزراء في ساحة السبع بحرات وطلب
مني كل يوم في الساعة العاشرة أن أقوم بزيارته إلى مجلس الوزراء وكان يتحدث
لي أحاديث كثيرة وحوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً كان بيته في شارع الباكستان
قريباً من مجلس الوزراء فكنت أسير معه إلى منزله وكان أحياناً الثلج يغطي
الشوارع وكان منزلي في ساحة الروضة قريب من شارع الباكستان فأعود إلى

منزلي في الساعة الثانية عشرة يومياً وقد كلفني بقيادة الجيش الشعبي وخبرني هل تريد أن تكون عضو قيادة قطرية وقلت له لا.. الجيش الشعبي أفضل. وقلت له مازحاً.. عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة. ولكن لم يصدر لي أي أمر بذلك وباشرت مهمتي في قيادة الجيش الشعبي وكان المكتب أيضاً مقابل السفارة الأمريكية حالياً وبقيت بهذا الشكل بدون أي ترخيص وقبل رأس السنة كنت برتبة مقدم ركن محلي فناقشني الفريق وسألني ما رأيك إذا سرحتك من الجيش وعينتك قائداً للجيش الشعبي. فأنا بعد كل هذه التجارب المريرة من أيام الانفصال حتى هذه اللحظة لا يهمني سواء بقيت في الجيش أم لا. وقلت له: كما ترغب أنا أوافقك.

واستدعى مدير مكتبه فأحضر المراسيم مرسوم تاريخ 1970/12/28.

ومرسوم 1970/12/29.

واحد بتسريحي وواحد بتعيني بمرتبة وزير ولكن استناداً إلى مرسوم تعيين محمد رباح الطويل بمرسوم بمرتبة وزير ويعامل معاملة الوزراء في الراتب والتقاعد وكل المهمات وما إلى ذلك واستناداً إلى مرسوم أبو رباح فقال لي أصبحت وزيراً ووقع المرسومين رئيس الدولة أحمد الخطيب ورئيس الوزراء حافظ الأسد وبذلك أصبحت قائداً للجيش الشعبي بشكل رسمي.

والحقيقة أنني عندما استلمت قيادة الجيش الشعبي لم يكن شيئاً جديداً علي وقد مارست قيادة الحرس القومي حوالي خمس سنوات وكان يضم جميع المنظمات الشعبية، الشبيبة والقيادة والفتاة العربية والجمعيات ولكن هنا تم تطوير للعمل وقد انتخب أو عين مئة شخص من المحامين وكبار الفقهاء أعضاء في مجلس الشعب لوضع دستور جديد للبلاد وانتخاب رئيس للجمهورية علي

أن ينتهي هؤلاء من الدستور في 1 آذار وفعلاً تم وضع الدستور وانتخب الفريق حافظ الأسد رئيساً للجمهورية عام 1971 في الثاني عشر من آذار. وأصبح رئيس الوزراء اللواء عبد الرحمن خليفأوي ووزير الدفاع بالوزارة الجديدة متعب شنان وفي هذه الفترة أي في 14 آذار كان هناك اضطرابات بين الطلاب في موسكو بين مؤيد ومعارض لـ 16 ت 2 وطلبني الرئيس وقرر أن يذهب وفد لمعالجة هذا الموضوع في موسكو مع الطلاب السوريين وقال لي ستكون عضواً في هذا الوفد وأنت رئيسي فيه وتألف الوفد من اثنين أنا وعضو قيادة قومية عراقي اسمه باقر ياسين وكان متزوجاً حديثاً من امرأة من نواحي جبلة وهي الزوجة الثانية وهو عراقي من مدينة البصرة وفعلاً جهزت نفسي وقررنا الذهاب كما أعتقد بحوالي 16 آذار وذهبنا إلى موسكو وأخذ زوجته معه وكان هناك السفير جميل شياً (عضو القيادة القطرية) وفعلاً نزلنا في فندق راسيا وقد أعطاني الفريق حافظ الأسد توصيات وتوجيهات كيف أعامل الطلاب وقال لي إياك أن تسحب (باسور) من أي طالب حتى ينهي دراسته وفي اليوم الثاني من وصولنا كان اجتماع للطلاب السوريين ولا أذكر عددهم ولكن كانوا حوالي المئة وأكثر وكان منهم كمال شرف يدرس في معهد بليخانوف ومفيد عبد الكريم وعلي حشمة وأحمد درغام يدرس في جامعة موسكو وكذلك عزيز صقر وسليمان قداح واستمر هذا الاجتماع وقتاً طويلاً. وكنت أنا أطولهم بالاً وحضره السفير جميل شياً واستمر الاجتماع حتى الساعة الواحدة ليلاً.

وقال أحد الطلاب لقد توقفت الباصات فأين سننام؟

وقلت لهم معقول في مدينة مثل موسكو يتوقف السير ليلاً وكان عدد سكان موسكو في ذلك الوقت حوالي (8 ملايين).. و ولكني لم أقتنع بأن المواصلات تنقطع ليلاً فقال لهم السفير ناموا هنا حتى الصباح.

فقلت له تذكرني بالحواسيد ينامون جميعهم رجالاً ونساء في مكان واحد. ولكني قلت لهم أنا سأدبر لكم الأمر وخرجت إلى الشارع ومعني أمين الشعبة علي حشمة الحديد وإذا بسيارة عسكرية (زبل 130) لوحت للسائق فتوقف وقال لي: إلى أين أنتم ذاهبون.

فقلت له: لدينا مجموعة من الطلاب نريد أن نوزعهم على بيوتهم.

فتوقف وقال لكن هذه السيارة عسكرية.

فأقنعتة وسط دهشة حشمة وقلت له: أوصول المجموعة ثم عد إلي ثانية

وهكذا وزع كل هؤلاء الطلاب قبل الساعة الثانية إلى منازلهم جميعاً.

وتفاجأ جميع الطلاب بهذا الموقف وعدت إلى السفير فقلت له: تقول لي إن المواصلات انقطعت والمترو أغلق وهناك مثل عربي يقول (أرسل حكيماً ولا توصه..). وهكذا انتهى الاجتماع وقلت للطلاب أنا سأنزل في فندق راسيا فمن أراد أن يشاهدني مرة ثانية فأنا في الفندق وعلى ما أعتقد اعترض أحد الطلاب بشدة وانتقد 16 ت2 وهو طالب دكتوراه في الرياضيات هو (م.م) فقلت له (خل باسبورك معك ولن يسحب منك شرط أن تنجح في دراستك وبعد أن تنجح إذا رغبت بالعودة إلى سورية فأهلاً وسهلاً وإذا لم ترغب فلكل حادث حديث وكذلك قلت لكل الطلاب وبحضور كل الطلاب لن أسحب أي باسبور حتى تخرجوا فمن يريد العودة فليعد ومن لم يرغب بالعودة فليرسل (باسوره) وفي أواخر الليل أوصلنا السفير جميل شيا إلى الفندق وفي صباح اليوم الثاني

وكعادتي أستيقظت باكراً وكان الطقس مثلجاً وخرجت من الغرفة إلى البلكون وتناولت قهوتي في الشرفة وفي الساعة السابعة زارني رئيس اتحاد الطلاب الشيوعيين السوريين الذي يدرس في موسكو وهو من النبك ورحبت به وفعلاً تناول معي طعام الفطور واستغرب هو أن يأتي فطوري إلى الشرفة (لأنه قال لي هذا النظام مستحيل) فأجبته: لكل حادث حديث يا بني وأنت لا تعرف الحياة وطبيعة الإنسان البشري وفي اليوم الثالث غادرنا وكان معي السفير السوري جميل شيا وباقر ياسين وزوجته وأمين الشعبة (شعبة البعث في موسكو) ذهبنا إلى لينينغراد وهناك نهاراً زرت السجن الذ سجن لينين فيه وزرت مكتبة في لينينغراد وزرنا الأرميتاج وفي المساء جمعوا الطلاب السوريين في لينينغراد التي تسمى حالياً (بترسبورغ) وكان الاجتماع هنا عاصفاً وكان يتحدث باقر ياسين عن العراق وحزب البعث في العراق وأحمد حسن البكر وحديثاً طويلاً ومتشعباً وأخيراً تحدثت أنا وتحدث السفير جميل شيا وانتهى الحديث.

وغادر الطلاب قبل الساعة التاسعة.

كان عدد الطلاب حوالي خمسين طالباً وفي اليوم التالي غادرنا لينينغراد إلى كييف. وذهبنا إلى الفندق ولكن السفير عاد من المطار إلى موسكو وعندما وصلنا إلى الفندق كنا نحمل باسبورات غير حقيقة، وعندما وصلنا إلى الفندق قال لنا مدير الفندق كيف وصلتكم إلى هنا ولم تحجزوا مسبقاً ولم تعرف السلطات في كييف من أنتم والحقيقة صار إرباك بيني وبين باقر ياسين وأمين الشعبة ومدير الفندق فقلت لمدير الفندق ألا يوجد ضابط أمن في الفندق قال طبعاً.. وقلت له: أخبره، فأثنى ضابط الأمن في الفندق فقلت له: اسمع جيداً وقلت لعلي حشمة ترجم كما أقول: هذا جواز سفري ولكن اسمي الحقيقي

محمد إبراهيم العلي قائد الجيش الشعبي في الجمهورية العربية السورية ففوجئ وهؤلاء الذين معي هم ضيوفي فلتخبر المسؤولين في كييف أن قائد الجيش الشعبي في سورية موجود في كييف وفي الفندق.

وفعلاً قال انتظر قليلاً.. وعاد بعد أقل من ثلاثين دقيقة وقال: نرحب بكم في هذا الفندق ونضع لكم برنامجاً وإذا رغبتם دعوتنا فندعوكم لبرنامج جديد فقلت له بعد أن أنفذ برنامجي مع طلابنا السوريين وطبعاً لم أعرف بباقر ياسين في جواز السفر وفعلاً نمنا في ذلك الفندق واجتمعنا في اليوم الثاني مع الطلاب السوريين الذين وصلوا من بقية المدن وكان في هذا الاجتماع نقاش عنيف واستمر الاجتماع نهائياً حتى المساء وأنا أتحدث إليهم وأخيراً وصلنا أنه لا أحد يأخذ جواز سفر أي طالب حتى ينهي دراسته.

تحدث باقر ياسين عن الحزب والقيادة القومية والحركة التصحيحية وعدت أنا للحديث مرة ثانية وكنت أجلس قرب الأستاذ باقر ياسين وكنت أتحدث بهدوء فضربني برجله على رجلي فظننت أنه أخطأ ولكنه ضربني مرة ثانية وقلت له هل أنت مخطئ.. فوشوشني في أذني أن في القاعة طلاب يكتبون التقارير وهنا ثارت ثائرتي حتى هنا في كييف توجد تقارير والحقيقة قلت لهم كل تقرير بأي طالب سيصل لعندي في دمشق سوف أعاقب الطالب الذي كتب التقرير وانتهى الاجتماع عصر ذلك اليوم وعدنا مساء في القطار إلى موسكو وكانت رحلة القطار تستغرق كما اعتقد حوالي 9 أو عشر ساعات لأنه بدأ القطار من المساء ووصل في الصباح إلى موسكو وبقينا في موسكو حوالي خمسة أيام وقابلت فيها مدير معهد بليخانوف وقدمت له هدية ربطة عنق وقلم

حبر وكان معي الكثير من ربطات العنق. وسألني سؤالاً عن الإسلام وآية في القرآن الكريم (كان على رؤوسهم الطير خائفين..) ما معنى هذا؟؟؟ الحقيقة فوجئت كيف أفسر هذه الآية وقلت له: هل أنت قرأت القرآن الكريم باللغة العربية أو مترجم إلى اللغة الروسية فقال أنا قرأت ترجمة البروفسور سلطانوف وفجأة خطرت فكرة على بالي أن أفسر له هذه الآية: قلت له: هناك ملك في أفريقيا كان عنده دار كبيرة وكان يسجل المخالفات في مدينته أو في مملكته لا أدري وفي كل أسبوع يحمل المخالفين إلى قصره دار قصيرة ثم تخرج فتاة إلى الشرفة وعلى يدها طير فيطلق هذا الطير ليحوم فوق رؤوس هؤلاء البشر فالذي يقف الطير على رأسه يقطع رأسه لذلك كانوا عندما يحوم الطير فوق رؤوسهم خائفين وتنحني رؤوسهم للطير... وهكذا يجمعهم كل أسبوع ويطلق الطير فوق رؤوسهم فأرجو أن لا يكون رأسك موجوداً في هذا الدار ويقف الطير على رأسك. وقال لقد فهمت الآن القصد من الآية الكريمة...

لقد انتهت الزيارة في أواخر آذار وعدنا إلى دمشق. في أواخر تشرين الأول شكّل وفد لزيارة كوريا الديمقراطية وطلب مني أن أقود الوفد مع ضابطين من الجيش الشعبي النقيب محمد عنقة رئيس فرع التنظيم بالجيش الشعبي من يبرود والنقيب عبد الرزاق السوفي من حمص رئيس فرع الأمن.

وكان الوفد برئاسة.

ثم ذهبنا إلى المطار وفوجئت في المطار أن هناك وفداً مديناً برئاسة الرفيق عبد الله الأحمد وهو من قرى حمص ولكن يسكن حمص وهو رجل

متواضع ومتقف وذكي وكنت على علاقة جيدة معه وهو يتقن اللغة الروسية حيث اتبع دورة عمالية في موسكو وأتقن اللغة الروسية وعندما أقلعت الطائرة كان وفده يتكون من سبعة أشخاص (ستة ومعهم سيدة من بيت المقداد من درعا وكانت سيدة معلمة ومتقفة ومتواضعة. وكانت معها سيدة أخرى.

وذهبنا بالطائرة وفكرت أننا وفدان منفصلان أنا رئيس الوفد العسكري وهو رئيس الوفد المدني فاقترحت عليه أن أضيف وفدي إليه ويكون هو رئيس الوفد. وكان في الوفد المحامي نجاة قصاب حسن وهو رسام وشاعر وموسيقي وفنان متعدد المواهب وصاحب نكتة على مستوى عالي وذو أخلاق دمثة. وذهبنا بالطائرة من دمشق إلى موسكو التي أقلعت بعد الظهر ثم وصلنا إلى موسكو بعد الغروب بقليل. والحقيقة ذهبنا إلى السفارة وكان السفير قد انتقل إلى منزل جديد ولم نخبره أننا قادمون إلى موسكو ففوجئ بنا.

وقال لماذا لم ترسلوا لي برقية وتعلموني بمجيئكم حتى أحجز لكم في الفندق وفي مطعم. وهنا سألت جميل شيا علاقتي معه جيدة جداً لأنه في يوم 23 شباط ليلاً بعد أن نفذنا الحركة في دمشق ذهبنا معاً إلى حلب ليلاً وهو يعرف هذا جيداً حتى لا أصطدم مع اللواء حمد عبيد الموجود في حلب هل من المعقول أن الفنادق والمطاعم قد أغلقت. فلنذهب إلى أكبر فندق في موسكو. وقال أكبر فندق في موسكو هو فندق أوكرانيا وفعلاً ذهبنا إلى الفندق وكان معنا الملحق العسكري السوري المقدم مظهر البرازي وكان مترجماً اسمه عبد الله من القنيطرة له أكثر من أربع سنوات في موسكو. فرافقنا إلى هناك وكنت قد صرفت مئة دولار بالروبلات من عبد الله وأعطاني أكثر من ثلاثمئة

روبل أو أقل وعندما وصلنا إلى الفندق فعلاً وجدنا الفندق مغلقاً وبابه مثل باب القلاع وفي وسط الباب باب صغير يدخل منه شخص واحد.

فقلت لعبد الله اترك الباب بالمطرفة فقال: سيأتي الشرطي ويفتح الباب ويقول لنا إن الفندق مغلق فقلت عندئذ ناوله يا عبد الله خمس روبلات وقل له إننا سنرتاح قليلاً في باحة الفندق وكان الجو مثلاً.. وجاء الشرطي سألنا الشرطي ماذا نريد؟ قلت له نريد أن نرتاح داخل الفندق. ففتح الباب ثم واعتذر السفير وبقي معنا الملحق العسكري فقلت للمترجم عبد الله أريد أن أرى المطعم، فدخلنا وفعلاً كان المطعم شبه ممتلئ وكانت المسؤولة عن المطعم (سيدة) فذهبت إليها مباشرة وهي تقف وراء الطاولة وقلت لها: نحن وفد وصل إلى موسكو الآن وسنغادر غداً في الرابعة صباحاً نريد أن نأخذ العشاء ثم ناولتها خمسة وعشرين روبلاً.. ثم قالت انتظروا قليلاً وأعتقد بعد عشر دقائق أوجدت لنا طاولة تستوعب اثني عشر شخصاً أو أكثر وأحضرت لنا العشاء كما نريد. وبعد حوالي نصف ساعة قمت أنا وذهبت إليها ومعني المترجم وقلت لها هل نستطيع أن ننام في هذا الفندق حتى الساعة الرابعة صباحاً ونظرت إلي وقالت: لا أدري فناولتها خمسة وعشرين روبلاً وعندئذ قالت انتظر نتحدث بعد العشاء ثم ذهبت إلى الفندق وأتت بمدير الفندق فسألنا هل تريدون غرفاً موجودة في عدة طوابق أو تريدون أن تكونوا في طابق واحد. أجبتة:

يفضل أن نكون في طابق واحد لأننا سنغادر في الرابعة صباحاً. وفعلاً رتب لنا كل اثنين في غرفة أنا وعبد الله الأحمد أخذنا سويت عبد الله الأحمد اشترى دجاجة غير مطبوخة واشترى 2 لتر فودكا وبعض الموالح وبعد العشاء. عادة يوجد مطبخ صغير وأخذ من المطبخ صحن ألمنيوم كبيراً وأخذ صحن بلور

أيضاً ووضع الفروج في الصحن ثم سكب الفودكا فوقه وبدأ يشوي الفروج بالفودكا ولهيب الفودكا شبه أخضر وأزرق والرائحة انتشرت في الطابق وحضرت المسؤولة عن الطابق وكانت كبيرة في العمر فوق الخمسين من العمر وهي نحيفة. وفوجئت بأن الرفيق عبد الله الأحمد يشوي الفروج بالفودكا وهنا ثارت ثائرتها وقالت هذه الفودكا مقدسة كيف تحرق الفروج بالفودكا. ولكن عبد الله الأحمد أخذها بهدوء وطولة بال ثم قلت له بحياة أبو علي ترجم لي كل كلمة سأقولها: ولكن هي كانت متوترة جداً وقالت له. سأشوي لك الفروج بالمطبخ ولكنه لم يقبل إلا أن يشوي الفروج بالفودكا وعندما أتى بكأسين حتى يملؤهما بالفودكا.. كُسر الكأس ذهبت قليلاً ثم عادت ورفعت صوتها وسألت كيف كسرت الكأس يجب أن تدفع ثمنه وأنا كنت أعتقد أن ثمن هذا الكأس لا يتعدى بضعة (كوبيكات) ولكنه قال لها بهدوء الأجنب في هذا الليل لن أدفع شيئاً !

وكانت هي تتصور أن يعطيها عدة روبلات وقال لها: إن الأجنب سيخربون الاشتراكية عندما يرشون المضيفات وهنا رفعت صوتها أكثر وقالت له يبدو أنك لم تعرف الاشتراكية ولا الشيوعية أنا لا يهمني أريد ثمن الكأس. وهنا رد أبو علي بهدوء.. وابتسامة فهو رغم كل غضبها لا يغضب إطلاقاً.

وقالت له: يبدو أنك عجري ولم يرد عليها وعندما قالت له هذا الكلام تدخلت أنا فوراً لأنها خرجت عن اللباقة والأدب في الكلام قلت لها غداً تشتري كأساً وهذا ثمن الكأس ثم ناولتها ثلاث روبلات فهدأت قليلاً ثم عادت للنقاش أكثر وقلت لها ماذا تريدن أن تقولي: قالت ليترجم لك أن الاشتراكية والشيوعية ذهبت مع ستالين وهذا الفندق الذي يستوعب مئات الغرف يُصفر

فيه الهواء فعندئذ رجوتها أن لا تناقش وأن تكون هادئة وأعطيتها عشر روبلات ثم هزت برأسها وذهبت وعادت بعد عشر دقائق ومعها لوتر (شومبانية) وكأسين وقالت سأشرب أنا بصحة الرجل الذي يجلس معنا لأنه أمير ولكن لن أشرب بصحتك لأنك أحرقت الفودكا والفودكا مقدسة في موسكو فرجوتها أن تنتهي الحديث وأنا لا أشرب ولكن وضعت الكأس أمامي وشرحت له الاقتصاد وقالت له في هذا الطابق يوجد (18 مناوبة) يجلسن في باحة الطابق يلعبن الورق ويحاورن الكلمات المتقاطعة وعندما ينتهي وقت تقديم الطعام في المطعم يغادرون مع بعض الزبائن حتى يستطيعوا العيش لأن الراتب (90 روبل) و90 روبل لا تكفي الإنسان ليعيش عيشة كريمة فأنا أتحمل مسؤولية الـ18 سيدة. أتحمل مسؤوليتهن وأقوم بخدمة الطابق بكامله فبعد أن تحدثت وعادت تحسن ألفاظها مع أبو علي وقالت له كونك تعرف اللغة الروسية جيداً عليك أن تعرف معنى الاقتصاد الاشتراكي وأردت أن أحسم هذا النقاش لأن لوتر الشومبانية ثمنه أقل من روبل ونصف فحتى أحسم هذا النقاش قلت لها أنا سأقدم هدية لكل بنت في هذه الاستراحة لوتر شومبانية وناولتها حوالي خمسين روبلاً وقلت لها اذهبي واشتري لهن شومبانية وفعلاً ذهبت وأخبرتهن فأردن المجيء للسلام علي . ولكن قلت لها أنا سأذهب إليهن وفعلاً ذهبت وسلمت عليهن جميعاً وانتهت المشكلة مع هذه المناوبة وكانت علي ما أعتقد على أبواب التقاعد ولم تبسم كل الوقت في الحقيقة بعد هذا الحديث المفصل عن المناوبين في هذا الطابق والعدد الموجود في المناوبة وأغلب الغرف لا يوجد فيها زبائن فكرت إذاً الاتحاد السوفياتي مقدم على أزمة مرعبة ورحت أنا وأبو علي المعجب بالاتحاد السوفياتي وكانت هذه المرة الثانية التي أزور فيها موسكو

وفي الصباح الباكر غادرنا الفندق إلى مطار موسكو فأقلتنا طائرة أعتقد أنها كانت قاصفة قنابل في الحرب العالمية الثانية وهي تحمل حوالي سبعين راكباً وغادرنا موسكو مع شروق الشمس باتجاه كوريا وبعد حوالي أربع ساعات هبطنا في مدينة اسمها (أوم سك) وكان مطارها كبيراً ثم نزلنا إلى القاعة وكان المضيف قد قال إن الطائرة ستوقف بعد حوالي الساعة والنصف والحقيقة كان في هذه القاعة الكبيرة جداً المئات من الناس وفيها قدور على الغاز مفروم فيها اللحم وأنا لا أدري نوعية اللحم. وفيها قدر آخر شاي وخبز أكوام وقلت للشخص الواقف عندهم أريد العشاء وكان هناك حزام يمر فقال "خذ ما تريد".

قلت أريد أن آخذ الخبز فقط وعندما انتهيت سألته عن الثمن قال في هذه القاعة الطعام مجاناً. وكان هناك طائرات مروحية صغيرة بالمئات تقف وراء بعضها ولا يوجد إلا صوت الميكرفون عالياً والحقيقة سألت أحدهم فقال لي إن هذه الطائرة تستوعب سبع ركاب. وهبطت من إحدى الطائرة سيدة تحمل الديك وبعضهم يحمل الخراف ويحملون سلال فيها فواكه وحدثنا أحدهم أن هؤلاء ينزلون إلى السوق يبيعون ويشتررون ثم يعودون إلى هنا ليغادروا بالطائرة إلى قراهم وهذه الطائرة تذهب إلى حوالي 100 كم وهذه الطائرات تهبط على الأرض الترابية أو على الحشيش وفعلاً كنا أنا وأبو علي والوفود المرافقة نسير بين الناس فإذا برجل يحمل آلة موسيقية وسأل أبو علي مباشرة هل أنت غجري؟ وأنا جاوبته فوراً نعم فقال له أبو علي نعم ماذا تريد فقال له من أي غجر أنت؟ وأجاب أنا غجري وشرح لنا أنه رئيس مجموعات من الغجر يذهبون في هذه الليلة إلى منجم نحاس يبعد من هنا حوالي 90 كم ويعودون ويحل محلهم نفس العدد حتى لا يتوقف الإنتاج وكرر السؤال: أنت من أي غجر؟

فأجبت من سورية فنظر في وجوهنا عابساً ثم قال: أنتم الغجر في سورية وتتركون اليهود يقتلون السوريين ولم تقتلوا اليهود وتطردوهم من أرضكم فقال له أبو علي سنطردهم ونعاون الشعب السوري وشرح لنا الكثير عن النحاس والمنجم والغجر في هذه المنطقة ثم نادوا على الركاب فودعناه وعدنا وقال لي عبد الله الأحمد رحمه الله (شاييف كيف صنفنا هذا الغجري) فعلينا أن نناضل لطرد اليهود.

ثم ركبنا الطائرة مرة ثانية من أومسك إلى أركوسك واستغرقت الرحلة ثلاث ساعات ووصلت أركوسك وهي المدينة القريبة من حدود الصين وتوقفت الطائرة حوالي الساعة في المطار ولكن أمرنا أن لا نهبط حيث بعد ساعة أقلعت الطائرة باتجاه كوريا الشمالية ووصلنا بيونغ يانك عاصمة كوريا الشمالية بعد ثلاث ساعات وأعتقد أن هذه الرحلة بالطيران استغرقت حوالي (إحدى عشر ساعة ونصف) واستقبلنا فعلاً استقبلاً جميلاً وقدمت لنا الزهور ثم نقلنا بالسيارات وكانت السيارات من نوع (فولغا روسية) ونزلنا في منزل كبير يبعد عن العاصمة حوالي 2 كم وخصصوا لنا مترجمين من اللغة الكورية إلى العربية أحدهما فتاة والثاني رجل وكان أبو علي يركب بالسيارة مع المترجم الرجل وأنا في السيارة الثانية مع المترجمة وكانت فتاة شابة وكانت عندما تذهب لمكان يستغرق ساعة تغني في السيارة (طلعت يا محلاً نورها شمس الشموسة) وأنا سألتها ما معنى هذه الكلمات قالت لي شمس الشموسة الشمس هي نهراً (كيم سونغ) وليلاً يصبح القمر فـ(كيم إل سونغ) هو الشمس والقمر..

والحقيقة استغرقت الرحلة في كوريا أكثر من عشرين يوماً وزرنا أغلب أنحاء كوريا ومحافظاتها أذكر عندما زرنا قطعة عسكرية دخلنا في مهجع الجنود

الذين ينامون فيه وكان أحد الأسرة مغطى بنايلون ومنظم بطريقة جميلة ومكتوب لوحة على المخروطة هنا نام (كيم سونغ) عدة ساعات.. ثم شاهدنا المغسلة مكان الذي يغسل فيه الجنود وجوههم وعليها آلة الحلاقة وقد كتب هنا حلق كيم سونغ ذقنه ثم غادرنا المكان الذي كان كيم سونغ مختبئاً في جبل هنا وأخذت له أمه الطعام وصعدنا إلى الجبل فهي صخرة جلس عليها (كيم إيل سونغ) وحولها نوع من السياج ثم ذهبنا إلى منزله فإذا هو من القش والقصب وتذكرت أنا بيوت الغاب وكان مثل هذا المنزل ومن أمام هذا البيت على بعد خمسين متراً ألتقي بأحد الأصدقاء ونظموا المقاومة ضد الأمريكيين ثم ذهبنا جنوباً في القطار وكانوا قد خصصوا لنا قطاراً خاصاً من ثلاث عربات وعريتين للنوم وعربة مطعم وذهبنا إلى الجنوب.

وكان في الجنوب تمثال لكيم إيل سونغ في قمة الجبل وتسلقنا هذا الجبل بدرج عرضه أكثر من عشرين متراً وذهبنا إلى الأعلى وكانت الفتاة الموجودة عند التمثال بدأت تشرح لنا عن هذا التمثال (كيم) المطلي بالفوسفور وقالت عندما تدور السيارة في سيؤول عاصمة كوريا الجنوبية يلمع التمثال على كل كوريا الجنوبية وبذلك علينا أن نوحّد الكوريتين وشرحت لنا كثيراً عن (كيم) المحبوب من أربعين مليون نسمة وكانت كوريا الشمالية في ذلك الوقت 12 مليوناً والجنوبية 28 مليوناً ومساحة كوريا الشمالية حوالي (120 ألف كم²) ومساحة الجنوبية (80 ألف كم²) والحقيقة جرى اجتماع مع حزب العمال الكوري وشرح لنا عن الحركة العمالية في كوريا وكثيراً عن الحرب الكورية بين الشمال والجنوب وكيف حررنا كوريا الشمالية وزرنا المتحف العسكري الكوري وكان الجنود الصينيون الذين قتلوا في كوريا وهذه الحرب

استمرت حوالي أكثر من ثلاث سنوات وكان قائد الجيش الأمريكي في ذلك الوقت الجنرال (ماك أرسلر) ونحن عدنا إلى الفيلا ونمنا.. وكانت معي مسجلة صغيرة رغبت أن أهديتها إلى هذه المترجمة وقالت سوف أسأل وبعد يومين أتى الجواب لا مانع من أن تأخذها إلى متحف كيم.. فأخذتها لمتحف (كيم) ونحن في هذه الاستراحة بعد الغداء طلب المحامي نجاة قصاب حسن ما رأيكم أن نذهب للبلد حتى نشاهد الشعب.. وماذا نقول لهم حتى يأخذونا إلى البلد قال سأقول لهم نريد أن نذهب لنحضر فيلم سينما وكنا نحن في وقت العشاء وإذا بشاشة كبيرة وجهاز السينما كله في الفيلا فعرضوا علينا فيلماً طويلاً وقلت لهم هذه عقوبة لك يا نجاة تريد أن تشاهد الجماهير وتشاهد السينما، شاهد.. هذه هي السينما.

وقبل نهاية الرحلة بيوم استقبلنا الزعيم (كيم) والحقيقة استفدنا من هذه الرحلة الكثير، ولا سيما كيف يكون تنظيم الشبيبة والمدارس.. وقد أمضينا اثنين وعشرين يوماً في كوريا وفي اليوم الثالث والعشرين استقبلنا الزعيم العظيم (كيم) في قصره القديم والحقيقة خلال هذه الفترة كنت معجباً بتنظيم الشبيبة وأنا نادراً ما أسجل مذكراتي اليومية لأن ما أراه بعيني يبقى محفوظاً في ذاكرتي وفي اليوم الرابع والعشرين ودعنا بمثل ما استقبلنا، وبنفس الطائرة عدنا من مطار (بيونغ ينغ) عاصمة كوريا الشمالية ووصلنا إلى (أركوسك) إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي وهي جمهورية يهودية، ولم نهبط من الطائرة فتزودت بالوقود واتجهنا إلى مدينة (أومسك) نفس الطريقة ولكن يبدو أنهم أخبروا الطيار بأن الطقس في موسكو غير صالح للهبوط فانحرف الطائرة مع اتجاه الشمال إلى مدينة (شيتا) وتبعد حوالي (1000 كم) كما أعتقد شمالاً

من أومسك، ودرجة الحرارة منخفضة جداً في هذه المدينة ولذلك سارت الطائرة إلى باب قاعة الاستقبال وأنزلونا مباشرة ضمن سلم مغلق وكنت أشاهد من النوافذ البلورية المزدوجة أن هناك غباراً في الشوارع ويبدو أنه غبار ثلجي خلف السيارات ، وعندما كان يصل بعض السائقين إلى قاعة الضيافة كانوا يلبسون جزامي إلى الركبة مغطاة باللباد وفي الجزمة من الأسفل يلبسون حذاء كاوتشوك، وكان وجه هؤلاء السكان مثل وجوه المغول ذقونهم قليلة الشعر جداً وعيونهم مبطنة ومشقوقة للأعلى وأجسامهم نحيفة وقصيرو القامة، هذا ما شاهدته عندما كانوا يدخلون القاعة إلى ويخرجون منها وكان للقاعة عندما تدخل إليها ثلاثة أبواب يدخل الشخص من الباب الأول وينظف ثيابه من الغبار الثلجي، وفي الباب الثاني يضربه هواء ساخن ثم في الباب الثالث يدخل للقاعة وكانت درجة الحرارة حوالي (40 تحت الصفر) ولم نشاهد من خلال هذه النوافذ إلا بعض الطائرات المتوقفة وبعض طائرات تهبط وتقلع، وكان معنا الأستاذ نجاة قصاب حسن فرسم المضيئة في القاعة على الصحن التي وضعته أمامه، ونظرت إلى الصحن فوجدت صورتها في الصحن ثم أحضرت صحن آخر وأخذت الصحن وطلبت منه أن يضع إمضاءه على هذا الصحن، وفعلاً تناولنا طعام بعد الظهر ثم أقبلت الطائرة بنا عند الغروب ووصلنا إلى موسكو بعد أربع ساعات من إقلاعها، ويبدو أن البرد أخذ مني ولم أكن أرتدي ثياباً شتوية، ولم أكن أفكر أن تشرين قاسي بهذا الشكل في الاتحاد السوفيتي وعندما اقتربنا من مطار موسكو أغمي علي وفقدت الوعي ثم اسعفتني المضيئة في الطائرة والطبيب الموجود فيها، وأخبروا مطار موسكو وفعلاً عندما وصلنا إلى مطار موسكو كانت سيارة صحية على باب الطائرة، فأخذوني إلى

مستوصف المطار وهناك عالجوني وبعدها عدت كما كنت بصحة جيدة وعدنا إلى مطار موسكو، وكان في استقبالنا السفير الكوري في موسكو وحجزوا لنا في الفندق فأقمنا يومين في موسكو يومين وعدنا إلى سورية على متن الطائرة (TU 104) . وقد قدم الرفيق عبد الله الأحمر تقريره إلى القيادة القطرية عن الزيارة.

عدت بروح معنوية عالية وعدت إلى تدريب مادة الفتوة بشكل أشد وأكثر قسوة استعداداً لما يقوم به هؤلاء الطلبة إذا ما نشبت الحرب بيننا وبين العدو الإسرائيلي فقد كان عدد كتائب الجيش الشعبي أكثر من ثلاثمائة كتيبة في كل أنحاء سورية.

وفي هذا الوقت كان رئيس وزراء سورية اللواء عبد الرحمن خليفاوي، وعلاقتي جيدة معه وهو يحترمني كثيراً وكنت أزوره في أي وقت ويدون موعدي مسبقاً وكنت أحضر جلسات مجلس الوزراء وفي إحدى المرات كان شكوى علي من بعض الوزراء على عملي معه وأني لا أدربهم استعداداً للحركة المقبلة، وهنا ثارت ثائرتي وكدت أفقد صوابي من هؤلاء الوزراء الذين يرغبون التدريب على البندقية وعلى الرمي وأثناء الاجتماع قلت لهم كلمة قاسية "السلح بيد... ييجرح" ورفعت الجلسة وأحضرني اللواء خليفاوي إلى مكتبه وكان متوتراً وأنا أعرفه جيداً فقال هذه إهانة لي فقلت له لا.. أنت صديقي ولكنه لم يرضى بذلك وبعد أن خرجت شكاني إلى الرئيس حافظ الأسد وهنا كنت متوتر الأعصاب عندما علمت أنه شكاني وسألني الرئيس حافظ الأسد على الهاتف ماذا حصل، فقلت له كما حصل حرفياً.

قال لي: هل أنت غير راغب لحضور هذا المجلس.

قلت له: أتمنى أن لا أحضر هذا المجلس بحياتي .

قال: كما ترغب.. لا تحضر أبداً.

ولكنني قد قررت أن أقيم مهرجاناً عسكرياً للجيش الشعبي ويكون أغلب العناصر فيه من طلبة الفتوة وتحت رئاسة مجلس الوزراء، حرصاً مني على أن أحافظ على صداقة الخليفاي فعلاً قمنا بهذا المهرجان في الملعب البلدي بكرة القدم المقابل للمسرح العسكري، وقد أعجب رئيس الوزراء بالعرض حيث كان الطلاب والطالبات يمشون في كرات النار المشتعلة وكثيراً منهم قاموا بعروض جميلة ومعبرة مثل العبور على الجبل ضمن الفكرة الافتراضية من أن الجبل يكون أعلى النهر، وعرض أيضاً فصيل للفلاحين والعمال، وفصيل للاتحاد النسائي وحضر أغلب الوزراء هذا المهرجان.

وقدمت لرئيس الوزراء الزهور من قبل طالبات الفتوة وهكذا عادت الثقة بيني وبينه وقد سجل التلفزيون السوري هذا العرض كاملاً، ويبدو أنه نقل للسيد الرئيس مشاهداته عن هذا المهرجان، فأرسل إلي مئة ألف ليرة سورية هدية لهؤلاء الطلاب، ثم أرسلت له محاسب القيادة.

وبعد هذا العرض في ربيع (1973) استدعاني الرئيس شخصياً إلى مكتبه في قصر الروضة وقال لي هل هذه الكتائب المنظمة لديك يمكن استدعائها إذا نشب صراع مع العدو وخاصة في دمشق، وكان جوابي "سيدي الرئيس وطني غال سواء في دمشق أو غير دمشق وأنا في كل شهر أمر على المحافظات لمراقبة التدريب والاستعداد العسكري"، قال: هل جربت كيف تستدعي كتيبة بنات ليلاً وشرحت له إن قائد الكتيبة عليه أن يعرف عناوين قادة السرايا وقادة الفصائل وإذا كان لديهم تلفونات يعرف أرقام تلفوناتهم وقائد السرية يجب أن

يعرف عناوين قادة الفصائل وقادة الجماعات، وقائد الفصيلة يجب أن يعرف عناوين قادة الجماعات والأفراد في فصيلته وعندما يعطى الأمر تكون هذه العناوين جميعها بأيديهم وحتى لا ينسى أحدهم العنوان يجب أن يكون بجيبه دفتر صغير يسجل هذه العناوين التي تخصصه وقد أجريت استطلاعاً دقيقاً على ذلك ونظمت أيضاً كتائب العمال والفلاحين على هذا النحو، وفي مستودعات السلاح كل بارودة يكتب عليها اسم صاحبها على ورقة ورقم البندقية وبذلك نستطيع عندما تستنفر أي كتيبة من الكتائب يعرفون أين أسلحتهم وعتادهم مقال : هل جريت في دمشق الأهالي وهل سألت إن كانوا يسمحون لبناتهم بالخروج الساعة الواحدة ليلاً.

قلت له: هل تريد أن نجرب وقال: جرب وأعلمني قبل التجربة بساعة على أن يكون الاجتماع في الساعة الواحدة ليلاً. وقلت له سأجرب غداً وفعلاً مساء ذلك اليوم من المقابلة اتصلت بالصباغ مسؤول في كتيبة فتوة استنفر لي كتيبة فتوة من الشباب في ثانوية ابن خلدون وكتيبة من البنات وكما أعتقد أن كتيبة الشباب كان رقمها /14/ وكتيبة البنات كان رقمها أربعة ثم أغلقت التلفون.

وكان عندما أعلمته بذلك في منزله واتصلت أيضاً بقائدة كتيبة المدرية عليا خماش وكانت قائدة لكتيبة الرابعة وأعطيتهم الأمر الاجتماع للبنات في ثانوية جودة الهاشمي وكان السلاح في جودة الهاشمي وابن خلدون وأن لا يوزع السلاح إلا عندما أحضر ذلك وأخبرت الرئيس حافظ الأسد عن ذلك، وقال لي أخبرني كم عدد الغياب من الطلاب والطالبات عند الساعة الواحدة وصل بعض من عناصر القصر الجمهوري ووصل مدير جودة الهاشمي ومدير ثانوية

ابن خلدون وعندما جرى التفقد في الساعة الواحدة كان غياب أربع طالبات لأنهن خارج مدينة دمشق وتسع طلاب وعندما أعلنت الرئيس الساعة الواحدة والنصف ليلاً إذا كان بالإمكان أن يرسل ضباطاً ليتأكدوا من هذه الدقة. فعلاً وصل أحد ضباط القصر الجمهوري المرافقين للرئيس ونظر فقط في التشكيل الواقف على الأرض في مدرستي البنات والشباب وبعد هذا الاجتماع كان الطلاب يسألون متى ستوزع السلاح عليهم؟ قلت لهم أن القيادة أجلت إشراككم في المعركة هذه الليلة شكراً لكم عودوا إلى منازلكم.

وفي اليوم الثاني نهائياً الساعة الواحدة تقريباً استدعاني الرئيس حافظ الأسد وشكرني على هذا التنظيم الرائع والدقيق.... قلت له : عندما ينادينا الواجب سيضحي المواطن بكل شيء من أجل أرضه فهي عرضه والوطن غال.

وهكذا عدنا إلى التدريب المستمر ولم أكن أعرف متى يكون وقت المعركة وقد تلقيت منه بعض التوجيهات في المشافي الميدانية والخدمات المعيشية للمعسكر أثناء الحرب. وتزويد المشافي الميدانية بكثير من الطالبات والطلاب كما قال: بالنسبة للطلاب فدرّبناهم على إصلاح مهابط المطارات ومساعدة إدارة التسليح في الحمل والتنزيل والإمداد وكذلك زرت المرافئ مرفأ اللاذقية وطرطوس وكان هناك كميات كبيرة وآلاف الأمتار من الأخشاب، إذاً علينا أن ننظم إذا ما نشب الصراع أن نخلي هذه الأخشاب من المرافئ، وأيضاً عندما كنت أمر على الطرق أخشى أن يكون هناك مخربون يفجرون الجسور أو العبارات أو ألغام على الطرق فكان لابد من تنظيم كتائب الفلاحين لحراسة هذه العبارات والطرق والجسور في كل أنحاء سورية وعدت مرة أخرى لأبحث مع إدارة التسليح حاجتهم لحراسة مستودعات الأسلحة في الداخل،

وهكذا استمر العمل وبدأت حرب 1973 واشترك فيها الطلاب، كانوا حوالي (200 طالب) في الضمير لإصلاح المهابط وكان كل طالب يحمل عربة صغيرة تعبى بالزفت وتملى بالحفرة التي أصابتها قبلة العدو ومعه رفش لتسويتها وبعدها نضع عليها المدحلة التي تدحل الزفت من أجل أن لا تتوقف الطائرة عن الطيران وبقوا حوالي اثنين وعشرين يوماً وكذلك في كل المطارات وهناك أيضاً طلاب احتاجتهم إدارة التسليح لتحميل الذخيرة في العربات العسكرية ونقلها إلى الجبهة وأخذوا آلاف الطلاب هذه المهمة أما بالنسبة للطلبات، فقد كن مسؤولات عن إعداد الوجبة الغذائية وهي ساخنة ووضعتها في علبة كرتون ثم تؤخذ علبة الكرتون إلى كل فرد في الفصيل وكانوا مثل الماكينة كل واحدة منهم تضع مادة معينة في العلبة والخامسة تغطي الكرتونة، والسادسة تلتصق العلبة بشكل كامل ثم توضع في السيارات التي تحملها إلى الجبهة في الخط الأمامي، أما فيما يتعلق بحراسة المستودعات في الداخل، فكان يتولاها أفراد كتائب الفلاحين من القرى القريبة للمستودع وهم يلبسون عباءاتهم وفرواتهم، وكانت الأمطار غزيرة في بعض الأوقات في حرب تشرين 1973، وكانت كتائب الفلاحين يحرسون المستودعات القريبة من القرى وكذلك العمال يحرسون بعض المصانع في مناطقهم وعلى ما أذكر أن مستودعات القسطل قبل النيك كانت تحرسها كتيبة من فلاحي القسطل وقد رأيت الحوامات الإسرائيلية تقوم بالإنزال لتفجير المستودعات فتصدت لهم هذه الكتيبة، واستشهد من الفلاحين أربعة عشر شخصاً وجرح حوالي عشرين ولم تستطع الحوامات الإنزال ومات جميع من حاولوا الهبوط.

وبعد الحرب ذهبت إلى عائلاتهم. وكانت هذه الحرب نقلة نوعية في حياة العرب وبعد فترة في نفس العام (1973-1974) قام كسنجر برحلته المكوكية، وعقد مؤتمر قطري استثنائي ليوم واحد في قاعة الفيحاء وبدأ النقاش حول الحرب والسلام، واستمر النقاش أكثر من ساعتين وكان رئيس المخابرات العسكرية اللواء حكمت الشهابي وكنت أجلس في الصف الخلفي وكثير من الناس يهرولون ليجلسوا في الصف الأول... وقال حكمت الشهابي رئيس المخابرات العسكرية: محمد، إحسمها وخلصنا لقد طال النقاش من دون فائدة ورفعت يدي (نقطة نظام) وكان يقود الجلسة عبد الله الأحمر فقلت له: الذي قاد الحرب يقود السلام ونحن نفوضه: وقال أكتبها على ورقة فكتبت على ورقة صغيرة وأرسلتها له وقال: أتااني اقتراح من محمد إبراهيم العلي سأعرضه على المؤتمر، يطلب التصويت عليه فالذي قاد الحرب يقود السلام ونحن نفوضه ، وأطرح الاقتراح للتصويت فوافق الجميع.

في هذا المؤتمر أعطي حكمت الشهابي العضوية العاملة في حزب البعث وأعطي قدم عشر سنوات حتى يتسنى له الترشيح إلى القيادة القطرية وهذا ما حصل بعد المؤتمر القطري، كانت هناك إشكالات كثيرة. وأصبح حكمت الشهابي رئيساً للأركان ويوسف شكور نائباً لوزير الدفاع وفي هذه الفترة ذهب اللواء يوسف شكور سفيراً لسورية في فرنسا وهو يتقن اللغة الفرنسية كان هناك بعض المشاكل في داخل سورية وبهذه الفترة بدأت سنة 1976 وقد قام بزيارتنا (زيارة سورية) (ألكسي كوسيجن) رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي ونزل في قصر الضيافة وفي اليوم الثاني من زيارته دخلت القوات السورية إلى لبنان وفي الصباح الباكر حوالي الساعة التاسعة والنصف أخبرني سفير الاتحاد

السوفييتي (نور الدين محي الدينوف) وقال لي أنا في حاجتك وموجود في قصر الضيافة، وذهبت فعلاً وقال لي أن (كوسجن) مزعوج جداً ويرفض تناول طعام الإفطار، إن دخول الجيش السوري إلى لبنان من دون علم الاتحاد السوفييتي سيؤدي إلى مشاكل كبيرة في العالم، وكان المترجم الملحق الثقافي الروسي في دمشق وكنت مبتسماً.

قال: ماذا عملتم.

أجبت: لا يحصل شيء كان مزعوجاً جداً وقال سأخرج إلى الشارع مشياً فمشيت معه باتجاه البرلمان وبعد 200م من المسير عدنا إلى قصر الضيافة وأقنعت بتناول الطعام (وقد ذكر هذا نور الدين محي الدينوف) في كتابه مذكراتي وحوالي الساعة العاشر استقبل الرئيس حافظ الأسد رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي وفي المساء غادر سورية إلى موسكو عام 1977 زارني في هذه الفترة الكاتب الروسي (جنكيز ايتماتوف) وهو من جمهورية (قرغيزيا) وقدم لي رواياته وكان يرافقه عبد الرزاق غانم وهو من (أبو حقفه شرق حمص) ودرس في موسكو السينما، وقد ترجم لي مختصر عن (إيتماتوف) ووضعت له برنامجاً، وقال سمعت أحداث إخوان المسلمين في حماه فقلت له ستزور حماه وتكون بصحبي وذهبنا إلى حماه ثلاثتنا والسائق واستغرب أنه ليس عندي مرافقة ووصلنا إلى حماه وزرنا فرع الحزب وشربنا قهوة هناك، وتعززت علاقتي مع إيتماتوف وكنت عندما أزور موسكو كان يدعوني إلى نادي الأدباء وهناك تعرفت على الكاتب الداغستاني رسول حمزاتوف وكان شكله يشبه شكل محمد الفاضل (المحامي السوري)، وقد اغتاله الإخوان المسلمين عندما كان رئيساً لجامعة دمشق

قرأت روايات كثيرة لمكسيم غوركي وشولوخوف ودوستويفسكي وقصص تشيخوف، وعدد كبير من الأدباء الروس ودرست رواية الملهاة الإنسانية للكاتب الفرنسي بلزاك من اثنا عشر جزءاً ، وقرأت شكسبير وفكتور هوغو (الشيخ والبحر)، وفي أواخر عام 1976 زارني الشاعر ممدوح عدوان ومعه الشاعر عبد الكريم الناعم، ومعهم مجموعة من الروايات وأهدوني إياها ورحت أقلب الروايات ولفتت انتباهي رواية عنوانها (كيف تموت المدن) لأن الأسماء الموضوعية في الرواية هي أسماء بدوية لا يمكن أن تقال في بيروت مثل شيحان أو فدعان وقلت لهم إن على الذين يكتبون الرواية أن يطابقوا المكان والأسماء الموجودة فيه ، فانزعج مني ممدوح عدوان وقال : عندما يكتب الإنسان رواية مثل هذه يحتاج لوقت طويل ويحرق مئات السجائر في الليل حتى يكتب صفحة واحدة ! وكان ممدوح صديقاً لي لوقت طويل فقلت له مازحاً أنا خلال 48 ساعة أكتب رواية مثل هذه الروايات وقلت عن هذه الروايات إنها روايات (خنفشارية) وهنا قال عبد الكريم الناعم: لا، لا تستطيع أن تكتب صفحة واحدة وتحديثه أنني سأكتب رواية خلال 48 ساعة مثل أي رواية من هذه الروايات فقال ممدوح عدوان سنقرأها لك ونصلحها إذا كان هناك أخطاء في اللغة العربية، وكان الوقت قد أصبح مساءً وكانوا منزعجين من هذا التحدي والسخرية من كتاب هذه الروايات وعند الباب قال الأستاذ ممدوح عدوان رحمه الله ننتظر روايتك كما وعدت بعد 48 ساعة، وفعلاً ودعتهم باحترام وقلت لهم: كنت أمزح فقال: مزح الرجال جد ، فقلت له: وأنا جاد في كتابة الرواية ، وبعد أن ذهب، قلت في نفسي : لماذا ورطت نفسي في هذا الوعد وفعلاً لم أعد إلى البيت في المساء وكنت أمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً، وأفكر كيف أكتب

هذه الرواية وخطرت في بالي فكرة رواية (المرابي) وهو صاحب الخان في القرية وحتى أنقذ نفسي من متاهات عدت إلى الطاولة وكتبت أسماء البيك صاحب القرية والمختار باسمه الحقيقي الشيخ إبراهيم ووالدتي ووالدي وأسماء أخرى عاشت في القرية وقرأت الكثير من الروايات التي وضعوها أمامي وتصفحتها، وفعلاً بدأت كتابة الرواية وخلال 48 ساعة لم أنم فيها أكثر من ساعة وكنت ليلاً ونهاراً أكتب وبعد 48 ساعة كنت كتبت حوالي 170 صفحة بخط يدي وهذه الصفحات صورتها ووضعتها مع الصور في مظروف كبير من ثلاث نسخ.. نسخة بقيت عندي ونسخة لممدوح عدوان ونسخة لعبد الكريم الناعم في حمص وعندما وصلت النسخة إلى ممدوح عدوان قرأها بكاملها وحضر إلى منزلي وقال لي: إنها مشروع رواية جيد لماذا لا تكتب الرواية، وقال اكتبها كما هي بلغتك هي اللغة المقروءة ولا تفلسف الجمل وفعلاً وبعد فترة شهور عدت إليها مرة أخرى وبيضتها وساعدني في قراءتها كاتب لبناني اسمه نجيب جمال الدين وكان يعمل مع العماد مصطفى طلاس وقال ماذا ستسمي هذه الرواية! فقلت له: المرابي ، فقال لي: من أين أتيت بهذه الكلمة وقلت له قرأت رواية شكسبير عن المرابي (ماذا يعمل المرابي مع المديون له..) وفعلاً بعد أن عدت دققته وطبعتها في لبنان في مركز الدراسات الفلسطينية وكتب عليها الجزء الأول، وأحضرها لي الفلسطينيون وكان ذلك يوم زيارة السادات للقدس فقلت مازحاً مع خليل الوزير أحد قادة فتح هذا هو المرابي يزور إسرائيل ، ولم أقف عند هذا الحد فكتبت رواية أخرى اسمها الطغيان ونشرتها في نفس العام، الجزء الأول، وقال لي: لماذا سميت هذه الطغيان وتلك المرابي.. قلت له: إنها عملة معدنية ذات وجهين مرة يكون المرابي بطل الرواية

ومرة يكون الإقطاعي بطل الرواية ، وفي بداية 1978 كتبت رواية عن الصراع بين الغرب والشرق ، وكان بناء سد الفرات قبل الثورة في عهدة ألمانيا من قبل شركة يهودية في ألمانيا وبعد الثورة فسخ العقد واستقر العقد على الاتحاد السوفيتي في بناء سد الفرات وكنت سابقاً معلماً على نهر الفرات والخابور في (الحريجية والصور شرق دبر الزور) ، فكتبت هذه الرواية.. حول كيف كان النهر قبل السد وعن عادات العشائر والتقاليد والزواج في هذه المنطقة وكيف أحدث سد الفرات نقلة نوعية في الحياة العامة من صيغة البدوي الراعي إلى أن يكون ابنه مهندس في سد الفرات وكيف حدث التحول الاجتماعي والسكاني بوجود الكهرباء، فبعد أن كانت المرأة تخض اللبن بالقرباً صار اللبن يخض على الكهرباء وفي هذه الفترة توقفت قليلاً لأن الأعمال شغلتني عن الكتابة لأعمالي في الجيش الشعبي.

في عام 1978 قام الإخوان المسلمين باغتيال رئيس فرع أمن الدول في حماه النقيب محمد غرة وهو من حمص واتصل بي فوراً العماد حكمت الشهابي وكان عندي مقدم من القريتين واسمه إبراهيم وهو رجل طيب وشجاع وكان مسؤول عن الشركة الخماسية وكان عندي رائد اسمه عبد السلام قعقع من اللاذقية وهو مسؤول عن وزارة النفط اتصل بي مساءً العماد حكمت الشهابي وقال لي : أرسل المقدم إبراهيم إلى حماه إلى فرع أمن الدولة فوراً وأرسله بسيارتك ، وأرسل الرائد عبد السلام قعقع إلى اللاذقية والحقيقة حزنت على النقيب محمد غرة، وكنت عندما أزور حماه كان يأتي لعندي في قيادة الجيش الشعبي رحمه الله كان شجاعاً وأنه لم يتخذ احتياطات أمنية من أجل الحفاظ على حياته، وجرت اغتيالات كثيرة في حماه في ذلك الوقت فاغتيال المحامي

سعيد حداد من قرية سلحب أو قرية غرب سلحب وكان رجلاً طيباً وقد اغتيل غدراً وهو يسير في السوق في ساحة العاصي، كما قتل مدير الشؤون الاجتماعية والعمل أمام منزله وهو من قرية عين التينة في محافظة اللاذقية رحمه الله قتلوا هؤلاء جميعاً دون أي ذنب، وفعلاً في هذه الفترة 1979-1980، انقلب صدام على سورية بعد أن كان الاتفاق بين القطرين أن تكون وحدة اتحادية وفد عراقي في ذلك الوقت بزيارة إلى سورية برئاسة طه ياسين رمضان وكان قائد الجيش الشعبي في العراق وأهداني سجادة وقال لي إن هذه السجادة صنعت في العراق وحدثني عن العراق وأهمية هذا الاتحاد وكان معه وفد اعتقد أنهم ثمانية وزراء، وفي قسم منهم أعضاء قيادة قطرية وقد زارني أحد أعضاء القيادة القطرية وهو من عائلة السامرائي وعند عودتهم إلى العراق بعد أقل من شهر أعدموا هؤلاء الوزراء عدا طه ياسين رمضان فأصبح نائباً لصدام حسين وبهذه الفترة حصل انفجار الباصات في سورية وخاصة الداهية إلى الساحل جرت في هذه الفترة مجزرة مدرسة المدفعية في حلب في الراموسة، وقتل فيها أعداد كبيرة من طلاب الضباط من الساحل وهرب الملازم الأول الذي دبر المجزرة، وبعد هذه المجزرة جرى صراع عنيف بين صدام حسين والفريق حافظ الأسد وطبعاً كان صدام حسين يملك قدرة مالية واستخباراتية ولذلك قام بأعمال شراء الكثير وشجع الإخوان المسلمين الذين أخذوا ينظمون الكثير ويشترونهم بالمال وظهرت بعض المشاكل في مدينة إدلب وحلب وحماه.

في سنة 1981 طلب مني أحمد إسكندر أحمد وزير الإعلام السابق وكان صديقي وتعرفت إليه في القاهرة عندما كان طالباً يدرس في جامعة القاهرة

1968 حين زرت القاهرة مرة لإحياء ذكرى باندونك (مؤتمر باندونك بين عبد الناصر وسوكارنو وتيتو وحصل هذا المؤتمر في أندونيسيا لدول عدم الانحياز وكانت سورية من هذه الدول...) وبعد عشر سنوات شكل وفد لإحياء الذكرى وكنت أنا رئيس الوفد وذهبت إلى القاهرة وتعرفت هناك على أحمد إسكندر أحمد وشاكر الفحام وبعض الطلاب السوريين وعندما عاد أحمد إسكندر إلى سورية لم يجد له وظيفة فوضعتني عندي في الحرس القومي وسلمته مجلة الفتوة ، واستمرت علاقتي به بشكل جيد وكنت عندما أزور حمص أزور جده في حي النزهة في حمص، وعندما أزور الشاعر عبد الكريم الناعم وحين أصبح أحمد إسكندر وزيراً للإعلام قال لي نريد أن نحضر لفيلم وثائقي عن حرب تشرين فأكتب لنا رواية فكتب لي رواية اسمها (نجمة الصبح) وهذه الرواية ترجمت إلى اللغة الروسية وطبعت منها خمسين ألف نسخة في موسكو ، ووزعت في الجيش الروسي وفي المكتبات الروسية وفعلاً أخذ الرواية وقام مذياع اسمه داوود يعقوب فقسمها إلى مسلسلات وأذاعها بحدود الثلاثين حلقة وهي ثلاثون فصلاً في هذه الفترة 1981 جرت بعض المشاكل معي وجلست في المنزل فترة من الزمن ، وكان أخي أحمد قد عاد من موسكو وهو يحمل دكتوراً في العلوم السياسية وأصبح مدرساً في كلية العلوم السياسية في التل وكانت جديدة وعدت مرة إلى العمل ورغم انشغالي في الأدب والرواية زارني من موسكو الفريق بوكو شكن قائد القوى الجوية في الاتحاد السوفيتي وهو بطل الاتحاد السوفيتي أربع مرات في الحرب العالمية الثانية وكان بعد أن تقاعد تسلم الدفاع (الجيش الشعبي) زارني مع وفد وبهذه الفترة كانت قد طبعت رواية التحول الكبير في مركز الدراسات الفلسطينية في بيروت وأرسلوها لي وكانت

(اثنا عشر ألف نسخة)، وقرأت في القيادة القومية قبل توزيعها، وقررت القيادة القومية إتلافها لأنها دعاية للاتحاد السوفيتي وللشيوعية ولكن أغلقت عليها وتركتها في القيادة وكان ثمن النسخة 150 ليرة سورية في هذه الفترة كان يزورني المرشال (بوكرشكن) وهو على الرغم من أنه بطل أربع مرات في الاتحاد السوفيتي فهو متواضع جداً وطيب جداً، وقد أهداني الكثير من العتاد القديم إلى الجيش الشعبي في سورية وخاصة من مخلفات الحرب العالمية الثانية ، وكان يبدو بعض فتور في العلاقات بين الاتحاد السوفيتي.. قال : إذا استقبلته بهذه الحفاوة فكيف سأستقبل بريجنيف وقد ودعته بمثل ما استقبلته، وفي نفس اليوم الذي ودعته فيه غادر الرئيس حافظ الأسد إلى موسكو، في هذه الفترة وزعت الرواية على كل المحافظات السورية، وقدمتها هدية وأذكر قبل أن أوزعها بعدة أيام زارني الكاتب السوري فارس زرزور، وكان فارس زرزور ضابطاً في الجيش ورتبته نقيب وبعد أن أحالوه على التقاعد من الجيش صار كاتباً موهوباً وله روايات عدة جميلة وقد قرأت له أغلب هذه الروايات منها (المذنبون) وحتى تساعده الحكومة السورية عينوه موظفاً في سد الفرات، لكي يكتب رواية عن هذا السد.

قبل أن أكتب رواية (التحول الكبير) قال لي: أريد أن تكتب لي هذه الرواية على الآلة الكاتبة (فقلت له الخط غير واضح سأصوره لك تصويراً ثلاث نسخ وبعد أن قرأتها وأطلعت عليها، خطر ببالي أن أكتب رواية عن السد (حوض الفرات) فقال لي: أنت تريد أن تسرق لي روايتي ، فقلت: يا أستاذ فارس أنا سأكتب رواية ولكن لا أوزعها حتى تقرأها وفعلاً عندما قررت القيادة منع توزيعها استدعيت فارس زرزور وكان يتردد إلى منزلي كثيراً وعندما يصل

لمنزلي يقول: أريد أن آكل السندويش وأخذ معها العصير فناولته الرواية التي كتبتها عن السد (التحول الكبير) وقلت له أقرأها قبل أن أوزعها، فإذا شعرت أنني أخذت منك جملة واحدة هنا في هذه الغرفة، وعاد بعد يومين وقال: إنها لا تشبه روايتي أبداً من قريب ولا من بعيد.. رحم الله فارس زرور كان كاتباً موهوباً بهذه الفترة عين أخي أحمد نائباً لأمين فرع الحزب في حماه وكنّت معاقباً لأسباب معينة، واستدعاني الرئيس في يوم 31 كانون الثاني وقال: أين أحمد فقلت له في منزله، فقال: عليك أن ترسله إلى حماه الآن، وقلت له إن الثلج في كل مكان والطريق مقطوع فقال: انقلوه إلى حماه بناقلة جنود وفعلاً غادر إلى حماه بناقلة جنود تستطيع أن تمشي في الثلج وكان نائباً لأمين الفرع. في 2/شباط/1982 تمردت حماه وفعلاً قامت بعض القوات بالنزول إلى المدينة وإنهاء هذا التمرد، وقاد الإخوان المسلمون هذا التمرد باسمهم واعتقد أن هناك بعض القوات العراقية كانت في المدينة وهم الذين يقاتلون الجيش السوري، وهذا الصراع بيننا وبين العراق كان عملياً في مدينة حماه، وهذا ما أدى إلى الكثير من تدمير بعض البيوت وخاصة في حي البارودية والزنبقه واستمرت هذه المشاكل حوالي أسبوع وكان الريف بكامله مع الثورة ضد هذا التمرد في المدينة، وعندما هرب بعض العراقيين من المدينة انهارت المقاومة بكاملها وأثناء هذه المقاومة لجأ بعض سكان حي الحاضر إلى قرية مريود والقرى المجاورة وقد استقبلهم السكان في مريود وأسكنوهم عندهم حتى انتهت الأزمة في حماه (علماً أن هذه القرية من الطائفة السنية وهذا دليل على أن هذا الشعب يد واحدة وطائفة واحدة هي سورية)، وامتدت بعض ذيول مدينة حماه إلى مدينة إدلب وحلب ولكنها لم تدم طويلاً وعادت المدينة إلى حياتها

الطبيعية كما كانت قبل الأزمة وأعطى السيد الرئيس حافظ الأسد تعليمات بتطوير أبنية المدينة وهكذا بنيت أحياء جديدة في المحافظة وكان هناك مشاريع اقتصادية في المدينة وفي ريف إدلب وحلب وفي هذه الفترة اجتمعت القيادة القطرية وعين ثلاث نواب لرئيس الجمهورية عبد الحليم خدام للسياسة الخارجية ورفعت الأسد للأمن وزهير مشاركة نائب رئيس الجمهورية للثقافة.

وفي عام 1985 عقد المؤتمر القطري وانتخب أعضاء قيادة قطرية ولجنة مركزية وقرأ الأسماء الفريق حافظ الأسد وعندما وصل إلى الرقم 99 في اللجنة المركزية قال وختمه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وسكت، وأحدثت هذه الكلمة همساً بين صفوف من هو فسألوه من هو صاحب الاسم، هذا المسك فقال لهم محمد إبراهيم العلي (أبو الندى).

وفي عام 1986 زرت موسكو لا أدري كم عدد زياراتي لها في تلك السنة وعلى ما أذكر لا أعود إلى وراء قليلاً في عام 1974 زرت بولونيا وكان الوفد يتكون من ثلاث ضباط، اثنين من الجيش الشعبي برتبة ملازم أول أو نقيب والرائد غازي كنعان رئيس مخابرات فرع حمص وكانت زوجتي معي وأيضاً زوجته معه وبعد أسبوع من الزيارة اتصل بي الملحق العسكري لألمانيا الشرقية لك زيارة أو دعوة لألمانيا الشرقية فقلت له أنا في بولونيا قال أعرف ذلك لذلك من بولونيا أذهب إلى ألمانيا وحدد اليوم والتاريخ والساعة، وبعد نهاية زيارتي إلى بولونيا غدرت إلى ألمانيا الشرقية، واستقبلنا في ألمانيا الشرقية وفي كل مدينة حتى في بولونيا تجولت في أكثر من مدينة ، وكان في بولونيا السفير توفيق الجهني عنده القنصل أحمد صقر وعنده سكرتير أول خالد رسلان وللعلم فإن توفيق الجهني كان من الضباط الجيدين وكذلك أحمد صقر وخالد رسلان

وهم من المتقدمين علي في الطليعة الحربية كان توفيق الجهنني مخلصاً للرئيس لذلك عينه سفيراً بعد حرب 1973 سفيراً في بولونيا أما أحمد صقر فمحسوب على محمد عمران فسرّح في 23 شباط وخالد رسلان محسوباً على أمين الحافظ فسرّح في 23 شباط ولكن كيف اجتمع هؤلاء في سفارة بولونيا وعندما أقام السفير لي حفلة عشاء في منزله لم يدعوهما للعشاء وكنت آسف لهذه الحادثة، دعاني خالد رسلان في مطعم لم يدع أيضاً أحمد صقر والسفير ودعاني أحمد صقر إلى المطعم وكذلك لم يدعوا خالد رسلان والسفير إلى العشاء وتضايقت من موقف هؤلاء الثلاثة ومع أن الجميع كانوا بعثيين ومقاتلين واشتركوا في ثورة 8 آذار وبعد نهاية زيارتي من بولونيا ذهبت إلى ألمانيا الشرقية ونزلنا في فندق الحزب الشيوعي الألماني وبقينا هناك حوالي خمسة أيام وزرنا الكثير من المدن وخاصة مدينة (بوتسدام) والاتفاقيات التي جرت بين الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية وأسماء الكراسي التي جلس عليها كل من ستالين وتشرشل ورزوفلت وديغول، وبعد أن أنهينا الزيارة كان لغازي كنعان قريبه في موسكو فدعانا لزيارة موسكو وهناك قمنا بهذه الزيارة إلى مدينة موسكو ، وزرنا مدينة الكنائس قرب موسكو وهناك صور عن زيارتنا لألمانيا في مقبرة الشهداء الروس، وعدنا بعد أربعة أيام إلى سورية، وأذكر في سنة 1979 قمنا بزيارة إلى الاتحاد السوفيتي وكانت ابنتي ندى قد سافرت إلى هناك مع زوجها عبد الرحمن حسن لدراسة الدكتوراه في الرياضيات الفضائية وابنتي درست الطب في جامعة دمشق وهذه الزيارة كانت في الشتاء في الأسبوع الثاني من شهر شباط ووضّعوا لنا برنامج أن نقوم بزيارة جمهورية تتاريا وعاصمتها قازان وكانت درجة الحرارة -30 في قازان وتقع قازان على نهر الفولغا وعندما وصلنا إلى

هذه المدينة واستقبلني في المطار قائد الدفاع المحلي ونائب رئيس الدولة واسمه علي حسن العلي فقال لي : أهلاً ابن العم، وفعلاً كان يتكلم العربية قليلاً، وشرح لي أثناء حفلة العشاء التي أقامها لي مع قائد الدفاع أن المسلمين في تاتاريا وصلوا إلى موسكو قبل 24 سنة من وصول المسيحيين ثم بعد أن احتلوا القرم وكانت خاضعة للقرم للدولة العباسية ومن بعدى ذلك للدولة العثمانية ولم نتقاتل مع أمير موسكو ولكن اقترح علينا أن هناك سهولاً حول الفولغا لرعاية خيولكم فذهبنا إلى هناك وبقي قسم منا هناك إلى الآن وقسم آخر ذهب شرقاً إلى منغوليا، ونحن بالأساس من أحفاد هولوكو الذي حرق الكتب في مدينة بغداد واجتاح بلاد الشام وانقسام الأخوة واختلافنا في فلسطين وهو الذي أتى إلى سهول أوكرانيا في القرم وإلى موسكو وإلى تاتاريا، وبعد نهاية العشاء ودعنا وفي اليوم الثاني زرنا جامع قازان وكان جامعاً متواضعاً واستقبلنا شيخ الجامع وكان شاباً ولكن كان يتكلم العربية بصعوبة وفي اليوم الثالث وضع لنا برنامجاً وعبرنا الفولغا بثلاث سيارات وكان متجمداً ولفت انتباهي أن هناك الزحافات التي تجرها الكلاب في وسط النهر ويركب على الزحافة أكثر من عشر أشخاص ، ووصلنا إلى قرية شرق الفولغا ، وهناك زرنا خوزات وسوفخوزات ومحطة أبقا ومزارع دجاج وكان المسؤول عنها رجلاً اسمه إسماعيل وبعد زيارة هؤلاء علمنا أن في هذه القرية ولد لينين وأخذونا لقبر والدته لينين وبعد أن نظرت في وجوه السكان وكان أكثر من 60% تاتار وحوالي الثلث روس والباقي يهود وكانت العائلة التي تحرس قبر والدته لينين تتكلم اللغة العربية المكسرة وفي سنة عام 1985 زارني في دمشق رئيس جمعية الصداقة الروسية السوفيتية (بسكوخوف) وفعلاً اهتمت بزيارته وقال لي ستترجم لك

رواية (نجمة الصباح)، وندعوك لزيارة موسكو في عام 1985 وفعلاً زارني في منزلي في منطقة الروضة، وتناول في منزلي الغداء ورافقته (أوليف فامين) من جمعية الصداقة وأوليف فامين كان في سورية ملحقاً ثقافياً في البداية كان مدير مركز الثقافي الروسي في دمشق ولاحقاً أصبح مدير المركز الثقافي في دمشق ، وفي هذه الفترة عين سفيراً للاتحاد السوفيتي هو (دازاخوف)، ودازاخوف من جمهورية آستيا الشمالية من جمهوريات روسيا الاتحادية، وفعلاً كان رجلاً طيباً ومثقفاً وبهذه الفترة 1985 دعينا لزيارة موسكو لإحياء الذكرى الأربعين ضد النازية وانتصار الحلفاء على ألمانيا وفعلاً وكان الوفد كبيراً من اتحاد العمال واتحاد الفلاحين واتحاد الطلبة والاتحاد النسائي ووفد من العسكريين وكان معنا وزير الإدارة المحلية محمد حربا وعضو القيادة القطرية أحمد درغام ورئيس الحزب الشيوعي خالد بكداش وتجمعت هذه الوفود بطائرة في مطار دمشق الدولي وكانت هذه الطائرة خاصة وتحمل حوالي 90 راكب، وكانت هذه الطائرة خاصة بالرئيس وعلى هذه الطائرة العماد مصطفى طلاس رئيس الوفد العسكري وكان وفد قيادة الجيش الشعبي وفيه بسام العسلي وهو ضابط في الجيش وهو كان ضابط مظلي في القاهرة ومن الضباط الانفصاليين ولكن كانت أخلاقه عالية وثقافته مميزة ويتكلم الفرنسية بطلاقة وكنت أكن له كل المودة والاحترام من القاهرة، فأخذته معي وكانت أم الندى أيضاً معي لأن ابنتي ندى كانت تدرس في كلية الطب ولم أذهب مع هؤلاء في الطائرة فذهبت أنا وبسام وأم الندى على الطائرة الروسية وحضرنا الاحتفال وخطاب غورباتشوف، وفي اليوم الثاني حضرنا العرض العسكري وفي نهاية العرض حضر لمنزلي مذيع إذاعة وتلفزيون موسكو وقال نريد أن نأخذ منك حديثاً غداً في الساعة الرابعة

بعد الظهر سآتي إلى منزلك وآخذك إلى الاستديو في التلفزيون وفعلاً أخذت معي صهري عبد الرحمن وكان يتقن اللغة الروسية وقلت له: ترجم لي، وكانت البروسترويك (بعض التغيرات في الحزب الشيوعي) فقال لي الآن بروسترويك تستطيع أن تتكلم على الهواء إحدى عشر دقيقة وعبد الرحمن يترجم لك، سؤالاً واحداً : ما رأيك بخطاب الأمين العام للحزب الشيوعي غورباتشوف وأنت سمعته جيداً؟

قبل أن يبدأ البث على الهواء، أنا الحقيقة كانت السماع على أذني أثناء خطاب غورباتشوف ولا أعلم إذا كانت الترجمة دقيقة (صحيحة أو خاطئة) وفهمت من الخطاب إذا لم نستطع أن نسيطر على القومية في الاتحاد السوفييتي لا نستطيع أن نسيطر على الاشتراكية وإذا لم نستطيع السيطرة على النظام الشيوعي والاقتصاد لن نستطع أن نسيطر على القوميات في دول الاتحاد السوفييتي في الحقيقة شعرت أن هذه البروسترويك حدث فيه خلل ما، فعندما قال تفضل أبدأ بالكلام.. قلت أنا أحمل كل التقدير والاحترام لشعوب الاتحاد السوفييتي ولكن كون السؤال أخرجني وقد أكون مخطئاً بما سمعت من الترجمة كان الله بعون شعوب الاتحاد السوفييتي فإذا لم ينتصروا في القومية لن ينتصروا في الاشتراكية فقطع الإرسال بعد ثلاث دقائق من هذا الكلام الذي انتشر في كل أنحاء العالم، وكان قد ترجم عبد الرحمن ما أقول، فقال لي: ماذا قلت، فقلت له: أنت قلت بروسترويك وتحدث كما تشاء وظننت أنك ستمدح غورباتشوف وانتهت المقابلة هنا، وفعلاً أخذت مدير الإذاعة وعبد الرحمن أخذ مدير التلفزيون وأنا إلى منزله وتعشنا في بيت عبد الرحمن أنا والرائد بسام العسلي وأم الندى وكان نقاشاً بشكل ودي وهذا

المذيع فيما بعد اشترك في تدقيق ترجمة رواية التحول الكبير عندما ترجمت إلى الروسية.

في عام 1987 دعاني سفير الاتحاد السوفيتي في سورية (دازاخوف) في الساعة الحادية عشر إلى السفارة وشدد على الدعوة وفعلاً ذهبت إلى السفارة وفوجئت بأن وزيرة الثقافة السيدة الدكتورة نجاح العطار قد سبقتني وحولها عدد من المدعويين من جهاز السفارة والمركز الثقافي الروسي وقلدونا أنا والدكتورة نجاح العطار وسام صداقة الشعوب بمرسوم صادر عن مجلس السوفييت الأعلى بتوقيع غروميكو رئيس مجلس الدولة ونائبه ويحق لهذا الشخص الذي يحمل هذا المرسوم الجنسية الروسية وفي هذه السنة من شهر آب دعيت إلى زيارة كوريا الديمقراطية وكنت قد زرت كوريا مرتين ولكن في هذه المرة كانت الدعوة لإحياء الذكرى السبعين لميلاد الزعيم العظيم كيم إيل سونغ ثم غادرنا عن طريق موسكو وفي الطائرة الروسية الذهابية إلى بيونغ يانغ عاصمة كوريا الشمالية كان وفد كوبي برئاسة شقيق كاسترو راؤول ، وبعد وصولنا وضعوا لنا برنامجاً، وأول يوم ذهبنا للعرض وعندما صعدت إلى الشرفة الأعلى الموجود فيها الزعيم كيم إيل سونغ نهض الزعيم واستقبلني وضممني وأجلسني بجانب حيدر علييف عضو المكتب السياسي لمجلس السوفييت الأعلى، وتناولت طعام الغداء وزوجتي في الشرفة واستمر العرض والمهرجانات من الساعة الحادية عشر حتى الرابعة بعد الظهر وفي اليوم الثاني أيضاً سألتني كيم إل سونغ عن صحة الرئيس حافظ الأسد ووضعا لنا برنامجاً طويلاً وقبل العودة بيوم استقبلني الزعيم مع زوجتي والوفد في قصره حوالي ثلاث ساعات ثم عدنا إلى دمشق عن طريق موسكو وكنت نشيطاً في هذه الفترة في مختلف المجالات.

وقد كتبت روايات عدة وفي عام 1988 قمت بزيارة للاتحاد السوفييتي وزرت طاشقند وأوزبكستان وسمرقند وبخارى وكان نور الدين محيي الدينوف الذي استقبلني بحرارة وزرت المتحف وفتح لي القاعة التي فيها مصحف عثمان الذي كتب على جلد الغزال قبل التنقيط والشكل وفعلاً تصفحته ولكني لم أقرأ إلا السور القصيرة ثم زرت معهد الاستشراق وزرت في سمرقند مرقد مسلم راوي الحديث الشريف وكذلك زرت بخارى وزرت مرقد الإمام إسماعيل وكذلك زرت في سمرقند مرقد أبي القاسم العباسي وتيمورلنك وحضرت مسرحية في سمرقند.

وبعد ذلك ، وفي عام 1989 دعيت لحضور المؤتمر الشعبي في تشيكوسلوفاكيا وفعلاً ذهبت أنا وزوجتي إلى هناك وحضرت هذا لمدة المؤتمر ثلاث أيام، ولكن من خلال الترجمة التي سمعتها في هذا المؤتمر كنت حزينا وقد دعانا رئيس الحزب الشيوعي (ياكيش) نحن الأجانب وكنا نحن المدعوين من كل حلف وارسو ومنغوليا وكوبا ودعا فقط رؤساء الوفود الأجانب وجرت العادة عندما يتكلم رئيس الاتحاد السوفييتي الجميع يوافقون على ما قاله، وبعد أن تكلم مندوب الاتحاد السوفييتي في هذا المؤتمر وأيدنا جميعاً كلامه بمدح تشيكوسلوفاكيا ومدح ياكيش وأن المؤتمر جيد التفت نحوي وقال: أنا أريد أن تحدثني عما سمعت وأنت معروف بجراتك وصراحتك وقلت له من دون بروتوكولات ، قال: نعم، قلت له: إذا كان ما سمعته صحيحاً عليك أن تلبس وتغادر إلى النمسا وفوجئ الجميع بهذا الكلام، وقال: هذا رأيك، قلت: هذا رأيي.

وأحدثت هذه الكلمة ضجة بين صفوف مندوبي دول الاتحاد الاشتراكي وخاصة مندوب ألمانيا الاشتراكية، وعدنا إلى المؤتمر فبعد الجلسة شاهدني مندوب ألمانيا الديمقراطية وأصر على أن أزور ألمانيا الديمقراطية، وفعلاً وبعد نهاية المؤتمر وضع لنا برنامجاً لزيارة القرى وقابلت رئيس أركان تشيكوسلوفاكيا كما زرت الشاعر التشيكي (الذي أصبح رئيس تشيكوسلوفاكيا بعد ياكيش مباشرة) وكان شاعراً وهو يهودي، وصلت إلى برلين وكانت ترافقني زوجتي وهناك كان مترجمي من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية الدكتور حسين عمران الذي يدرس في جامعة لايبزك، اختصاص في اللغة الألمانية ويتقنها بشكل ممتاز ووضعو لنا برنامج اليوم الأول حضرت إنزال كتية مظلات ثم زرت لايبزك وكنت قد أهداني أحد أساتذة الجامعة القرآن الكريم مترجم من اللغة العربية إلى الألمانية، وكان نقاشاً عنيفاً حول بعض أخطاء في الترجمة واستغرق الاجتماع أكثر من ثلاث ساعات وكانت زوجتي وأحد الضباط في السوق وبعد المحاضرة قلت لقائد الدفاع وقادة الدفاع الشعبي في أقل من عام سينهار جدار برلين أرجو أن ترسل إلى حجراً هدية من هذا الجدار كانت هذه الكلمة كالصاعقة في القاعة فقد تغير البرنامج فوراً وعدت إلى برلين وفي طريق العودة حضرت سباقاً للخيل وتناولت طعام الغداء في نادي الخيول وبعدها عدنا إلى برلين وفي المساء غير البرنامج وطلبني رئيس الأركان وقال لي أنت تكلمت عن انهيار جدار برلين المحاصرة فتأثر كل من سمع الكلام وكان المترجم د. حسين عمران فقلت له: إن غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفيتي باع ألمانيا الشرقية لألمانيا الغربية وقبض ثمنها، فقال: هل أنت متأكد، هل إذا سمعت المخابرات السوفيتية ترضى، قلت له: خبر أنت المخابرات السوفيتية أن محمد إبراهيم

العلي تحدث وقال إن جدار برلين سينهار في أقل من عام، وفعلاً بعد المقابلة مع رئيس الأركان استقبلني وزير الخارجية وقال لي: أنت قلت أن الحرب العراقية الإيرانية ستوقف قريباً ولم تقل في أي يوم، وقد توقفت الحرب العراقية الإيرانية فعلاً، وأنا صديقك عندما كنت في سورية لماذا لم تخبرني أن الحرب ستوقف اليوم.

وفعلاً تغير برنامجي وكان أكثر جدية ورافقني بعد يومين وزير الشباب زنا بعض البحيرات والمعسكرات وعدت بعد خمسة أيام إلى دمشق وقد شعرت أن وضعي الصحي متعب وخاصة قبل يوم من عودتي، أجروا لي في ألمانيا فحصاً طبياً وأطمأنوني على صحتي أنها جيدة ، وفي عام 1990 أتنني دعوة لزيارة الاتحاد السوفيتي وأم الندي كانت سعيدة بزيارتها (لأوزباكستان) فطلبت أن تكون الزيارة (لأذربيجان) وفعلاً في اليوم الثاني من الزيارة حضرنا مهرجان للقوى الجوية في موسكو وبعد المهرجان وضعوا طائرة تحت تصرفي مروحية بمحركين واعتقد أنها من طراز اليوشن (14). وفيها سرير للنوم ومقعدين من الخلف وست مقاعد وراء طاقم الطائرة وطاقم الطائرة ثلاث ومعهم مرافقان وأقلعت بنا الطائرة صباحاً ووصلت غروزني قبل الظهر بقليل وتناولت طعام الغداء في غروزني بدعوة من قائد الدفاع في غروزني ولكن أنا أحب الاستطلاع دائماً وكنت قائداً لكتيبة الاستطلاع في سورية فأخذني قائد الدفاع بسيارته وهو سفير يتكلم قليلاً اللغة العربية وزرت مدينة غروزني عاصمة الشيشان وتذكرت قريتي في الغاب وكان هناك جدول ماء صغير في المدينة ويوجد فيها جواميس والأبقار ترعى في حدائق المدينة وهذه المنازل التي يسكنها الناس وهي من التوتياء ذات طبيعة لم أشاهد إلا قصر الحاكم وعدداً من المباني يسكنها

العمال الروس ثم عدت إلى المطار وغادرنا إلى مدينة باكو ورافقنا في هذه الرحلة قائد الدفاع في الشيشان، وذهب معنا إلى باكو وتناول معنا العشاء وعاد إلى الشيشان وفي اليوم الثاني كان هناك برنامج للمدنيين وزرنا بعض المصانع وبعض محطات النفط (آبار النفط) وزرنا بعض القرى على حدود بحر قزوين وفي المساء عدنا إلى باكو.

وفي اليوم الثاني حصل الانقلاب في الاتحاد السوفيتي ، أما الأذربيجان فقد كان الفرع يعم المدينة لأنهم استقلوا عن الاتحاد السوفيتي ، وانتهى الاستعمار الروسي والحقيقة كان الفرع يعم كل الشعب وكان العشاء يحضره قائد الدفاع المحلي في باكو وكان كلما رفع القدر وهو قدح من الفودكا يصيح بأعلى صوته (ولغتهم مزيج من اللغة التركية والفارسية) ولكن حفظت جملة واحدة عندما كان يرفع الكأس في يده وقوفاً يصيح (جان جان فلجان.. تعيش أذربيجان) والحقيقة كان المرافقون معي ضباطاً روساً فقال لعبد الرحمن من الممكن لهؤلاء الأذربيجانيين أن يقتلونا ولكن الحقيقة نحن في الفندق ولا يمكن أن يهجموا على الفندق ويقتلونا ، وفي صباح اليوم الثاني غادرنا باكو إلى محافظة في الجنوب قريبة من الحدود التركية ونزلنا في فيلا خاصة لرجل اسمه علي وكان علي يملك فيلا كبيرة وأراضي زراعية تحيط بها وهو علي علاقة صداقة مع صهري عبد الرحمن ويومها نمنا في الفيلا وأقام لنا عشاء علي الطريقة الشامية ولكن زاد في الكرم فالخواريف على المناسف والعسل وحوالي مئة دجاجة مسلوقة ووسكي على هذه الطاولة وفودكا وبيرة ودعا محافظين اثنين من غير محافظة وفعلاً كان عشاءً مدهشاً وعلي لا يتعدى عمره الأربعين وصحته جيدة وبعد العشاء صعدت أم الندى إلى غرفة النوم، وبقينا جميعاً نتناول العشاء

وتحدث، وأنت الخدمات (من قرية مجاورة للفيلا) وعزم الكثير من الفلاحين والفلاحات وسكر الجميع احتفالاً باستقلال أذربيجان عن الاتحاد السوفيتي وفي اليوم التالي عدنا إلى باكو وفي صباح اليوم الثاني غادرنا باكو على الطائرة الخاصة الموضوعية تحت تصرفي وكان في البرنامج أن نتوقف في ستالين غراد ولكن المطارات أغلقت في هذا اليوم وأصبحنا قرب ستالين غراد والوقود كاد ينفد من الطائرة فقال لي الطيار: أجلس بجانب المطار في ستالين غراد مغلق سأهبط في مطار ترابي شرقي ستالين غراد حوالي 40 كم هل تخاف من الطائرة، قلت له أنا مظلي وقل للأشخاص التي ترافقني أن يربطوا الأحزمة وفعلاً هبطنا في مطار ترابي وتوقفت الطائرة بعد انتهاء الوقود، واستقبلنا مدير المطار واستغرب كيف هبطت هذه الطائرة ولماذا هبطت وكان برتبة عقيد اسمه إسكندر مسلم وعرف أننا وفد من دمشق فرحب بنا وأعطى أمراً للقاعدة أن يجهزوا لنا الغذاء وفعلاً حضر صهرج من الوقود وملئ بها الطائرة ثم نزلنا إلى القاعدة ولكن لا يوجد بها مهبط وقال: لو كنت أملك طائرة سوخوي وتصل إلى موسكو لكنت أقلعت بالطائرة إلى موسكو وقصفتها فهمت منه أنه في هذا المكان منذ عشرين عاماً وعندما تناولنا الطعام كانت الطباخات وكانت إحداهن تبكي عندما سلمت على أم الندى وقالت هذه المرة الأولى في حياتي أن أشاهد امرأة أجنبية وأنتم من الشام فأصبحت تتبارك بنا لأننا من شام شريف وفعلاً كان معنا بعض الهدايا لندی والأولاد وقدمت أم الندى لها جميع الهدايا وبعد الغذاء عدنا إلى موسكو رغم أن المطار مغلق نزلنا في مهبط جانبي وعدت إلى الفندق الأحمر في موسكو وكانت الدبابة التي قصفت البيت الأبيض وهو مركز الدوما البرلمان تقف على جسر نهر موسكو ونزلت أم الندى

في منزل ابنها وذهبت أنا إلى الفندق الأحمر والوفد الذي يرافقني ، وزارني مساءً عضو المكتب السياسي (دازاخوف) الذي كان سفيراً في سورية سابقاً وشرح لي عن هذه الأزمة وكيف حل الحزب الشيوعي ، ولماذا حل وشرح لي عن غورباتشوف قليلاً، وقال إن غورباتشوف شعر أنه يحاك ضده مؤامرة وأعطى أمراً بحل الحزب الشعبي كونه أميناً عاماً للحزب الشيوعي وخلافه مع يلتسين وبقي عندي أكثر من ساعتين يشرح لي عن هذا الموضوع، ثم غادرني وأتذكر هذه اللحظة وكنت جالساً في الصالون في صدر الفندق وهناك في الصدر تمثال لينين من الرخام الأبيض على قاعدة خشبية حوالي متر ونصف ودخل ثلاث عمال ومعهم جبل أرادوا أن يخلعوا هذا التمثال ولكن لم يستطيعوا خلعه فقامت أنا إليهم وبقي مترجم روسي وقلت ما رأيكم أن أشتري هذا التمثال وأنا لست شيوعياً ولا روسياً فدعوه بدون أن تكسروه وإذا رغبتهم سأعطيكم ثمنه فوراً فنظروا في وجهي وغادروا الصالة وفي الصباح الباكر في اليوم الثاني نزلت إلى تناول طعام الفطور لم أجد التمثال في الصالون وفعلاً ذهبت إلى البيت ابنتي ندى وكان حفيدي عمره حوالي تسع سنوات فذهبت معه إلى الدبابة التي تقف على جسر موسكو وآثار الطلقة ناشدها على مبنى الدوما فوقفنا على الدبابة وأخذنا صوراً وتذكرت عندما قامت ثورة لينين وكتائب (عشرة أيام هزت العالم)، الذي كتب عن ثورة لينين 1917 ، خطر في ذهني أن أكتب 24 ساعة قلبت العالم وأنا أذكر أن هناك رئيس الأركان السابق وهو متقاعد انتحر وعاد الوفد المرافق معي وبقيت في موسكو أسبوعاً بعد ذلك لأراقب كيف تدور الأحداث.

أعود إلى 1987 مرة ثانية يبدو أن الرئيس حافظ الأسد سمع بأن هناك اتصالات بين عناصر من قيادة الاتحاد السوفيتي والإسرائيليين من أجل السلام ولكن لم يعرف الرئيس من هم هؤلاء والسفير السوري لم يعرف من هم فكلفني الرئيس أن أذهب بمفردتي إلى موسكو واستطلع هذا الأمر بهدوء وفعلاً سافرت إلى موسكو وكان نائب رئيس وزراء روسيا الاتحادية أحمدوف أعرفه جيداً كما كان لي علاقة مع بريماكوف الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء روسيا الاتحادية أيام رئاسة بوتين الأولى وبريماكوف صديقي.. تناول الغداء في منزلي مرتين هو والوفد المرافق له فقال أنت تزور موسكو لتعرف من هو الوفد الإسرائيلي الذي اجتمع معه وبعد وصولي إلى موسكو وكان معي عبد الرحمن زرت السفير السوري في السفارة فقلت له سأزور نائب رئيس روسيا الاتحادية فاستغرب مني هذا الكلام يجب أن تخبر القيادة في دمشق ووزارة الخارجية وهذا يحتاج لوقت فاستغربت منه هذا الكلام وكان معي تلفون أحمدوف المباشر وصمت قليلاً وأنا أتناول القهوة ثم قلت له يمكن أن استخدم التلفون فأخذت التلفون وتكلمت معه وقال : أنت في موسكو، قلت : نعم، قال: أما سمعت كما يقول المثل العربي يدك في الكتاب ورجلك في الركاب، فقلت للسفير: تعال معي.. قال : مع من تحدثت، قلت : مع أحمدوف، فقال لي: هكذا تتصرف بدون مواعيد رسمية، فقلت له: هكذا أنا، ورفض أن يذهب معي فذهبت أنا وبعد الرحمن وكان أحمدوف ينتظرنا على الباب وجلسنا على الطاولة وكعادة الروس ليتر الفودكا موضوع الطاولة، وقليلاً من الضيافة وأعتقد قدمت هدية مواضعة ربطة عنق وقلم حبر واستغرق الحديث معه حوالي الساعة وتحدثنا عن زلزال أرمينيا وقال لي أنا كنت مسؤول لمساعدة أرمينيا من هذا الزلزال الذي وقع

الآن وقال أنا المسؤول عن مساعدة أرمينيا ومساعدة الناس الذين تضرروا من الزلزال الذي وقع، قلت له: أم تقرأ سورة الزلزال في القرآن قال: هل هناك سورة في القرآن عن الزلزال ، قلت له : نعم، وقرأت له هذه السورة.. (بسم الله الرحمن الرحيم.. إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها.. يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها.. يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.. صدق الله العظيم)، فقال هكذا حدث في أرمينيا ، وبعد قليل طلبت أن أتلفن إلى بريماغوف وكان مدير المعهد القانوني في الاتحاد السوفيتي فقال لي بريماكوف: أنا أنتظرك وبريماغوف كان يتحدث اللغة العربية قليلاً وذهبت أنا وعبد الرحمن إلى بريماكوف وفوجئ بريماغوف أنني وحيد في موسكو من دون وفد وقال: ماذا تعمل هنا.. قلت: أتيت لزيارة ندى أولاً ورغبت أن أتصل بالمترجمين الذين ترجموا رواياتي قال: وثالثاً: قلت له: أنا أرغب بزيارة أصدقائي الروس في موسكو وخاصة بأصدقاء الأعمام، بريماكوف وأحمدوف وعدد غير قليل من الكتاب، وقال كل هذا قد يكون صحيحاً ولكن في زيارتك سراً سأعرفه كان بريماكوف كان رجلاً ذكياً، أمه يهودية وهو معروف وثقة من القيادة السوفيتية وهو من جذور أرمينية ولد في أرمينيا ويعرف اللغة العربية قليلاً (وللعلم أن أغلب اليهود في الاتحاد السوفيتي يعرفون العربية ومنهم من يتكلمها بطلاقة وباللغة الفصحى ويدرسونها في الجامعات وكثير منهم درسوا الطلاب العرب في جامعة موسكو باللغة العربية) فقال لي كل ما قلت عن زيارتك دقيق ولكن هناك شيئاً معيناً تبحث عنه فقلت له: أنا أتيت أبحث عن موضوع يهمني جداً، أن الاتحاد السوفيتي قام باتصالات سرية من أجل السلام

بين سورية وإسرائيل أريد أن أعرف من هذا الرجل الذي اجتمع مع الإسرائيليين في جنيف فقال لي: لا أريد أن تتعذب أنا الذي اجتمعت مع الإسرائيليين في جنيف ونريد أن نقيم سلاماً بينكم وبين إسرائيل ، ألا تريدون أن يعود الجولان إليكم، قلت: نعم! ولم أناقشه طويلاً، كنت أريد أن أعرف الشخص فقط! كان أندريوف رئيس مجلس السوفييت الأعلى بعد بريجيف قد أصدر أمراً بمكافحة الصهيونية على مستويات كثيرة من المدن، فأين وضع هذا الأمر الآن. ورد مازحاً لقد وضعناه في الثلاجة، وعندما يتجمد كثيراً نضع هذا الأمر في شهر كانون الثاني أو شباط على نهر الفولغا وأخذ يضحك، والحقيقة بقيت عنده أكثر من ساعة ونصف وقال عندما تزور موسكو عليك أن تزورني وسأزور سورية في الأيام المقبلة وقال لي سأغذى عندك في البيت وسلم لي على زوجتك، وودعته وعدت في اليوم الثاني على أول طائرة إلى دمشق وأعلمت الرئيس بذلك.



الفصل الخامس

محاضرات

اضطرتني ظروف عملي إلى أن أمارس دوراً لم أسع إليه يوماً، وهو أن أكون محاضراً في موضوعات فكرية وسياسية على غاية من الأهمية، وهي ذات صلة جوهرية بالواقع العربي من أجل إيجاد الحلول للنهوض بالحال العربية وعلى مختلف الصعد، السياسية، والفكرية، والاقتصادية، والتربوية، والاجتماعية، والعسكرية ولاسيما أن مخاطر العدو الصهيوني باتت كبيرة جداً، وأن أطماعه ما عادت مقصورة على احتلال فلسطين. وهناك أيضاً التشويش الذي شاب بعض المفاهيم والمصطلحات، وتوقي للحديث بصراحة عن القضايا العربية المهمة. وهنا، وفي هذه الصفحات الآتية نماذج من المحاضرات التي ألقيتها في عقد الثمانينيات من القرن العشرين.

المحاضرة الأولى

آفاق تطور حركة التحرر الوطني العربية

1988

اضطرتني ظروف عملي أن أمارس دوراً لم أسع إليه يوماً، وهو أن أكون محاضراً في موضوعات فكرية وسياسية على غاية من الأهمية، وهي ذات صلة جوهرية بالواقع العربي من أجل إيجاد الحلول للنهوض بالحال العربية وعلى مختلف الصعد، السياسية، والفكرية، والاقتصادية، والتربوية، والاجتماعية، والعسكرية ولا سيما أن مخاطر العدو الصهيوني باتت كبيرة جداً، وأن أطماعه ما عادت مقصورة على احتلال فلسطين، وهناك أيضاً التشويش الذي شاب بعض المفاهيم والمصطلحات، وتوقي الحديث بصراحة عن القضايا العربية المهمة. هنا، وفي الصفحات الآتية نماذج من المحاضرات التي ألقيتها في عقد الثمانينيات من القرن العشرين.

أيها السيدات والسادة..

ثمة موضوع يحظى في السنوات الأخيرة بقسط كبير من الاهتمام في الأوساط الثورية والوطنية العربية هو موضوع تاريخ وآفاق الصراع بين حركة التحرر الوطني العربية وبين أعدائها من صهاينة وإمبرياليين وأعوانهم الرجعيين. ويكتسب هذا الموضوع أهمية فائقة في أيامنا هذه لدى فئات واسعة من جماهير أمتنا العربية الكادحة تحت ضغط ضرورة ملحة تفرضها الحياة وهي ضرورة البحث عن السبيل الذي يعجل في خلاص هذه الجماهير من القيود التي يفرضها واقع الاحتلال والعدوان، وواقع التسلط الذي تمارسه الأنظمة العربية الرجعية، فيحد من تطلعاتها ومن قدرتها على التحرك لمواجهة الهجوم الإمبريالي الصهيوني على منطقتنا وأمتنا.

ويسرني هنا أن أتحدث إليكم عن هذا الموضوع، كما يسرني أن يجد الصديق البروفيسور أحمد اسكندروف جانباً من الإجابة عن سؤال طرحه علي في أثناء لقائنا مؤخراً في دمشق عن مستقبل الاشتراكية في وطننا العربي. أيها الأصدقاء..

لأشك في أن الحديث عن موضوع شامل ومتشابه كهذا الموضوع يحتاج إلى وضع الصورة في سياقها التاريخي والموضوعي، لذلك لا بد لنا من العودة إلى الوراء قليلاً لنضع أيدينا على معطيات أوفر تسمح لنا باستخلاص نتائج وتصورات مستقبلية أكثر دقة، لاسيما أن هذا الموضوع بتفرعاته وقضاياها ما يزال محط بحث وجدل تسهم فيه سائر الأحزاب والقوى والتنظيمات السياسية الثورية في وطننا العربي في إطار التلازم والتحالف بين جميع هذه الأحزاب والقوى التقدمية داخل سياق حركة التحرر الوطني العربية الراهنة، بهدف كشف

هموم هذه الحركة وما تعانیه من نقاط ضعف أظهرها العدوان الإسرائيلي - الأطلسي على لبنان عام 1982، وتأهيلها بالتالي للنهوض وتخطي النواقص لتلعب دورها التاريخي المطلوب منها اليوم في المواجهة والتغيير.

تعلمون أيها الأصدقاء أن وطننا العربي كان منذ قرن تقريباً مسرحاً للثورات والحروب والتحولات الاجتماعية والسياسية العميقة، وداخل هذه التقلبات العاصفة، تشكلت ونمت حركة التحرر الوطني العربية وتعمقت أساليب نضالها وتنوعت بتنوع الظروف والمراحل التاريخية التي مرت بها، واستطاعت أن تتحول بخبراتها الطويلة إلى جزء لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني العالمية، وجزءاً هاماً من العملية الثورية التي تلمح عصرنا هذا الذي يتسم بالتحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية، بيد أن أهميتها البالغة تأتي في أيامنا هذه من بروز دورها في العملية الثورية الراهنة العالمية، ومن شدة الهجوم والتكالب الإمبريالي على منطقتنا العربية ليس بهدف الاستغلال ونهب الثروات فحسب، إنما بهدف تحويلها إلى منطقة حيوية في إطار الاستراتيجية العسكرية الأطلسية داخل السعار المحموم الذي تقوده الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية نحو تهديد السلام العالمي، والتحضير لحرب نووية عالمية مدمرة.

لقد نشأت حركة التحرر الوطني العربية أساساً من التناقض الحاد والتناحري مع الكولونيالية التركية وظهرت في أساسها مشبعة بمشاعر التحرر والوحدة، وإن اتسمت أهدافها في البدء، وفي ظل تقوض الإمبراطورية التركية في أوائل هذا القرن، بالتواضع والغموض للذين اتسمت بهما قيادة الحركة في ذلك الحين والمكونة من إقطاعيين وبرجوازيين ومثقفين وضباط جيش.

لكن مقاطعة الحركة للاستبداد التركي أخذت تشتد مع الزمن واتخذت طابعاً قومياً برجوازيّاً ديمقراطياً تحت تأثير عدة عوامل منها الثورة الروسية عام 1905 والثورة التركية عام 1908 ثم ارتدادها وظهورها على أنها أكثر شوفينية من السلاطين السابقين عندما قامت بإعدامات جماعية في عدة بلدان عربية، ولاشك في أن الاحتكاك بالغرب ساهم في تطوير الوعي القومي والإحساس بالذات وكان عاملاً مؤثراً من عوامل النهضة العربية دفع قادتها إلى أن يروا في الحياة الأوروبية البرجوازية مثلاً ونموذجاً للخلاص والتحضر.

وتحت تأثير الحرب العالمية الأولى وويلاتها، وافتتاح المعاهدات السرية بين الدول الأوروبية الإمبريالية لاقتسام تركة الرجل المريض، التي تم الإعلان عنها من قبل حكومة لينين العظيم بعد ثورة أكتوبر مباشرة ومع بداية الاحتلال الغربي لأجزاء عديدة من وطننا العربي، تحولت المعركة الوطنية في البلدان العربية إلى حركة جماهيرية واسعة تسعى بالكفاح المسلح للتحرر الوطني والاستقلال.

من هنا كانت ثورة 1919 في مصر ضد الاحتلال البريطاني، وكذلك ثورة 1920 في العراق، وثورة المغرب ضد الاستعمار الإسباني، والثورة السورية التي بدأت عام 1919 ضد الاحتلال الفرنسي، بالإضافة إلى انتفاضات عديدة ومتلاحقة في مختلف البلدان العربية التي لم تؤد بالطبع إلى التحرر من الاحتلال نتيجة لضعف القيادات السياسية العربية التي بقي أكثرها بأيدي الطبقات المالكة التي واءمها الاحتلال فتعاونت معه، وكذلك لم تكن لثورة أكتوبر الوليدة والمستهدفة من قوى الإمبريالية العالمية في بدايتها، القدرة على مساعدة الشعوب من أجل تحريرها ومد يد العون لها، وإن كانت أفكارها قد

شعت وكان لها أثر بالغ في إيقاظ وعي العرب السياسي إزاء أخطار العدو الجديد على بلادهم وحريتهم. وكانت البداية في الفهم العميق الذي ساد أوساط الثوريين حينذاك أن قيام الدولة السوفيتية المعادية للاستعمار وكل أشكال الاستغلال والنهب الدوليين، ستكون نصيرة جميع الشعوب المناضلة في سبيل تحريرها وخلاصها، وإذا كانت هذه الانتصارات التي تحققت أبان الاحتلال الغربي لم تؤد إلى التحرر من الاحتلال إلا أنها ارتبطت بتحولات جذرية مهمة في الأوضاع الطبقية داخل البلدان العربية وكشفت عن القوة الكامنة لدى الجماهير العربية وتزايد استعدادها للمعارك القادمة، وقد رافق ذلك ظهور حركة الطبقة العاملة العربية وانضمامها إلى جانب البرجوازية الوطنية في قيادة حركة التحرر الوطني، التي تحول تحالفها معها إلى قوة كبرى بارزة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية مرحلة جديدة من الكفاح التحرري الوطني، داخل ظروف وموازين جديدة طبقية محلية ودولية عامة، أهمها الانتصار الكبير الذي حققه الاتحاد السوفيتي على الفاشية وظهور المعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي كقوة مؤثرة كبرى على مجرى التحولات الثورية في العالم ومناهضة الإمبريالية، وفي ظل هذه المستجدات خاضت حركة التحرر الوطني العربية بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة وبمساندة القوى الثورية العالمية، كبرى معاركها من أجل الاستقلال والتحرر من التبعية. فقد حققت سورية ولبنان استقلالهما ببطولات وتضحيات أبناء الشعب وتحقق جلاء القوات عن أراضيها عام 1946 بمساندة الاتحاد السوفيتي الفعالة، وحققت مصر استقلالها في ثورة تموز عام 1952 بقيادة البرجوازية الصغيرة الراديكالية ولاسيما في القوات المسلحة، وحقق العراق استقلاله في ثورة تموز عام 1958

كما حققت الجزائر عام 1962 استقلالها بتحالف جميع القوى في جبهة التحرير الجزائرية وجيشها عبر نضال دام ثماني سنوات ضد الاحتلال الفرنسي قدم خلالها شعب الجزائر قرابة المليون شهيد.

وبروز دور الطبقة العاملة والفلاحين وانتصار الأفكار الاشتراكية ارتبطت مفاهيم التحرر الوطني بمفاهيم التحرر الاجتماعي، وصاغت حركة التحرر الوطني العربية في معظم البلدان العربية أهداف الاستقلال والسيادة الوطنية وينت بالوقائع الملموسة وشخصت بالتحليل العلمي أهداف ومخاطر الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية باعتبارها الحليف الأساسي لهما، كما أكدت على أن القوة الأساسية في النضال التحرري ضد كل ذلك هي تحالف الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين في جبهة وطنية تضم البرجوازية الوطنية، وبهذه الروح الجديدة خاضت الحركة في ذلك الوقت معارك كبرى وطنية وطبقية، ضد المشاريع والأحلاف العسكرية الإمبريالية وهزمتها كحلف بغداد الاستعماري على سبيل المثال، ثم دخلت مرحلة أعلى كتأميم قناة السويس والكثير من المؤسسات الأجنبية والوطنية الكبرى، وتأميم النفط في بعض البلدان، أو شراء امتيازاته في بلدان أخرى، وتم بكفاح الحركة الدائب تحقيق إصلاحات زراعية واجتماعية وسياسية، وقامت جهات وطنية في العديد من البلدان العربية شاركت فيها أحزاب وطنية تقدمية وماركسية، مما دفع الحكومات والأنظمة العربية إلى التعاون مع الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية، فبمساعدة هذه البلدان وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي، استطاعت معظم الدول العربية المتحررة أن تقضي على الكثير من مظاهر التخلف والتبعية للإمبريالية فأقيمت فيها عشرات المصانع والمشاريع الاقتصادية، ومحطات

توليد الطاقة الكهربائية والسكك الحديدية والموانئ وغيرها مما لم يكن تحقيقه ممكناً بمساعدة الدول الرأسمالية خلال عشرات السنين.

واستطاعت بمساعدة الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى كسر احتكار السلاح الإمبريالي سنة 1956 والذي كان مضرراً على البلاد العربية، كما استطاع بعضها تحرير ثرواته الطبيعية من الهيمنة الإمبريالية وتربية مئات الألوف من الكوادر الفنية الوطنية لتحقيق هذا النهوض الاقتصادي والاجتماعي.

وهكذا فقد قادت البرجوازية الوطنية، بمشاركة حركة الطبقة العاملة الناشئة، حركة التحرر الوطني العربية في معظم الأقطار العربية، وأنجز الاستقلال الوطني لجميع الدول العربية باستثناء فلسطين التي اجتاحتها الصهيونية بالكامل، وقد تحققت على يد البرجوازية الوطنية الثورة الوطنية بمضمون برجوازي أي إلى الحد الذي يتفق مع مصالح البرجوازية ويلائم التطور الرأسمالي وتحديث الرأسمالية، وتكونت بين البرجوازية العربية الحاكمة والنظام الرأسمالي العالمي والسوق الرأسمالي العالمي وشركاته الاحتكارية مصالح عديدة متشابكة، فلم تعد البرجوازية الوطنية الحاكمة قوة محركة في الثورة الوطنية الديمقراطية، لأن السير بهذه الثورة حتى نهايتها والانتقال إلى المرحلة الاشتراكية، من الثورة ليس في صالح البرجوازية كطبقة مستثمرة ، ولذا فإن البرجوازية لم تعد قائدة الثورة في حين أن الطبقة العاملة لم تستطع بعد انتزاع زمام قيادة الثورة من يد البرجوازية الحاكمة نتيجة لضعفها وضعف تنظيمها وبالمقابل نتيجة لقوة البرجوازية وإرهابها وسطوة إمكانياتها الاقتصادية الناجمة عن استحواذها على الأموال العامة، ففي الوقت الذي لم تعد فيه هذه الطبقة تملك العزيمة الثورية

لتقود النضال الوطني ضد الاستعمار والصهيونية بحيث تضع سداً بوجه هذا الخطر الداهم، وفي حين أنها لم تعد قادرة على قيادة التحولات السياسية والاجتماعية بمثل ذلك الحزم الضروري فإنها في الوقت ذاته تركز جهودها على الحيلولة دون قيام خلفها التاريخي الطبقة العاملة بهذا الدور المشرف.

لقد أملت أسباب كثيرة على القيادة البرجوازية السير في هذا الطريق الوطني الذي اتسم بالتقدمية منذ مطلع الخمسينيات وحتى نهاية الستينيات، فبعد الفشل الحتمي للائتلاف الطبقي الذي قاد الحياة السياسية والاقتصادية، في عهود ما بعد الاستقلال، وعجزه ليس فقط عن إجراء تحولات ملموسة في الحياة الاجتماعية بل وإمكانية المحافظة على الاستقلال السياسي في ظروف عدم القدرة على خلق اقتصاد وطني مستقل، كان لابد من قيادة جديدة تفتح الطريق أمام التطور الملائم لمرحلة ما بعد الاستقلال.

لاشك أن البرجوازية الوطنية أنجزت مهماتها التاريخية منذ بداية الأربعينيات إلى بداية الستينيات في الاستقلال وتحقيق بعض الإنجازات الاقتصادية والسياسية المهمة، لكن ارتباط مصالحها بمصالح الاستعمار وشركاته الاحتكارية، جعلها عاجزة عن إنجاز المهمات الوطنية والقومية الملحة وعلى وجه الخصوص مهمتها في مواجهة الغزو الصهيوني لفلسطين، ولم تكن تعي أنه سيأتي وقت تكون مصالحها هي بالذات مهددة من قبل الاستعمار والصهيونية سواء في الميدان الاقتصادي أو الاستراتيجي.

كما اتضح فيما بعد حين بدا أن جميع الدول العربية غدت مهددة بالابتلاع والتوسع الصهيوني حتى الدول التي تحسب نفسها بعيدة عن المواجهة جغرافياً، الأمر الذي ما يزال سائداً في تفكير البرجوازية الجديدة

الحاكمة رغم تصريحات ساسة العدو الصهيوني، التي توضح أن أمن إسرائيل لا يقف عند حدود دول المواجهة العربية، وتشكل بقية الدول العربية العمق الاستراتيجي لها، بالإضافة إلى تركيا وإيران وأواسط وشمال أفريقيا.

ولم يكن للبرجوازية أن تحقق ما حققته في أواسط هذا القرن في العديد من الدول العربية الرئيسية لولا تحالفها مع طبقة العمال والكادحين، ولذلك اتسمت المرحلة بالنشاط السياسي الثوري، والكفاح التعبوي لتحقيق التحرر الوطني الكامل وإنجاز التقدم الاجتماعي.

إن اغتناء حركة التحرر الوطني العربية بمضامين جديدة اجتماعية تقدمية وبانفتاحها على حركة الثورة العالمية وطليعتها الاتحاد السوفيتي قد أكسبها قوة وعمقاً وأعطاها دفعة جديدة إلى الأمام، حققت من خلالها العديد من الإنجازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وإن دراسة معمقة وموضوعية لتاريخ نضال الشعوب العربية في تلك المرحلة تمكننا من القول إن هناك حركة تحرر عربية واحدة لها طابع أساسي مرحلي هو الصراع التناحري مع الاستعمار، ولها سمات مشتركة أساسية، وهي مكونة من مجموع حركات التحرر الوطني في البلدان العربية وأن لكل حركة تحرر وطني في كل بلد عربي سماتها الخاصة بها وبالتالي لها مهام مشتركة أمام مجموعة حركة التحرر العربية ومهام خاصة بكل بلد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاختلافات التاريخية الثانوية والموضوعية بحسب درجة تطور كل بلد عربي وتجربته النضالية والاجتماعية، وبحسب علاقات كل بلد مع القوى الاستعمارية بعد إنجاز الاستقلال. فكما هو معروف فإن العديد من الأقطار العربية حصلت على استقلالها إسمياً بينما ظلت في واقع الأمر مرتبطة بعجلة الاستعمار

واحتكاراته. واحتفظت القوى الاستعمارية بقواتها وقواعدها وبجيوش المستشارين والخبراء في هذه الأقطار وفقاً لمعاهدات مكشوفة وسرية كبلت استقلالها الوطني وأفزعت من محتواه.

وإذا أردنا أن نعدد المهمات الأساسية المشتركة لمجموع حركات التحرر الوطني العربية في زمن تصاعد كفاحاتها ونضالاتها الوطنية والقومية لوجدنا عدة مهمات أساسية شكلت المحور الجوهري الذي تدور حوله مجمل نضالات الجماهير الشعبية في الأقطار العربية وأحزابها الوطنية والتقدمية.

من هذه المهمات المشتركة، النضال ضد الإمبريالية ، وتحقيق الوحدة العربية وحل قضية الشعب العربي الفلسطيني وعودته إلى أرض وطنه. وتتداخل في هذه المهمات مهمات أخرى مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، ومع مرور الزمن صارت جزءاً لا يتجزأ من هذه المهمات الرئيسية، أهمها العلاقات مع السوفييت وحركة التحرر العالمية.. إلخ.

لقد مرت الحركة بالطبع بفترات صعود وهبوط، وكما أصابت بعض النجاحات كذلك منيت ببعض الخيبات والنكسات، فمنذ بداية السبعينيات بدت مظاهر الهبوط في زخم الحركة وفي قدرتها داخل معظم الأقطار العربية منفردة ومجتمعة، وعلى الصعيد القومي العام عجزت عن تعبئة الجماهير ودفعها إلى خوض المعارك التحررية الوطنية والاجتماعية على حد سواء في وقت ازدادت فيه حدة الهجوم الإمبريالي والصهيوني والرجعي على منطقتنا وبدأت مظاهر الارتداد على المكاسب الوطنية والاجتماعية التي تحققت في أكثر من قطر عربي، وكانت تلك على وجه التحديد نتيجة للتنافس المتزايد بين المهمات الوطنية والاجتماعية التي تواجهها الحركة في تطورها التاريخي الراهن.

ولكن قبل الخوض في العوامل والظروف التي أدت إلى هذا الواقع لابد من الوقوف قليلاً أمام المهمات الأساسية المنبثقة من الواقع العربي والظروف الدولية المحيطة به، والتي كان على الحركة النهوض بها، وعلى رأسها بالطبع مقاومة الغزو الصهيوني والمخططات الإمبريالية في المنطقة.

لقد كانت الإمبريالية العالمية بعيدة النظر بالنسبة لمستقبل المنطقة العربية، فمنذ بداية القرن العشرين خططت الإمبريالية العالمية لزرع إسرائيل في الوطن العربي وكانت بريطانيا في ذلك الوقت رائدة الاستعمار الغربي، ومنذ وعد بلفور نشطت الحركة الصهيونية في هجرة اليهود إلى فلسطين، وإقامة المؤسسات والدوائر تحت سمع وبصر، لابل بمساعدة الاحتلال البريطاني لفلسطين، وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى كانت دولة إسرائيل مقامة على أرض الواقع حتى قبل صدور قرار التقسيم من هيئة الأمم المتحدة.

ولقد كشفت وثائق الحرب واندحار النازية وافتضاح مشاريعها وخططها أن الصهيونية تعاونت مع النازية لتحقيق هجرة اليهود الغربيين إلى أرض فلسطين العربية، وفي الخمسينيات ومع بداية انحسار الاستعمار الغربي الكلاسيكي وبروز دور الإمبريالية الأمريكية في السيطرة على العالم، اتخذت الصهيونية العالمية وإسرائيل من الولايات المتحدة الأمريكية خير حليف لها، في بناء قوتها العسكرية، مقابل الشرط الأساسي لوجودها وهو ضرب حركات التحرر الوطني التي يمكن أن تقوم في المنطقة وتهدد بالتالي مصالح الإمبريالية فيها مستقبلاً.

فوجود إسرائيل برز أمام حركة التحرر الوطني العربية أخطر الأعداء وأشرسهم وأقواهم، كما وجدت القوى العربية المناوئة للتحرر والتقدم في إسرائيل هذه قوة احتياطية لها لضرب أي تحرك ثوري يهدد مصالحها المحلية،

هكذا فهمنا مثلاً عدوان 1956 وعدوان 1967، وهكذا فهمنا فيما بعد العدوان المتكرر على البلدان العربية والذي كان عدوان 1982 على لبنان واحتلال أجزاء من أرضه آخر حلقاته.

فبقدر ما كانت إسرائيل وحليفها الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية عاملاً معطلاً لمسيرة حركة التحرر الوطني العربية ، بقدر ما كانت عاملاً محرضاً على تعميق نضال هذه الحركة وفهمها لواقعها وأهدافها، فخلال أربعين عاماً تقريباً من الحروب لم تستطع إسرائيل أن تستقر في المنطقة، ولم تستطع أن تكون جزءاً طبيعياً منها، ليس لأنها لا تريد ذلك ولا تريد السلام والعيش السلمي فحسب، وإنما لأن الجماهير العربية وحركة التحرر الوطني لم تقبل هذا العدو الإمبريالي الاستعماري العنصري الاستيطاني بعد فهم أغراضه وطبيعة مهماته الإمبريالية والعسكرية، والذي لا يمكن أن يكون مؤهلاً للعيش بسلام مع العرب الآخرين.

لقد أعطى الصراع ضد إسرائيل سمة مشتركة لكل حركة داخل كل بلد عربي وصار للقضية الفلسطينية بعد قومي عمل على تقوية حركة التحرر العربية وتوحيد صفوفها كما عمل على تفجير التناقضات بين الحركة وأعدائها، وفي فصائل الحركة نفسها.

فلاشك في أن فهم العرب وحركة التحرر الوطني العربية على وجه الخصوص للصهيونية، كان منذ البداية مبنياً على وقائع ملموسة ورؤية صائبة ومدركة تمام الإدراك أبعاد ومخاطر أهدافها الاستعمارية التوسعية حتى قبل قيامها على شكل دولة، وإن كان قد غاب عنها أو عن بعض فصائلها المؤثرة في بعض الأحيان الفهم العلمي الدقيق لطبيعة علاقتها مع الإمبريالية العالمية،

وسنجد حتى اليوم وجهات نظر مختلفة حول طبيعة هذه العلاقة وجوهرها، الأمر الذي تصدر عنه مواقف متباينة كثيراً ما وقفت حائلاً جديداً دون توحيد صفوف الحركة ونشاطاتها بين الجماهير لتصعيد وعيها وروح مقاومتها.

وعلى سبيل المثال فإن العديد من الأنظمة العربية ما تزال حتى الآن تنادي بتحييد الولايات المتحدة الأمريكية في الصراع العربي-الإسرائيلي، معتمدة في ذلك على الفهم الخاطئ الذي ظهر في فترات معينة وانتشر في أوساط جماهيرية عديدة، من أن إسرائيل تشكل عدواً منفصلاً قائماً بحد ذاته للعرب، ويتم عبر هذا الإطار تحديد المساندة الإمبريالية والدعم الإمبريالي غير المشروط للكيان الصهيوني من خلال تأثير الصهيونية العالمية المالي والإعلامي والتجسسي على بلدان الإمبريالية العالمية. غائباً عن الأذهان الترابط العضوي بين إسرائيل وبينها والدور الذي تقوم به في خدمة مصالح الإمبريالية في المنطقة العربية وفي مقدمتها المصالح النفطية الاستعمارية، وكثيراً ما يجري وفق هذا النمط من التفكير تصوير مشاريع الصهيونية الخاصة ومشاريع ومخططات الإمبريالية عامة وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية، على أنهما منفصلتان وقد تناقضان فيما بينهما، وكلما نجح العرب في طريق تفجير هذه التناقضات تمت خطوة إلى الأمام في عملية عزل إسرائيل عن أصدقائها.

لكن نظرة واقعية للصراع العربي الصهيوني تاريخياً تبين ليس عبثية هذا الرأي وأوهامه فحسب، وإنما تبين بوضوح الأخطار المترتبة عليه في أرض الواقع والذي انتج الاتفاقات المنفردة التي لم تعط شيئاً للعرب، وأعطت كل شيء للولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها إسرائيل، وينسى هؤلاء أو يتناسون الوقائع التاريخية التي تؤكد أن إسرائيل منذ وجودها، كفكرة في الأذهان إلى

قيامها كدولة عدوانية واستمرارها حتى الآن، كانت دوماً حليفة قوية للإمبريالية العالمية، تتوجه نحو الأقوى لتنفيذ خططها وأهدافها. وعندما استقرت السيطرة للولايات المتحدة الأمريكية على المعسكر الإمبريالي العالمي، نجحت في تقديم خدمات مقنعة للاستمرار في دعمها وضرورة تقويتها، وأربع حروب متتالية شنتها إسرائيل على العرب خلال أربعين عاماً، حوت دوماً هدفاً إمبريالياً أساسياً هو ضرب حركة التحرر الوطني العربية وشل قدراتها كلما تصاعد كفاحها وحقت بعض النجاحات، ولذلك لم تكن إسرائيل في يوم من الأيام أشد حرصاً على قدراتها العسكرية وتنمية هذه القدرات من الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، حيث تتداخل المهمتان الأساسيتان والعضويتان لهذه القوة: حماية الوجود الإسرائيلي وحماية المصالح الأمريكية الاستعمارية في المنطقة، ومن هنا كان الخلل الدائم والتفاوت المستمر بين قدرات إسرائيل العسكرية والقدرات العسكرية للبلدان العربية مجتمعة، بهدف إبقاء هيمنتها على المنطقة، بشكل يسمح لها بالتدخل السريع والضارب لإحباط أي إنجاز تحققه فصائل حركة التحرر الوطني العربية كما حدث في غزو لبنان عام 1982 والذي نعتبره عدواناً إسرائيلياً يخدم أغراضاً أمريكية بالدرجة الأولى، وهذا ما تكشف عنه الحرب وما صرح به العديد من الشخصيات الإسرائيلية والأمريكية وهذا الأمر بالطبع يلقي الأضواء بقوة على رفض إسرائيل الدائم ومعها الولايات المتحدة الأمريكية لجميع مبادرات السلام العادل التي تقدم بها الاتحاد السوفيتي لحل مشكلة الشرق الأوسط والتي قبل بها العرب، وكذلك رفضهما المطلق لجميع القرارات الصادرة عن هيئات الأمم المتحدة والتي استخدمت فيها الولايات المتحدة الأمريكية الفيتو الأمريكي لمرات عديدة لصالح إسرائيل.

وفي اعتقادي أنه من هنا كانت وما تزال تنشأ أمام حركة التحرر الوطني العربية مصاعب واختلافات مؤذية بين فصائل هذه الحركة، وعلى وجه الخصوص بين حركة التحرر الوطني الفلسطينية وشقيقاتها العربيات، فيبرز بين حين وآخر شعار القرار الفلسطيني واستقلالية منظمة التحرير الفلسطينية بغية فصل القضية الفلسطينية والمصير الفلسطيني عن قضايا حركة التحرر الوطني العربية ومصيرها الواحد، ويأتي ذلك أحياناً منسجماً تماماً مع الطرح العربي الذي ينادي برعاية الولايات المتحدة الأمريكية لهذا الصراع وتحييدها فيه والتفاهم مع إسرائيل بوصفها الأقوى، من دون النظر إلى التبعات التي يتركها هذا التوجه عبئاً ثقيلاً على مجمل حركة التحرر الوطني العربية، وستتضح أكثر فأكثر أخطار هذا التوجه عندما يكون الغطاء القومي له واسعاً وقوياً تدعمه بلدان عربية ذات أنظمة ارتبطت مصالحها بمصالح الإمبريالية العالمية، ورهنت نفسها نتيجة لذلك لخدمة مخططاتها ومشروعها المستقبلية، هذا الغطاء القومي أو البعد القومي لقضية الشعب الفلسطيني لم يكن ليظهر في الفترات التي كان يتعرض فيها هذا الشعب للقتل والتشريد، ولم يكن ليظهر بالقوة المناسبة إلا حين تطرح الصفقات الاستسلامية وتبرز إلى السطح.

لكن ذلك يجب ألا يشكل أكثر من درس واقعي ومهم يمكن أن يفيد حركة التحرر الوطني العربية ويغني تجاربها مثلما أفادتها الدروس السابقة وأغنتها.

فبعد حرب عام 1948 استطاعت حركة التحرر الوطني العربية أن تعيد حساباتها وقراءاتها للواقع العربي والمصير العربي، واستطاعت بفضل الالتفاف الجماهيري حولها أن تصعد كفاحاتها وأن تربط بقوة بين الثورة الوطنية والثورة

الاجتماعية، ووجد الشارع العربي في تلك السنوات ازدهاراً واسعاً ونشاطاً مكثفاً ، وحسب معطيات المرحلة وضعت المهام أمام حركة التحرر الوطني ببعدها القومي العام، وبرزت إلى الوجود أحزاب سياسية ذات صبغة قومية تقدمية، وتنظيمات وقوى مناوئة أخرى ممثلة للطبقات القديمة التي أخذت مصالحها تتهدد تحت ضغط نشاط حركة التحرر الوطني ونشاطه.

من تلك الأحزاب على سبيل المثال، حزب البعث العربي الاشتراكي الذي وصل إلى السلطة عام 1963 وما يزال يقود القطر العربي السوري حتى الآن، وبمساندته المباشرة تشكل العمل الفدائي الفلسطيني المسلح عام 1965 والذي تمخضت عنه فيما بعد منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب العربي الفلسطيني وقواه الوطنية، بينما شهدت الشقيقة مصر ظهور تجربة القائد العربي جمال عبد الناصر الذي قاد مصر من بداية الخمسينيات وحتى أواخر الستينيات، وازدهرت حركة التحرر وطرحت مهامها الوطنية والقومية بقوة لم يعهدها التاريخ العربي الحديث من قبل.

وقبل أن أخوض في ملامح تلك المرحلة، سأتوقف قليلاً عند ظهور حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يشرفني أن أكون أحد أعضائه منذ البداية. لاشك في أن ظهور حزب البعث العربي في أواسط الأربعينيات، جاء تعبيراً ملحاً عن تطلعات الجماهير العربية في التحرر الوطني والوحدة العربية، واستجابة لمشاعر هذه الجماهير في التقدم والوصول إلى مجتمع ينتفي منه الاستغلال والقهر.

ونتيجة لطبيعة قيادته المتكونة من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والمثقفين الثوريين، فقد صيغت إيديولوجيته وبرامجه السياسية والاجتماعية تحت تأثير

أفكار الاشتراكية العلمية واسعة الانتشار، آخذة الخصوصية العربية والتركيب النفسي ومستوى وعي الجماهير العربية بعين الاعتبار في مرحلة شهدت الأمة العربية فيها نهوضاً من قرون عديدة من الانحدار والقهر والاستغلال الاستعماريين.

هذه الخصوصية حددتها في البدء مفاهيم قابلة للتبلور والتطوير، لأنها منسجمة أصلاً مع تفكير الجماهير العربية وتطلعاتها وآمالها، وهذه المفاهيم طرحها الحزب وناضل من أجلها سرّاً وعلناً، واستطاع أن يكسب من خلالها تعاطف الجماهير واهتمامها، وخاض ضمن هذه العلاقة معارك طبقية ووطنية عديدة في عهود مختلفة، بتحالفاته مع الأحزاب الأخرى من ماركسية وغيرها، ولم تكن الاختلافات واسعة في تلك الفترة، إلا بالقدر الذي اتخذ كل حزب من هذه الأحزاب من خلال قراءته للواقع أساليب نضاله وتثقيفه النضالي للجماهير، وهذا ما أعطى حزب البعث العربي الاشتراكي في ذلك الوقت جماهيرية واسعة استطاع من خلالها التأثير في مجريات الحياة وحركتها واستطاع أن يصل إلى السلطة بعد سنوات قليلة من تأسيسه.

وسأضرب هنا مثلاً ميدانياً واضحاً للفرق بين أساليب كل من الحزبين اللذين نشطا في تلك الفترة وهما حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي السوري.

فبينما خاض الحزبان جنباً إلى جنب عدة معارك طبقية وسياسية مشتركة، أكد حزب البعث بقوة حرصه على البعد القومي لهذه المعارك ووضع الوحدة العربية في اهتماماته الأولى، ففي تلك الأعوام كان للمؤامرات الاستعمارية والأحلاف المشبوهة ضد الأقطار العربية المستجدة في الاستقلال والعدوان

الثلاثي المسلح على مصر عام 1956 دور كبير في إيقاظ روح الأمة والإحساس بالمصير القومي المشترك، ورفض واقع التجزئة والتخلف، لمواجهة القضايا الكبرى التي تأتي في طليعتها مواجهة الصهيونية والمؤامرات الاستعمارية.

في تلك الأثناء لم يعر الحزب الشيوعي اهتماماً واضحاً لمسألة الوحدة، وعندما جاءت أول وحدة بين قطرين عربيين في التاريخ الحديث هما سورية ومصر، كان للحزب الشيوعي موقف خاص أملتة اعتبارات فكرية وسياسية وحزبية، لكن الجماهير العربية التي تتوجه نحو الوحدة بإخلاص وحماسة كبيرين لم تكن قادرة على تمييز هذه المواقف وبالتالي قبولها، وقد خسر الحزب الشيوعي من جراء ذلك الكثير من جماهيره، لمعارضته الوحدة التي تآقت إليها الجماهير طويلاً.

وبرز في الوقت نفسه دور حزب البعث العربي الاشتراكي والقيادة الناصرية، كمناضلين قوين من أجل الوحدة والقضايا القومية، وبانخفاض فعالية دور الحزب الشيوعي السوري في التأثير على الجماهير مؤقتاً خسرت حركة التحرر الوطني العربي فصيلاً مهماً من فصائلها، حتى استطاع هذا الفصيل أن يقف على قدميه بعد سنوات.

لا أريد هنا أن أضع هذين الحزبين في كفتي ميزان، كما لا أسمح لنفسني أبداً عند الحديث عن الحزب الشيوعي السوري الذي يشارك حزب البعث العربي الاشتراكي في قيادة القطر العربي السوري من خلال الجبهة الوطنية التقدمية ، ويسهم بنشاط وكفاءة في جميع المعارك الوطنية والقومية التي يخوضها شعبنا في سورية، أقول لا أسمح لنفسني أبداً أن أتوجه إليه بالنقد من

منطلق تنافسي أو منطلق اللامبالاة، فبالإضافة إلى تاريخه النضالي المشهود في حياة قطرنا وبالإضافة إلى حضوره القوي على الساحة السياسية، فأنا أكن احتراماً كبيراً لمناضليه وقادته، وتربطني مع كثيرين منهم صداقات رفاقية عميقة، وإذا كنت أتحدث عن مواضيع هي الآن ملك لتاريخنا المشترك، فإنما أهدف بالدرجة الأولى إلى كشف بعض الأخطاء التي وقعت فيها مسيرة حركة التحرر الوطني العربية ككل والتي تشكل الأحزاب الشيوعية العربية جزءاً هاماً لا يتجزأ منها، وهذا لا يعني أبداً أن بقية الأحزاب والقوى الثورية العربية الأخرى كانت معصومة عن الخطأ بما فيها حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في سورية الذي أنا أحد أعضائه، وبما فيها القيادة الناصرية في مصر التي برز دورها في خمسينيات وستينيات هذا القرن، ويمكنني القول إنه في الفترة الممتدة منذ قيام ثورة البعث عام 1963 وحتى قيام الحركة التصحيحية التي قادها الرفيق المناضل حافظ الأسد عام 1970، لم يخل الأمر من أخطاء وسلبات تراكمت على ضفتي مجرى التحولات الثورية والإنجازات الوطنية في سورية، انعكست سلباً على مسار حركة التحرر الوطني العربية، فأبعدت إمكانية التأثير الفعال للقطر على هذا المسار وتناميّه، كما غيبت إلى فترة ضرورة وحدة فصائل الثورة العربية ضمن إطار الفكر القومي التقدمي، وضمن الاستفادة من جميع الطاقات العربية الممكنة في الصراع الأساسي مع العدو الصهيوني، وبالمقابل فإن السياسات التي اتبعتها القيادة الناصرية في الوقت نفسه لم تؤد إلى وحدة هذه الفصائل أو بروز قيادة موحدة لها، إنما أدت أحياناً إلى نشوء خلافات واسعة بينها وبين هذه الفصائل دفعها إلى الخصام معها وسوغ لها ضربها أحياناً، وعلى الرغم من اشتداد نشاطات وكفاحات حركة التحرر الوطني العربية في هذه

المرحلة بالذات والتفاف الجماهير العربية حولها على امتداد الساحة العربية كلها، خصوصاً بعد عدوان عام 1967 ، إلا أنها افتقرت إلى العديد من العناصر الأساسية التي تحقق لها القوة على أعدائها وبالتالي قيادة المجتمع العربي والسير به إلى الأمام، الأمر الذي ترك فرصاً سانحة في أمكنة عديدة لتسلل قوى البرجوازية الجديدة وسيطرتها على بلدانها، وتأتي في طليعة هذه العناصر وحدة العمل الثوري ووحدة قيادته، فبدلاً من هذه الوحدة وجدنا تناقضات حادة بين عمل هذه الفصائل كل على حدة، انعكست أساساً عن وجود تناقضات في فهم مهمات تلك المرحلة وأساليب التعامل مع الواقع التي رسمتها هذه القوى لنفسها كل على حده أيضاً، فأدت فيما بعد إلى انشقاقات عديدة حتى ضمن الفصيل أو الحزب الثوري الواحد، ولا أزعم هنا أن الصورة مستمرة حتى الآن، كما لا أستطيع أن أنفيها، لكنني أستطيع القول إن إمكانيات وحدة العمل الثوري وتجميع الجهود والنضالات حول مهمات أساسية محددة وملحة هي اليوم متوفرة أكثر من أي وقت مضى، وذلك بفضل الوعي المشترك بين فصائل الحركة، على تنوعها، لهذه المهام، والاتفاق الكامل على النهوض بها بصفوف موحدة بغض النظر عن الخلافات الجانبية التي تنشأ على هذا الطريق، ولاشك في أن سورية هنا بصمودها وتعزيز قدراتها العسكرية المستمرة تلعب دوراً أساسياً وبارزاً في هذا الاتجاه، ينعكس على أرض الواقع بدورها القومي في لبنان، ومواجهة المشاريع والاتفاقات التي تنال من قضية الشعب العربي الفلسطيني، وبالتفاف جميع الأحزاب والقوى التقدمية العربية حولها.

وقبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع، أحب أن أشير هنا إلى مجال حيوي من المجالات التي تعين على حركة التحرر الوطني العربية مواجهتها فيما

سبق كما يتعين عليها الآن، فمن الملاحظ بوضوح اليوم امتداد الفكر الديني الرجعي على طول الساحة العربية وعرضها تقوده أنظمة الرد واجدة بعض النجاحات، حتى يمكن القول إن هذا السلاح الإيديولوجي الموجه أساساً لخلق البديل التنظيمي المهمش والمجهض لحركة التحرر الوطني العربية، يلقي اليوم جاذبية خاصة لدى فئات عريضة من الجماهير أمكن الوصول إلى أدمغتها عن طريق إيقاظ روح الخيبة من كل ما هو نظام اشتراكي أو تحرري أو تقدمي، وزرع البديل الغيب كطريق للخلاص ومسوغ للعيش وفق شرائع لا تعارض الاستغلال والتخلف فقط إنما تبررهما.

وتتخذ هذه التيارات بالإضافة إلى اتساع انتشارها، أشكالاً تنظيمية متطرفة تزيد من خطورتها، وتذكر بالمخاطر العديدة التي سبق ووضعتها أمام حركة التحرر الوطني العربية في مراحل الخمسينيات، فقد تعين على هذه الحركة في سورية وفي ذلك الوقت الاصطدام مع هذه التيارات - وعلى رأسها الإخوان المسلمون - والصراع معها كقوة مؤلبة ومخرية تشد مجتمعنا إلى الوراء وتحاول وضعه رهينة بيد الإمبرياليين، مثلما تعين على الرئيس جمال عبد الناصر في تلك الفترة ومثلما تعين على الحزب الشيوعي الجزائري الذي كان يشارك بقية القوى والأحزاب الوطنية الجزائرية الأخرى في الثورة التحريرية لشعب الجزائر، وكان له دور بارز في جبهة التحرير الجزائرية، أن يخوض تناحرات سرية وطنية أبرزها تناحراته مع هذه التيارات الدينية المتطرفة.

وهنا نستطيع أن نلقي نظرة تاريخية على ظهور هذه التيارات وأثرها السليبي على حركة التحرر الوطني العربية ونشاطاتها.

في رأيي الشخصي، أنه حتى بعد زمن طويل لا يمكن لأي قوة سياسية أو حزبية أن تكون مؤثرة في وسطها في الوقت الذي تتجاهل فيه الطبيعة والتركيبية الدينية لمجتمعاتنا العربية المتفاوتة التطور. وهذا ما غاب عن بال البعض في أوقات مختلفة مع أن هذه النظرة اختلفت الآن لا بل انقلبت على رأسها، بحيث نجد في أيامنا هذه اهتماماً متزايداً بشؤون التراث وبحث الجوانب الثورية في الإسلام من قبل الاشتراكيين والماركسيين والثوريين، وغابت إلى حد بعيد تلك النظرة العدائية والساذجة ضد كل ما هو ديني أو تراثي، التي أملتتها في البدايات الحماسة الثورية المفرطة وتطبيق الأفكار الجاهزة من دون النظر إلى الواقع نظرة علمية دقيقة مرنة تأخذ في اعتبارها السياق التاريخي ودرجات تطوره وأساليب التأثير عليهما لا الصعود من فوقهما.

تعلمون أن وطننا العربي عاش ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام في ظل المفاهيم والأفكار الإسلامية، وقامت خلال التاريخ الإسلامي عدة ثورات ذات طابع طبقي استناداً إلى أفكار الإسلام وتعاليمه، وقامت بقوة الإسلام دولة عربية واسعة وقوية استطاعت أن توسع انتشار الدين الإسلامي عبر فتوحات وصلت إلى إسبانيا في أوج قوة الدولة العربية، ولكن مع تفسخ هذه الدولة وانحلالها شيئاً فشيئاً في الدولة العثمانية ذات القوميات المتعددة انحدر الوطن العربي عبر خمسة قرون في ظلام الجهل والتجزئة والتخلف، وقد تركت هذه القرون العديدة من السمات التاريخية ذات الطابع المتخلف، والتي صارت جزءاً من الواقع العربي والنفسية العربية التي عمقتها واستثمرتها الطبقات المستغلة على ضوء مصالحها وما تزال تستثمرها حتى الآن، وبظهور الاستعمار الغربي، كرس هذه المظاهر وعمق جوهرها، حتى غدت من الثوابت التاريخية المرحلية التي ما

تزال تجد فيها الرجعية وأسيادها الإمبرياليون فرصة سانحة لتغيب المنطقة وإخضاعها مجزأة خائرة القوى.

وعلى رأس هذه العوامل، الطائفية والعشائرية، والقبلية والتناقضات القومية الثانوية لقوميات اشتركت تاريخياً ومصيرياً مع القومية العربية عبر التكوينات الاجتماعية والجغرافية بعيدة الجذور.

ولاشك في أن الدين الإسلامي يحوي إلى جانب احتوائه على نقاط ثورية وتقدمية مضيئة، بعض الجوانب التي يمكن استغلالها لعرقلة حركة التقدم والتطور، وقد وجدت هذه الجوانب اهتماماً شديداً من قبل أحزاب دينية متطرفة على رأسها حزب الإخوان المسلمين، والتي لا يكاد بلد عربي يخلو منها اليوم، ولا تخلو مرحلة من المراحل في التاريخ المعاصر من إشكالات وأحداث مريبة، افتعلتها هذه الأحزاب لتعطيل عجلة التطور وكبح جماح التحرر الوطني والاجتماعي، وقد لاقت هذه الأحزاب من الصهيونية، والإمبريالية مزيداً من الرعاية، كأداة لتنفيذ المخططات الإمبريالية الهادفة إلى شق المجتمعات العربية وإغراقها في العنف وشد انتباهها عن المهمات الوطنية والقومية الرئيسية، ومن هنا كانت العون التاريخي واليد السرية التي كانت جاهزة دوماً لتنفيذ المخططات الاستعمارية في المنطقة العربية وتميرها. وخير مثال على ذلك حركة الإخوان المسلمين في القطر العربي السوري التي وضعت البلاد على حافة حرب أهلية رهيبة، مثلما وضعت الطائفية لبنان عبر سنوات طويلة في مثل هذه المحنة، لكن يقظة شعبنا في سورية، وحكمة القائد المناضل حافظ الأسد ، وتعاون القوى والأحزاب الوطنية التقدمية، أوصلت الإخوان المسلمين إلى الطريق المسدود، وأحبطت جميع النوايا والخطط المرسومة لها، ونعلم أيضاً هنا

أن العديد من البلدان العربية اليوم تعاني من تخريب الإخوان المسلمين، كما تعاني من البؤر التاريخية الرجعية المزروعة من قبل الاستعمار الغربي والتي تحظى برعايتها، فكما حدث في سورية في أثناء الاحتلال الفرنسي، حيث أقيمت عدة دويلات طائفية لتكريس التفرقة بين جماهير الشعب، وضرب الفكر القومي والوطني التحرري، فإن إسرائيل تكرر اليوم مساعيها لتحقيق هذه الفسيفساء الطائفية المدمرة، وهذا أحد الأهداف التي رمت إليها من غزوها للبنان عام 1982.

ماذا يعني هذا؟

بصورة من الصور ، يعني أن لدينا في أوساطنا الجماهيرية تكوينات سلفية تعاون على خلقها وتكريسها الأعداء الطبقيون والاستعماريون، لتبقى قاعدة لهم للانطلاق منها لإعاقة تقدم هذه الجماهير وضرب كفاحها من أجل التحرر والتقدم مستقبلاً، وفي الحقيقة ما تزال هذه القوى تجد في ذلك تربة صالحة لم تستطع الحياة والنضالات المستمرة أن تمحوها أو تجتث جذورها، والخلاف ما يزال قائماً حول تحديد المسؤولية التاريخية عن هذا التقصير، هل هو مرتبط بوعي الجماهير الذاتي الذي لم يستطع تخطي ذلك أم هو مرتبط بضعف حركة التحرر الوطني في هذا الجانب ونجاحاتها فيه.. أم .. إلخ..

والحقيقة في رأيي الشخصي، أن هذا سمة من سمات ما يسمى بالعالم الثالث اليوم، وليس مقتصرأ على وطننا العربي فحسب، وهو أمر تاريخي ثقافي طبقي يحتاج إلى ثورة حقيقية تشمل جميع جوانب الحياة وهيكلاتها، إلى جانب ضرورة التغيير الجذري للتركيبات الاجتماعية الطبقية للمجتمع العربي.

وهذه قضية كما يبدو لم يتأهل لها الشعب العربي نظراً لواقع التجزئة والتخلف فيه وضعف حركة التحرر الوطني ودورها في ذلك كله.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: طالما أن هناك أزمة كما أشرت في سياق الحديث، بدأت في سبعينيات هذا القرن فشملت المجتمع العربي ككل، وحركة التحرر الوطني العربية على وجه الخصوص، فأين تكمن هذه الأزمة وما هي طبيعتها؟ هل هي ظرفية عابرة أم أنها طويلة المدى؟ وما هو الحل؟ هنا سأعود قليلاً إلى طبيعة القيادات البرجوازية الصغيرة أو الجديدة التي قادت أنظمتها خلال العشرين سنة المنصرمة، وعملت بالتالي على إبراز هذه الأزمة وتعميقها الأمر الذي تجلّى واضحاً في أثناء غزو لبنان عام 1982 وما تلاه من أحداث.

لقد استطاعت البرجوازية الصغيرة في أثناء صعودها إلى السلطة في بداية الستينيات أن تنشئ دولاً أعطتها صبغة مصلحة المجتمع العليا وتجسيد الوحدة الوطنية والقومية، مع أنها في واقع الأمر كانت ذات محتوى وتعبير طبقي معين، يستمد سلطته من البرجوازية الوطنية المتقهقرة، ومن أفكار حركة التحرر الوطني المتصاعد، فاتسمت بالتالي بعدم تبلورها الطبقي ولازماتها الضبابية الإيديولوجية وتقلباتها السياسية عبر مراحل انتقالية عبرت عنها الأنظمة في مواجهتها للأحداث وقيادتها لمجتمعاتها.

وهكذا عندما فقدت البرجوازية التقليدية إشعاعها في العهد الاستعماري أو المراحل الأولى من الاستقلال الوطني، انتقلت البرجوازية الجديدة إلى موقع جديد لا يرتبط بأصلها الاجتماعي إنما يرتبط بواقعها في جهاز السلطة، فتحوّلت إلى هذا الواقع الجديد مع إبقائها في المراحل الأولى على شعاراتها الإيديولوجية التي بدأت بها، ثم تخلت عنها عندما تمكنت من احتلال مواقع

اقتصادية متقدمة بمساعدة الرأسمال الأجنبي، الذي أصبح في ظل النهج الرأسمالي للتنمية طرفاً مباشراً في تحديد سمات الواقع الاقتصادي والاجتماعي للبلدان العربية.

وقد أمكن لهذه الشرائح أن تمسك بمفاصل الواقع الاقتصادي في إطار التداخل بين مصالحها ومصالح الرأسمال الأجنبي في إطار الاستعمار الجديد ، وفي إطار الوقع الراهن الذي أسهم فيه موضوعاً واقع التخلف ونوعية التركيبات الطبقية التي صاغها الاستعمار في المجتمع العربي كما أسلفت، ويمكن ذلك الاستعمار الجديد من التغلغل في الاقتصاد الوطني للبلدان العربية التي سلكت النهج الرأسمالي فتعمقت اندماجات هذه البلدان في السوق الرأسمالية العالمية وربطت مصالحها أكثر بتطوير التركيبة الاقتصادية وفق اتجاه الاستثمارات الاحتكارية والامتيازات والقضاء على الاقتصاد الطبيعي. مما أظهر فئات الرأسمالية البروقراطية والطفيلية التي تحكمت فيه، وتحكمت بتوجهات مجتمعاتها السياسية والاجتماعية والثقافية، ولأنها كانت نتيجة غير طبيعية لعلاقات التبعية مع الاستعمار وغير مؤهلة للسيطرة على مجتمعاتها إلا بقوة هذه العلاقات وانجرافها فيها ، فإنها لم تستخدم العامل الاقتصادي في تركيز نفوذها فحسب، بل عملت على تسريب المفاهيم الاستعمارية والقيم المتخلفة والمخرية عبر قنوات متعددة تلعب فيها أجهزة الإعلام ومؤسسات الدولة الثقافية دوراً فعالاً، ولهذا قامت الحملات الشعواء على الاشتراكية كما تم استغلال الأوضاع الدينية ضد الأفكار التقدمية، وتعميم قيم الاستهلاك الغربي وثقافة الاستهلاك التي تخدم الاقتصاد السوقي، والتبعية السياسية والثقافية لقوى الاستعمار الجديد.

ولهذا كانت هذه الفئات المسيطرة تحمل مواصفات استغلها الاستعمار الحديث الذي أوجدها أصلاً نموذجاً لخلق أوضاع رأسمالية جديدة تهيمن من خلالها على المجتمعات، ليس فقط على البرجوازيات الجديدة وإنما على قطاعات عريضة من فئات الشعب الأخرى، التي أغراها وشحذ تطلعاتها البرجوازية، مما جعلها ولفترة طويلة واقعة تحت التأثير الإيديولوجي والسياسي لهذه الأنظمة ورأت في أنموذجها الانفتاحي البديل الذي يحقق لها الرخاء ويخرجها من الكبت السياسي والخنق الاقتصادي، فسهل ذلك عليها تمرير الصفقات السياسية المعدة لها، فتذبذبت في مواقفها لفترة من الوقت ثم اندفعت صراحة نحو هذه الصفقات وعقدتها علانية، متخيلة عن شعاراتها التقدمية وإصلاحاتها الاجتماعية ونزوعها الوطني ومناهضتها للإمبريالية، فانتكست بالتالي جميع هذه الشعارات وتجمدت مشاريع الاقتصاد الوطني الاشتراكي والوحدة العربية ومقاومة الصهيونية، التي كانت لفترة طويلة من الوقت غطاء لعمليات تجميد الصراع الطبقي وكبح التحولات الاجتماعية في المجتمع العربي، وإذا استثنينا سورية واليمن الديمقراطي والجزائر، فإننا لن نجد أي بلد عربي آخر يناضل من أجل هذه القضايا مجتمعة أو منفردة، وهذا عائد إلى التغيرات التي أحدثتها البرجوازية الجديدة في الهيكلية الاجتماعية العربية، وتسريب بدائلها السياسية والاقتصادية المتفقة مع مطامح الصهيونية والإمبريالية ، في جسد الجماهير العربية التي عزلت وتم تغييبها على أيدي هذه الفئات.

لقد كان لتغييب الجماهير العربية وشل قدراتها أكبر الأثر على ضعف حركة التحرر الوطني العربية وتقويض فعاليتها، الأمر الذي تم بأساليب مختلفة اتخذت فيه الدول والأنظمة دور قيادة حركة التحرر الوطني في الوقت الذي لم

يكن بمقدورها ضبط نفسها عن الانجراف في تيار النمط الرأسمالي، والتجربة الناصرية في مصر خير دليل على ذلك، فعشرون عاماً تقريباً من عمر هذه التجربة المتسمة بالتححر الوطني ورسم آفاقه، لم تكن قادرة على تماسك هذا النظام واستمراره بعد وفاة عبد الناصر بقليل، والدور القيادي العربي الذي اتخذته هذه التجربة لنفسها لم يكن قادراً على وقف التراجع والارتداد العربيين اللذين شملا معظم البلدان العربية فيما بعد، وإذا كان تفسير ذلك، بأن الإجراءات التي تمت في عهد هذه التجربة لم تكن تخلو من أخطاء ولم تكن تسير بالعمق الذي يضمن ثباتها واستمرارها، فإن له تفسيراً آخر في خصائص النمو والتطور العربيين اللذين تسلمت دفعة قيادتهما البرجوازية الصاعدة التي أفرزتها آلية النمو الرأسمالي في أغلب البلدان العربية.

فالرأسمالية التابعة في البلدان المتخلفة لا تعطي ثورة صناعية حقيقية ولا ينتج عنها أي تغيير ثوري لعلاقات الإنتاج، لأنها غير نابعة من حركة المجتمع الداخلية، ففي ظل هيمنة السوق الرأسمالية العالمية لا يمكن أن تحل مشكلة التخلف ولا يمكن أن يبنى اقتصاد وطني قادر على استيعاب القوى الاجتماعية التي أفرزتها آلية هذا النمو، بل ينتج عن ذلك كله بروتيتاريا رثة مشوهة غير موحدة التكوين وتنتج جمهوراً استهلاكياً متسكعاً بين الريف والمدينة، موزعاً بين القيم التقليدية والقيم العصرية، وشباباً مهمشاً من عملية الإنتاج ولا يحتل موقعاً مستقراً ولا ينتمي إلى شريحة اجتماعية متميزة.

وهذه في حقيقة الأمر تشكل معوقات جوهرية تقف حائلاً دون تأصيل عملية الفرز الطبقي، وتبلور الصراع الطبقي، الذي استبدلته البرجوازية الصغيرة

بتحديث المجتمع وتطوير بنيته الاقتصادية وفق الانموذج الرأسمالي الذي يعاني في بلاد المنشأ من أزمة خانقة، ولم تفعل التبعية له إلا استيراد أزمته وتبعاتها. ولعلنا في الوطن العربي اليوم نعاني من عنصر جديد وفق المعطيات والتغيرات الحاصلة في الواقع العربي، يمكننا أن نسميه السوق العالمي العربي في غطائه القومي، فبعد تضاعف عائدات النفط العربية لمجموعة قليلة من البلدان العربية أضعافاً مذهلة، وتضاعف مداخيل وأرباح شيوخ النفط وسيطرتهم على عملية إنتاج النفط وتصديره ظهرت هوة كبيرة بين البلدان العربية خلخلت البنيان العربي المستقر وعمقت التفاوتات في الأوضاع الاقتصادية المعاشية فيما بينها، وأدت إلى نتائج خطيرة استطاعت أن تصل إلى عصب الحياة العربية والتكوينات الاجتماعية فيها ففرزت بلداناً غنية تمكنت بهيمنتها العالية تعميم المثال الرأسمالي الاحتكاري، وخلخلت البنية الطبقية للبلدان العربية باستيرادها اليد العاملة وإفسادها، ومارست بقيادة الرجعية السعودية ضغوطات شديدة على الأنظمة العربية ذات التوجه التحرري للتسريع في إفسادها وانحرافها، واتخذت هذه الدول النفطية وعلى رأسها السعودية، دور توجيه المجتمع العربي بمساعدة الإمبريالية والصهيونية باتجاه يناقض الاتجاه الذي عملت من أجله حركة التحرر الوطني العربية، الأمر الذي خلق المناخ الملائم للتسريع بالصفقات السياسية، ولهاتئ الأنظمة العربية نظاماً بعد آخر، للاستسلام والخضوع للمشاريع الصهيونية والأمريكية.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، إنما ثمة محاولات حثيثة لجعل هذه البلدان جزءاً من الاستراتيجية العسكرية والنووية الأمريكية المهددة للاتحاد السوفيتي ومنظومة البلدان الاشتراكية.

والسؤال الذي يبرز أمامنا بقوة هنا، هو: ما الذي منع سورية من الانجراف في هذا التيار العربي الضاغط الذي خضعت له غالبية البلدان العربية، ودفعها بالتالي إلى الثبات والصمود في سياستها الوطنية والقومية، وأدى بها في النهاية إلى الانفراد بقيادة حركة التحرر الوطني العربية في المرحلة الراهنة؟ الأمر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ العرب الحديث، وأعني به وجود دولة تأخذ على عاتقها هموم حركة التحرر الوطني العربية ومهماتها، وتخوض بقواها وفصائلها مختلف المعارك وأشرسها على الصعيد الوطني والقومي والعالمي.

في رأيي الشخصي أن القطر العربي السوري له عدة ميزات تاريخية ونضالية تؤهله بحق للعب هذا الدور القيادي، وتمكنه بالتالي من القيام بأعباء المرحلة على أكمل وجه، فسورية كانت من أوائل البلدان العربية التي أسهمت بقوة في حركة النهضة العربية في أواخر أيام الاستعمار العثماني، وكانت من أوائل البلدان التي نشطت فيها الجمعيات والتنظيمات السياسية المناوئة له، وتكشف لنا وثائق الثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي، أنه تم خلال تلك الفترة تبادل الرسائل بين أحد قادة الثورة السورية المناضل إبراهيم هنانو ولبنين قائد ثورة أكتوبر الروسية، للاستفادة من الخبرات الثورية العالمية، وكان لرياح ثورة أكتوبر أثر بالغ على الأوضاع الثورية السورية، فكانت سورية من البلدان العربية القليلة الأولى التي تشكلت فيها في أواسط العشرينيات قوى الأحزاب الشيوعية، وكانت بالتالي أول بلد عربي يحصل على استقلاله عام 1946، وعقب الاستقلال مباشرة نشأ فيها أول حزب سياسي قومي تميز عن بقية الأحزاب القومية العربية والعالمية الأخرى ببعده القومي التقدمي المناهض

للإمبريالية والاشوفينية والعنصرية والمتخذ من الاشتراكية هدفاً أساسياً من أهدافه.

وبوصول هذا الحزب إلى الحكم عام 1963 وضعت ربما للمرة الأولى مهام حركة التحرر الوطني العربية في رحاب أوسع واتخذ النضال من أجلها شكلاً تنظيمياً أقوى، وإذا كانت سورية لم تعرف الاستقرار السياسي كما عرفته في عهد القائد المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية، فلم يكن ذلك بالدرجة الأولى إلا دليلاً واضحاً على غنى وعي الشعب العربي في سورية وتنوع خبراته الاجتماعية والسياسية التي أكسبته تراثاً نضالياً متيناً، ومنحته اليوم صلابة وطنية وقومية متميزة، ومن الطبيعي أن يجعل ذلك كله من سورية في عهد الاستقرار السياسي المبني أساساً على الفهم الواضح لمهام حركة التحرر الوطني العربية وأهدافها النضالية المرحلية، بلداً متميزاً في تجربته الغنية ليس بين دول البلدان العربية فحسب، وإنما بين بلدان العالم النامي قاطبة.

من هذه المقدمات نستطيع أن نحدد بدقة علمية المهام الملقاة على عاتق حركة التحرر الوطني العربية في هذه المرحلة، مع أخذ وضعها الراهن وموازين القوى المتواجدة على الساحة العربية والدولية بعين الاعتبار، وهذا أمر بحسب علمي لا يزال مصدر اختلاف وجدل بين سائر فصائل الثورة العربية، ومن دون أن أدخل في تفاصيل هذا الموضوع، أستطيع أن ألقى بعض الأضواء على هذه المهام المرحلية من خلال التجربة الحكيمة والنضالية للقطر العربي السوري بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي وأمينه العام الرفيق المناضل حافظ الأسد، والجبهة الوطنية التقدمية في سورية.

لاشك في أن أمام كل حركة تحرر وطني في كل بلد عربي على حده، مهام قطرية خاصة تتمثل في مستويات ثلاثة تبعاً لأوضاع هذه البلدان المختلفة، فثمة على سبيل المثال مهام ملقاة على بعض حركات التحرر العربية تتحدد بالنضال من أجل إقامة دولة والحصول على الاستقلال السياسي، الأمر الذي يواجهه الشعب العربي الفلسطيني، وثمة مهام أخرى تتحدد مرحلتها بإنقاذ الاستقلال الوطني وإنهاء التبعية للاستعمار والسير بالبلاد في طريق التقدم الاجتماعي وعدم التفريط بالقضايا الوطنية كما في مصر والصومال والعراق والأردن، وثمة مهام أخرى تتحدد بالنضال من أجل التوجه نحو الاشتراكية وحماية المكتسبات الوطنية والمنجزات التقدمية في بلدانها، كما في سورية واليمن الديمقراطي والجزائر وهذا التنوع الخاص في مهام كل مرحلة لا يتناقض ولا يؤثر على المهام العامة التي تبرز أمام حركة التحرر الوطني العربية، بل يرتبط العام بالخاص بشكل جدلي، ويزيد الترابط الجدلي بين حلقاته، ولكن المهم اليوم هو معرفة الحلقة الرئيسية التي تشكل القاعدة الصلبة التي يمكن الانطلاق منها نحو الحلقات الأخرى، والتي يجب أن توحد فصائل الثورة العربية كافة، وتعمل على صب جهودها فيه.

ومن قراءة سريعة للواقع العربي الراهن والواقع الدولي العام، فإننا نجد أن النضال ضد الصهيونية والإمبريالية وخاصة الإمبريالية الأمريكية يشكل المهمة الأساسية والرئيسية أمام الشعوب العربية وحركة التحرر الوطني العربية، والنضال ضد الصهيونية الإمبريالية متنوع ومتعدد الجوانب، فالنضال من أجل قضية الشعب العربي الفلسطيني في حق تقرير مصيره وإقامة دولته الوطنية المستقلة، ونضال شعوب دول المواجهة ضد سياسة العدوان والتوسع الصهيونيين، يمكن

أن يشكلا في هذه المرحلة أحد أهم عوامل الوحدة في حركة التحرر الوطني العربية، كما أن النضال ضد سياسة الإمبريالية وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية، ومشاريعها الاستعمارية في المنطقة، وضد مخططاتها للسيطرة على العالم ومحاولاتها في توتير الوضع الدولي، يمكن أن يشكل هو الآخر، العامل الثاني المرتبط جدلياً بالعامل الأول، الذي يجب أن تنصب حوله جهود حركة التحرر الوطني العربي وتوحد فيه، ويمتزج بشكل قوي في هذين العاملين عامل ثالث هو النضال من أجل تعزيز علاقات الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية، والعمل على انسجام الاستراتيجية العربية مع الاستراتيجية السوفيتية من أجل السلام العالمي ودرء أخطار حرب نووية مدمرة.

ونحن في سورية حزباً وحكومة وجبهة وطنية تقدمية بقيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد، لا ندخر وسعاً أو جهداً في تعميق النضال وتطويره في سبيل هذه الأهداف المرحلية الرئيسية على الصعيد القطري الخاص والصعيد القومي العام، وتكاد تكون سورية ومعها الجماهير العربية البلد الوحيد الصامد الذي يحول دون انهيار الأمة ووقوعها كلية في أحضان الصهيونية والإمبريالية.

وإذا كان ثمة من معوقات أمام التوجه الاشتراكي وبناء الاشتراكية في قطرنا، فهي تعود بالدرجة الأولى إلى أن هذه المهمات الأساسية تستنفذ جميع طاقات القطر، وتؤلب على سورية الأعداء الداخليين والخارجيين بشكل لم يسبق له مثيل، الأمر الذي يعرقل إلى حد بعيد عملية التحويل الاشتراكي وبناء المجتمع الجديد، وليس تحرك الإخوان المسلمين بإشارة من الصهيونية والإمبريالية الأمريكية إلا إحدى المحطات على طريق الهجوم الشرس الذي

تقوم به هذه القوى مجتمعة ضد شعبنا وأمتنا، وعندما لم تنجح هذه العصابات المتآمرة في ضرب الوحدة الوطنية المتماسكة في سورية، كما لم تستطع إخضاع شعبنا وإذلاله للسير في ركب كامب ديفيد الساداتية، قامت إسرائيل بالتحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية والحلف الأطلسي بغزو سافر للبنان ذكر العالم أجمع بالوحشية النازية الهتلرية.

وإذا كان هذا العدوان قد كشف بصراحة واضحة ضعف حركة التحرر الوطني العربية، وسلبية الجماهير العربية المكبلة بالقيود ووسائل القهر العديدة، إلا أنه كشف عن طاقات كامنة عظيمة لدى جماهيرنا العربية عندما تنطلق من عقالتها، فتحت ضربات المقاومة الوطنية اللبنانية انسحب العدو الصهيوني من أجزاء من الأراضي اللبنانية التي احتلها، كما حدث على الساحة الفلسطينية فبرز القوى الرجعية عن القوى الوطنية التقدمية، واتخذت مواقف الصمود والتصدي مزيداً من القوة والصلابة، بفضل الموقف العربي السوري الوطني والقومي الصلب، وتعزيز قدراته عسكرياً واقتصادياً، من خلال توطيد علاقات الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي الصديق ومنظومة البلدان الاشتراكية الأخرى، وتكاد سورية تكون اليوم المعقل الوحيد لحركة التحرر الوطني العربية التي تنطلق من عاصمتها جميع نشاطات الأحزاب والتنظيمات التقدمية العربية من دون أن تضطر للتخلي عن أي من مواقعها أو أهدافها.

ويوماً بعد يوم تزداد عناصر التفاؤل بالمستقبل، وتتضاعف الثقة بقدره حركة التحرر الوطني العربية على الانتصار على أعدائها، وتلتف حولها قطاعات واسعة من الجماهير العربية رغم واقع التجزئة والإقليمية والعزلة التي تفرضها الأنظمة العربية الرجعية على بلدانها، وإذا كنت بطبعي متفائلاً بمستقبل

الشعوب، إلا أنني لا أضع تفاؤلي هذا حبيس الأوهام، فقد ذكرت كثيراً من الوقائع والأفكار التي تؤكد أن هذه الحركة ما تزال بخير رغم طوفان الارتداد الذي تشهده المنطقة، وبرغم شراسة الهجوم الإمبريالي الصهيوني عليها، ورغم استنزاف طاقات بعض البلدان العربية في حروب مجانية لا معنى لها، فإمكانيات شعبنا العربي وتطلعاته نحو التحرر والتقدم لا تحسد، كما يؤكد ذلك الجنوب اللبناني المقاتل وكما يؤكد واقع حركة التحرر الوطني العربية الحالي، الذي يشهد تنامياً كفاحياً متصاعداً ويحقق الانتصار تلو الانتصار، ينعكس بهذا الشكل أو ذاك في الانتفاضات الثورية المتلاحقة في عدة بلدان عربية، من بينها بلدان توحى أنظمتها بأنها مستقرة وأزلية غير قابلة للتغيير.

المحاضرة الثانية

أربعون عاماً..

على انتهاء الحرب العالمية الثانية

والقوة العالمية الجديدة

1985

أيها الرفاق والرفيقات..

في هذه الأيام السعيدة تحتفل البشرية التقدمية جمعاء، بالذكرى الأربعين للانتصار على الفاشية، ونهاية الغزو الهتلري لأوروبا، وانهيار الدولة النازية انهياراً نهائياً، وذلك بعد حرب بطاحنة دامت ست سنوات، لم يشهد التاريخ لها مثيلاً من قبل، حرب وضعت الحضارة البشرية برمتها على حافة هوة سحيقة، فأزهقت فيها أرواح عشرات الملايين من البشر، وراحت حطاماً لحريقها عشرات الألوف من المدن والقرى.

ففي مثل هذه الأيام أتمت القوات السوفيتية المسلحة وقوات الحلفاء وقوى التحرر الشعبية في أوروبا دحر الفاشية، وتمكن الجيش الأحمر السوفيتي بعد كفاح مرير من دخول برلين في أيار عام 1945 وإنهاء سحق الفاشية الألمانية في أوكارها، وكانت النهاية السعيدة المبهجة التي طال انتظارها وتعلقت بها آمال وتطلعات البشر في كل مكان، بعد أن كلفت الشعوب قاطبة بما فيها الشعوب الواقعة تحت حكم الفاشية أفدح الأثمان، والأضرار ما تزال أرقامها إلى يومنا هذا تثير الألم والرعب في آن واحد.

وفي هذه المناسبة العظيمة، رغم ما تحويه من فرح وسعادة عميقتين، تسترجع الإنسانية بمرارة السنوات السوداء العvisية، التي مرت على العالم في فترة من أحلك فتراته، قاده إليها الفاشية المجرمة، سيما للقضاء على أول دولة اشتراكية في العالم، والسيطرة على مقدرات الشعوب وإيقاف حركة التاريخ وتقدمه، فهذه الحرب الضارية التي هدمت كل شيء، تستحق أن يستعد لها المرء في ذهنه على الدوام، حتى يستوعب التجارب الإنسانية المؤلمة التي مضت، ومن ثم يدرك مخاطر الحروب المماثلة المحتملة، طالما أن أعداء الشعب

والفاشيين الجدد لم تجتث شأفتهم، كما لم تنته محاولاتهم الحثيثة لإثارة النزاعات المسلحة والحروب. فيتذكر البشر بالتالي أهمية الحرب الوطنية العظمى التي خاضتها شعوب الاتحاد السوفيتي والمصير الذي آلت إليه أطماع السيطرة، هذه الأطماع التي ساقطت عصابات الهتلريين والفاشيين المناصرين إلى إشعال حريق عالمي كاد أن يأتي على الأخضر واليابس ويدمر الحضارة الإنسانية برمتها.

إن نظرة عابرة على الأرقام قد لا تعطي صورة واقعية دقيقة عن ويلات هذه الحرب الرهيبة. فغالباً ما تكون الأرقام الساكنة مفتقرة إلى الآثار غير المرئية التي ترتبت عليها، بيد أنه، وربما كان هذا من حسن الحظ، فقد هي لهذه الحرب ذاكرة خصبة قوية لم تتمتع بها حرب أخرى، استطاعت أن تثبت إلى الأبد أبشع صور الوحشية والدمار إلى جانب أروع صور البطولة والتضحيات. لكن المغزى الكبير الذي نستطيع أن نستخلصه من هذه الأرقام أنه ما من بلد أو شعب تحمل أعباء هذه الحرب المريعة، وقدم في سبيلها التضحيات البالغة، وكان له أوفر الجهود والإسهامات في سحق الفاشية التي كانت تهدد البشرية دون استثناء، قدر ما تحمل وقدم وبذل شعب الاتحاد السوفيتي.

هذه حقيقة تاريخية أضيفت إلى خزائن التجارب الحية لشعوب العالم، فأربع سنوات من عمر الحرب إنما دارت وحتى معاركها على الأراضي السوفيتية مباشرة، واستشهد فيها أكثر من عشرين مليوناً من المواطنين السوفيت على الجبهات وتحت أنقاض المدن والقرى، وفي المجازر الجماعية الوحشية التي ارتكبها المحتلون النازيون في السجون ومصانع التعذيب الهتلرية السوداء، ولقد غابت عن وجه الأرض سبعون ألف مدينة وقرية وفقدت البلاد ما

يقدر بـ/30/ بالمائة من ثروتها القومية، في الوقت الذي لم تلق فيه على أراضي الولايات المتحدة الأمريكية الحليفة قبلة طائرة، كما لم تسقط على مدنها ولا قذيفة مدفع واحدة، وكان مجموع ما تكبدته انكلترا من قتلى خلال سني الحرب كلها لم يزد على /265/ ألف شخص.

ومن هنا اكتسبت هذه الحرب بحق وجدارة اسم الحرب الوطنية العظمى عند الأصدقاء السوفييت، لقد تطلبت مقاومة الفاشية في أوروبا والانتصار عليها من الاتحاد السوفيتي تعبئة قوات مسلحة ضخمة ووسائل مادية هائلة وخسائر بشرية فادحة، خلص بها حرباً هي من أكثر الحروب في التاريخ ضراوة ودموية على الإطلاق، وسطر بها أروع ملحمة في التاريخ، بينما جنت شعوب العالم كافة ثمار هذا النصر الكبير، فاحترقت أوراق ومشاريع العصبة الهتلرية الفاشية التي خططت لمصير أوروبا والعالم، وحصلت غالبية البلدان الراضحة تحت نير الاستعمار الغربي الكلاسيكي على استقلالها، كان قطرنا العربي السوري، على رأسها عندما تحقق استقلاله بجلاء قوات المستعمرين الفرنسية والإنكليزية عن أراضيه، في أعقاب الحرب مباشرة بتأييد ومساندة الاتحاد السوفيتي، نصير الشعوب والكادحين في الأرض، وبنضال الشعب العربي السوري وتضحياته الجمة في سبيل حريته واستقلاله.

لقد كان القضاء على الفاشية بسبب الظروف التي نشأت عنها الحرب والنتائج التي تمخضت عنها، أمراً تاريخياً مقدراً على الشعوب، فمع تمكن الفاشية من الاستيلاء على السلطة في إيطاليا وإقامة دكتاتورية موسوليني في سنة 1922 وصعود النازية الألمانية مدعومة بالبرجوازية الاحتكارية المغرقة في العنصرية والشوفينية، ووصول هتلر إلى الحكم عام 1933 قامت الفاشية

الألمانية والإيطالية بالتحضير الدؤوب للحرب جاعلة من أوروبا مسرحاً وبؤرة لها، وكان لابد لها قبل ذلك من القضاء على الديمقراطية البرجوازية واضطهاد الجماهير والطبقة العاملة اضطهاداً وحشياً، ومناسبة الاشتراكية والشعوب الأخرى العداوة والكراهية، بينما جرت لها مآزق الحكم الكلاسيكي للبرجوازية، والروح العسكرية المغامرة وأزمات الرأسمالية العالمية الحادة، إلى اللجوء لأساليب الحكم الإرهابية في السياسة الداخلية، وأساليب المساعدة السافرة لسيطرة الفاشية على أوروبا وعدد آخرين من البلدان في السياسة الخارجية، فلم تقتصر الفاشية قبيل الحرب العالمية الثانية على ألمانيا وإيطاليا بل تعدتها إلى اليابان وبولونيا وبلغاريا وأسبانيا.

وكان الرد الطبيعي على ذلك ظهور ونمو الحركات المناهضة للفاشية داخل هذه البلدان وخارجها، موحدة الصفوف بهدف النضال من أجل الحرية والديمقراطية والسلم، فتشكلت الجبهات الشعبية في بلدان عديدة ووصلت إلى أوج نشاطها عندما تمكنت الجبهة الشعبية في فرنسا من الوصول إلى الحكم عام 1936 عن طريق الانتخابات البرلمانية، بينما دخلت الجبهة الشعبية المعادية للدكتاتورية الفاشية في أسبانيا في حرب أهلية دامية دامت ثلاث سنوات من عام 1936 إلى عام 1939، أي قبيل اندلاع نيران الحرب العالمية في أيلول عام 1939 عندما اجتاحت الجيوش الهتلرية بولونيا.

كانت بلادنا سورية في ذلك الوقت رازحة تحت نير الاحتلال الفرنسي، لكنها لم تكن في معزل عما يجري في العالم من أحداث، ويعود ظهور الحركة المناهضة للفاشية في سورية إلى أوائل الثلاثينيات، مترافقاً مع اشتداد النهوض الوطني الجماهيري، حيث تبلورت عام 1937 في منطقة حملت اسم "عصبة

مكافحة الفاشية" أخذت تعبر عن آرائها في المؤتمرات والصحف والكتب والاحتفالات الجماهيرية وقد ضمت إليها العديد من الأدباء والمفكرين والصحفيين والمحامين والمهندسين والتجار والملاك. وهكذا فقد شهدت سورية ولبنان أثناء اعتقال المناضلين جورج ديمتروف وأرنست تيلمان احتجاجات واسعة ومظاهرات شعبية، كما قامت حملة واسعة من أجل تأييد الجمهوريين الإسبان، وتطوع العديد من أبناء الشعبين السوري واللبناني للنضال إلى جانبهم ضد قوات فرانكو.

ومع بداية الحرب وأثنائها كثفت الحركة المعادية للفاشية من نشاطاتها ونضالاتها رغم التدابير الإرهابية الفاشية التي اتخذتها سلطات الاحتلال الفرنسي الفيشية، واستطاعت أن تربط بإحكام بين نضالها ضد الفاشية وتعريضها، ومطالب حركة التحرر الوطني ونضالها من أجل الاستقلال، فوقفت بقوة في وجه الدعايات الفاشية التي حاولت استغلال الشعور الوطني المعادي للاستعمار الفرنسي وإظهار هتلر كمنقذ ومخلص للشعوب، وطالبت بالهدف الأكبر للإنسانية، وهو القضاء على خطر النازية الألمانية البغيضة. وذلك دون أن تقع في خطأ تناسي أو تجاهل السياسة الاستعمارية التي تسلكها كل من فرنسا وبريطانيا في الشرق العربي رغم كونهما في حلف معاد للنازية، كما عبرت عن رؤيتها الطبقة الثاقبة بأن الاتحاد السوفيتي هو أعظم وأقوى دعامة لكل حركة تحرر وطني تقوم في الشرق، وعلقت أغلى الأمان على انتصاره في حربه مع ألمانيا النازية، ولم يغب عن ذهنها الربط المحكم بين السياسة التوسعية والعنصرية لكل من النازية والصهيونية رغم الصراع المحتدم بينهما، وهذا ما أثبتت الحياة مصداقية، فمعاناة الشعب العربي في ظل الاحتلال الإسرائيلي

وفي ظل الاعتداءات العدوانية التوسعية المتكررة عليه، لا تقل أبداً عن معاناة شعوب أوروبا تحت النير النازي، فالنازية الصهيونية وجهان لعملة واحدة، وبطبيعة الحال فقد أهل هذه المعركة لدور آخر داخل حركة التحرر الوطني، التقت فيه بعد الحرب ونيل الاستقلال طريق التحرر الوطني مع طريق التحرر الاجتماعي.

أيها الرفاق والرفيقات..

أيها الأخوة والأخوات..

إن قضايا الحرب والسلام تشغل اليوم الحيز الأكبر من اهتمام الرأي العام العالمي أكثر من أي وقت مضى، فسباق التسليح يدخل في عصرنا هذا مرحلة جديدة نوعياً وأكثر خطورة يتجلى في محاولات عسكرية الفضاء الخارجي، ويتجسد في القدرة التسعيرية الهائلة التي كدستها الدول النووية والتي تفوق مليون مرة قدرة اللهب الذي قتل فيه /108.956/ إنساناً من سكان هيروشيما بفعل أول قنبلة ذرية قتها الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية الحرب العالمية الثانية ولم يكن لها ما يبررها من وجهة النظر العسكرية، وهذا في رأي العلماء يكفي لإزالة الحضارة البشرية إن لم يكن يكفي لإزالة الحياة من الأرض.

ونتيجة لسياسة الإمبريالية العالمية الرعناء وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية، بعدما فقدت دونما رجعة قدرتها السابقة على التحكم بمصائر العالم بوصفها الأقوى، يتعرض السلام العالمي اليوم لخطر هو الأكثر حدة منذ الحرب العالمية الثانية ويتهدد البشرية خطر الفناء النووي، فبعد الانتصار على الفاشية، وتفكك الإمبراطوريات الإمبريالية القديمة، وانتشار الاشتراكية في

بلدان أخرى وتوطيد النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي كقوة جبارة للتطور الاجتماعي والدفاع عن مصالح الشعوب الحيوية، ازداد نفوذ الأفكار الاشتراكية في العالم وأخذت تشع وتنتشر في أركان المعمورة فاتحة أمام البشرية آفاقاً وإمكانيات واسعة لتحقيق مكتسبات جديدة من أجل السلام والتقدم الاجتماعي.

الأمر الذي يرى فيه الزعماء الإمبرياليون تهديداً جديداً لمصالحهم ومشاريعهم في السيطرة على العالم والتصرف به، أو الحفاظ على مواقعهم فيه، لاسيما أن حدود إمكانات النظام الرأسمالي قد ضاقت، وانخفضت فاعلية طرقه وأساليبه الاستعمارية القديمة والجديدة.

من هنا تكتسب خطورة مبالغة محاولات الإمبرياليين لتصعيد التوتر في عصرنا هذا، مع عجلة سباق التسلح المضطرد الذي يزيد من خطر الحرب كل يوم، وكذلك محاولاتهم لكسر التوازن القائم بين الخندقين، على اعتبار أن الاستعداد للحرب وإن لم يستطع إرجاع التقدم الاجتماعي إلى الوراء، إلا أنه يشكل عائقاً جديداً في مسيرة الدول الاشتراكية على طريق تنمية قدراتها الاقتصادية والاجتماعية ومساعدة الشعوب وتقديم الدعم لها، عندما تجد نفسها مدفوعة إلى التسلح لأنها لن تسمح بالإخلال بالتوازن القائم، فأى إخلال سوف يقوم به حلف شمال الأطلسي سوف يستعاد من جانب الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية إلى ما لا نهاية.

وهكذا فإن سباق التسلح والاستعداد للحرب يلتهم موارد وخيرات هائلة كان بالإمكان استخدامها لنفعة البشرية وتخليص مئات الملايين من الجوع والمرض والبطالة، ومواجهة مشكلات الطبيعة والبيئة كالتصحر والتلوث،

وتتحمل الإمبريالية وحدها مسؤولية استنفاد الثروات الطبيعية للعالم وهدر ثمار الثورة العلمية والتقنية ودفعها باتجاه التهديم بدلاً من البناء.

وإننا لعلّى ثقة من أن الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية، لن يدخر جهداً في سبيل صون السلام على كوكبنا، ووقف سباق التسلح وعدم استخدام الفضاء الخارجي للأغراض العسكرية، وتسوية المسائل المتنازع عليها بالطرق السلمية، وقد قوم العالم المحب للسلام تقويماً عالياً لقرار الاتحاد السوفيتي عام 1982 في ألا يكون البادئ في استخدام السلاح النووي من طرف واحد، ومن جانبنا نحن في الجمهورية العربية السورية فقد أكد البيان الختامي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي المنعقد مؤخراً في دمشق أن (حالة التوتر التي تسود العالم في الوقت الراهن ما هي إلا نتيجة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية وانعكاساتها على الأمن والسلم الدوليين وعلى الاقتصاد العالمي وبلدان العالم الثالث وبصورة خاصة على منطقتنا وعلى ساحة الصراع العربي-الإسرائيلي، كما استعرض المؤتمر بارتياح السياسة السلمية للاتحاد السوفيتي ودول المجموعة الاشتراكية وقوم عالياً موقف الدعم والمساندة الذي تقدمه البلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي الصديق والذي تربطه مع سورية معاهدة الصداقة والتعاون).

أيها الرفاق والرفيقات..

أيها الأخوة والأخوات..

إن الاستعداد للحرب وتسمم الأجواء بها، يترافق مع اشتداد التهديدات الأمريكية وبالتدخل الاستعماري الجديد في شؤون البلدان النامية في محاولة لكبح تطلعات شعوبها الإنسانية نحو الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية،

فالشبكات الكثيفة من القواعد والمنشآت العسكرية التي أنشأتها الولايات المتحدة الأمريكية في جميع مناطق العالم ذات الأهمية الاستراتيجية، والأسلحة الصاروخية التي تزرع بها أراضي أوروبا الغربية بإفراط شديد والآلية العسكرية الجوّالة المكونة من الأسطول البحري ومشاة البحرية رغم أنها موجهة بالدرجة الرئيسية نحو البلدان الاشتراكية، إلا أنها تستخدم عملياً في إرهاب الأنظمة التقدمية ومساندة أنظمة الحكم الرجعية وضرب العمليات التحررية المعادية للإمبريالية، ولذا في الغزو الإسرائيلي الأمريكي الأطلسي الوحشي للبنان عام 1982 خير مثال على ذلك، فهو من حيث الواقع العملي تحالف عسكري سياسي تتطابق فيه مطامع الولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها في الهيمنة على المنطقة مع أهداف إسرائيل التوسعية فيها.

وبهذا الصدد يقول الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي - رئيس الجمهورية العربية السورية.

"ولكن الولايات المتحدة لم تكتف فقط بأنها تخلت عن التزاماتها، لم تكتف فقط بأنها رفضت أن تعطي أي اهتمام للكلمة أو الكلمات التي التزمت في إطارها إنما فعلت عكسها تماماً، وقامت بغزو آخر مع شركاء آخرين لأن الغزو الأول كان إسرائيلياً أمريكياً، وكما أشرت منذ أيام قليلة، ليس المهم الشكل الذي اتخذ في إطاره قرار الغزو، إنما المهم أنه بعلم متبادل ومشترك، وبمعرفة متبادلة ومشتركة حدث الغزو للبنان، والغزو الأمريكي الثاني المباشر كان كما قلت مع شركاء آخرين هم الحلفاء في حلف الأطلسي".

ويتكرر هذا المثال في مناطق عديدة من العالم حيث تعتمد الإمبريالية الأمريكية إلى إثارة النزاعات الإقليمية وشن الحروب بالوكالة، معتمدة على

استخدام دول عميلة عنصرية مثل إسرائيل وجنوب أفريقيا وبعض بلدان أمريكا اللاتينية والتي لا يستبعد أن بعضها يمتلك أسلحة نووية خاصة لن يتردد في استخدامها ضد حركات التحرر في مناطقهم.

وتكاد الولايات المتحدة الأمريكية تنفرد بين سائر البلدان الأخرى بتشكيلها قوات الانتشار السريع وكذلك تشكيل ما يسمى بالجيش السري والتي لا تخفي الدوائر العسكرية الأمريكية حقيقة هجماتها وهي احتلال حقول النفط والمراكز الاستراتيجية ومد يد العون للحكومات والأنظمة العميلة في حال تعرضها للخطر، كما حصل في جزيرة غرينادا مؤخراً .

والحق يقال إن هذا الأسلوب الإمبريالي ليس جديداً على كل حال، وإن كان في هذه الآونة يتخذ سمات رجل الكابوي الوقح، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى عام 1982 اندلع /148/ نزاعاً مسلحاً محلياً في آسيا وأفريقيا اللاتينية. وفي /64/ حالة شاركت فيها القوات المسلحة لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا وفرنسا، وقد اشعل بعض هذه النزاعات صنائع الإمبريالية مثل إسرائيل وجنوب أفريقيا، وخلال الفترة من عام 1946 إلى عام 1975 وحدها قتل في مثل هذه الحروب زهاء عشرة ملايين إنسان. وأي رقم نستطيع أن نضيفه إلى هذا الرقم من خسائر الحروب المماثلة إلى نشبت من عام 1975 إلى عامنا هذا، فإنه سوف يبدو لنا جلياً أن العالم يعيش فعلاً حرباً عالمية غير معلنة تفجرها الإمبريالية على دفعات، لم يكن النصر حليفها في جميع الأوقات. وإذا كان علينا هنا أن نذكر مثلاً رائعاً على ذلك، فسوف نذكر باحترام شديد الانتصار الكبير الذي حققه الشعب الفيتنامي البطل على الغزاة الأمريكيين، والدرس الذي لقنه لجيش الولايات المتحدة

الأمريكية ومرغ سمعته وجبروته في الوحل. كما نستطيع أن نذر بفخر واعتزاز الدرس اليومي الذي تلقنه المقاومة الوطنية اللبنانية في الجنوب للمحتل الإسرائيلي، وقبله الهزيمة النكراء السياسية والعسكرية التي ألحقتها سورية والمقاومة الوطنية اللبنانية للقوات الأمريكية والأطلسية الغازية.

إن أعمال الإمبرياليين العدوانية المتكررة والمتزايدة في منطقتنا العربية وأمريكا الوسطى وجنوب أفريقيا ومناطق أخرى من العالم، لم تمنع تعاضم واستمرار دور حركات التحرر الوطني والبلدان النامية في الدفاع عن السلام العالمي، قضية العصر الأولى، ولم يعد من الصعب على هذه الحركات والبلدان أن تربط أكثر فأكثر بين أهداف نضالها التحرري الوطني والاجتماعي بين نضالها في سبيل الدفاع عن السلام وصونه.

ولقد برهن الزمن أن نجاحات هذين الطريقتين لا انفصال ولا تعارض بينهما، وقد كان اجتماع قادة دول عدم الانحياز الأخير في دلهي مؤشراً مهماً على طريق تعزيز الميول المعادية للحرب والإمبريالية العالمية، لقد أكد الرفيق المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي - رئيس الجمهورية العربية السورية في مناسبات عديدة أن صراعنا مع الكيان الصهيوني هو صراع وجود وليس صراع حدود، وإن هذا الكيان هو صنعة إمبريالية تقوم بدور العسكري المسلح لحماية المصالح الاستعمارية للإمبريالية العالمية، ومن ضمنها القضاء على أي حركة تحرر عربي تقوم في المنطقة.

هكذا فهمنا العدوان الإسرائيلي على البلدان العربية عام 1967 وهكذا أيضاً فهمنا الغزو المشترك للبنان عام 1982.

يقول القائد المناضل حافظ الأسد: "إن التدخل الأمريكي في لبنان بلغ حداً خطيراً تبلور بشكل أصبحت معه الولايات المتحدة الأمريكية طرفاً ثابتاً في الحرب الأهلية في لبنان. إن هذا الأمر يشكل فضيحة كبرى بالنسبة لهذه الدولة الكبرى، وهو عدوان صارخ، وإن على الأمة العربية جمعاء أن تقف ضد عدوان الولايات المتحدة، إن تصرفات الولايات المتحدة إن دلت على شيء فإنما تدل على حقد لا حدود له تحمله الولايات المتحدة الأمريكية على هذه الأمة التي نحن جزء منها".

إن القائد المناضل حافظ الأسد يقود اليوم أكبر معركة في التاريخ العربي الحديث، داخل الواقع العربي المشتت، الذي استطاعت الإمبريالية التسلل إليه وتمزيقه، وهو بهذا يساهم مساهمة فعالة في قضية السلام العالمي، لأنه لن يكون هناك سلام مع المستعمرين والغاصبين، وإننا نحن كجماهير عربية، نسير وراء قائد الأمة، الذي عبر أروع ما يكون التعبير، إن شعب سورية والجماهير العربية لا ترهبها الأساطيل ولا حاملات الطائرات، وأن أقوى القنابل وأذكاها في إرادة الشعوب التي لا تقهر والتي تشكل المنحى المتصاعد للحياة نحو خير البشرية وحريتها، إن قيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد لامتنا هو نتيجة طبيعية لاختيار الجماهير من حب وطوعية وتقدير لسيادته، وهذه قناعة ثابتة وصلت إلى حد الإيمان المطلق بجدارة القائد حافظ الأسد لزيادة الوطن والأمة العربية، فقراراته تنبع من إرادة الجماهير وأهدافها وهي المحققة لإرادة واختيار الجماهير التي تلتف حول قائدها والتي عبرت عن ثقتها وإيمانها في /10/ شباط بقول نعم لقيادته الحكيمة وإلى الأبد.

أيها الرفيقات، أيها الرفاق..

أيها الأخوة والأخوات..

إننا نعتقد جازمين أن عالم اليوم هو غير عالم الأمس، وإن الزمن الذي كانت تستطيع فيه عصابة الضواري الاستعمارية إخضاع العالم والتلاعب بمصائر شعوبه قد ولى دون رجعة مع الرصاصات الأخيرة التي أطلقت في اليوم الأخير من أيام الحرب العالمية الثانية، ولا نقول هذا الكلام اعتباطاً، لأن عالم اليوم، كما قلت، هو غير عالم الأمس بالتأكيد، والقوى الإمبريالية والفاشية لن يقدر لها أبداً القيام بالدور السابق نفسه الذي لعبته الفاشية في الماضي، وسيكون مصيرها في مزبلة التاريخ.

إن توطد الاشتراكية القائمة ونمو القدرة الدفاعية المضطرد للاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية عموماً، وتعاظم نجاحات وانتصارات حركات التحرر الوطنية في بعض البلدان النامية، واغتناء ونمو الحركة المعادية للحرب والتي تشمل الكرة الأرضية بأسرها، كل ذلك يخلق حصناً منيعاً لا يقهر للسلام العالمي، استطاع أن يحمي العالم منذ أربعة عقود ماضية من محاولات الإمبرياليين إشعال حرب عالمية جديدة، ويستطيع أن يكون العامل الأكثر حسماً في الدفاع عن مستقبل البشرية ودرء الصدام النووي، وتجنب العالم كارثة هيروشيما المأساوية.

ولاشك فإن القوى المناهضة للإمبريالية سوف تتعاظم أكثر فأكثر في المستقبل مهما زادت حدة الهجمة الإمبريالية، فليس هناك أي بديل آخر أمام البشرية يمكن أن يحل محل التقدم والاشتراكية.

في الختام، أوجه التحية إلى جميع شهداء الحرية الذين سقطوا في الحرب ضد الفاشية، تحية إلى المناضلين في جنوب لبنان الذين يسطرون بدمائهم

وفدائهم أروع آيات البطولة ضد الغزو الصهيوني المدعم من الإمبريالية الأمريكية.

وأخيراً وليس آخراً أرفع أسمى آيات العرفان والتقدير والمحبة لقائد مسيرتنا الرفيق المناضل حافظ الأسد وتهنئة له من القلب بتجديد البيعة له قائداً ورائداً لنضال أمتنا العربية التي هي أحوج ما تكون لقيادته الشجاعة الحكيمة في هذه الظروف العصيبة.

تحية إلى الاتحاد السوفيتي وقادته الذي لا يألون جهداً في سبيل الوقوف إلى جانب الحق العربي ضد الإمبريالية والصهيونية.
تحية إلى جميع الذين يبذلون جهودهم في سبيل الدفاع عن السلام العالمي.



الفصل السادس

الشهادات

١- أدباء، كتاب، ساسة، ضباط في الجيش

رجل الوطنية .. والأدب

حسن عبد العزيز العلي¹

لستُ من الفئة العمرية التي ينتمي إليها اللواء السابق والسياسي والكاتب المهم محمد إبراهيم العلي ، فقد سمعت به لأول مرة عندما كنت في بداية المرحلة الإعدادية يوم صدر عليه حكم بالإعدام على أثر رفضه لجريمة الانفصال التي قوضت أول وحدة عربية في تاريخنا المعاصر تمت بين مصر وسورية ، يوم قاد تمرداً ثورياً كان يهدف إلى الإطاحة بحكومة الانفصال وإعادة الوحدة بين القطرين الشقيقين مصر وسورية، إلى ما كانت عليه قبل 28 أيلول 1961 يوم حدوث تلك الجريمة.

أتذكر في تلك الأيام أنني شاركت في مظاهرة طلابية تدعو إلى رفض حكم الإعدام الصادر بحق الملازم أول محمد إبراهيم العلي الذي بدا في تلك المرحلة وكأنه رمز لكل من أحب الوحدة وعبد الناصر، وقد تأجل تنفيذ الحكم

¹ باحث في مركز الرأي السوري للاستطلاع والدراسات.

بحقه أكثر من مرة على أثر ضغوط شعبية واسعة ، حتى جاءت ثورة 8 آذار 1963 التي غيرت المسار وأطاحت بحكم الانفصال وخرج على أثرها من السجن ليعود إلى الحياة العملية حيث كانت الفترات التالية زاخرة بعطاءات متنوعة وربما لم تك متوقعة.

تعرفت إلى ذلك الشاب النحيل الملازم أول المظلي محمد إبراهيم العلي لأول مرة بعد أشهر قليلة على قيام ثورة الثامن من آذار ، في منزل أحد أقاربي الذي كان يسكن معه يومها في بيت واحد ، والذي كان أحد المنفذين المباشرين لثورة 8 آذار 1963، وهو "الخال" الملازم أول عبد الرزاق العلي، الذي حدثني عنه "أبو الندى" أنه كان أول من دخل سجن المزة العسكري بحثاً عنه برفقة الضابط عبد الكريم الجندي، وهما اللذان اقتحما الزنزانة التي كانت مخصصة له في ذلك السجن، لقد عجبْتُ من خلال حديثه يومها باندفاعه وآفاق تأملاته عن المستقبل القادم.

لم أعد أراه بعد ذلك سوى في فترات متقطعة ، حتى تم تعيينه لاحقاً قائداً للحرس القومي ومنظمات الفتوة، وكنت يومها طالباً في بداية المرحلة الثانوية، ومنظماً بطبيعة الحال إلى الحرس القومي ومنظمات الفتوة، التي كانت موجودة في تلك الأيام.

كنت أتعجب من متابعتنا في المعسكرات وفي أثناء التدريب، وكيف كان يوزع وقته لمثل هذه المتابعات ، ليس في دمشق فحسب بل على مستوى القطر، وأذكر أنه أول من اقترح أن تجرى دورة صاعقة للفتيان التي لاقت ترحيباً واسعاً من الشباب المندفع إلى حب الثورة والمغامرة معاً.

كنت واحداً من الذين تم اختيارهم لهذه الدورة، بسبب لياقتي البدنية ، وقد تلقينا فيها تدريباً قاسياً في كتيبة المغاوير في القابون الذي كان يقودها يومها الرائد سليم حاطوم، وتخرجنا منها بعد تنفيذ بيان عملي بالذخيرة الحية، كان الضابط المظلي محمد إبراهيم العلي يشرف شخصياً على تنفيذ هذا البيان، الذي منحنا بعده الشهادات المخصصة للذين اتبعوا هذه الدورة واجتازوا مراحلها بنجاح.

بعد هذه المرحلة قلما كنت أراه، فقد كان منشغلاً بشكل دائم، ليس بالعسكرة فقط، بل بالسياسة أيضاً، وبحسب علمي أنه لعب أدواراً كثيرة وليس دوراً واحداً خلال الأزمات السياسية التي ظلت تعصف بالحزب والسياسة السورية منذ عام 1963 إلى عام 1970، إذ إنه كثيراً ما كان يلعب دور الوسيط بين الأجنحة المتصارعة في الحزب في تلك الفترة، سواء في أثناء حركة 23/شباط 1966 وأم في الحركة التصحيحية التي أعلنت عام 1970.

بعد عام 1970 تغيرت الظروف كثيراً وتسلم مهمة قيادة الجيش الشعبي على مستوى القطر "بمرتبة وزير"، حيث تحول الجيش الشعبي لاحقاً إلى جيش رديف كامل للقوات المسلحة النظامية ، وبات له تشكيلات عسكرية واسعة في مختلف المحافظات، وإلى جانب ذلك لم يترك العمل السياسي الذي أعدّه بمثابة "عمل الظل"، وكانت له مهام كثيرة كلف بها من قبل القيادة نظراً لكاريزما التي يتمتع بها والتي تشير إلى أنه "رجل مصالحات"، ويتمتع بقدرة فائقة على الحوار والإقناع ، لذلك كثيراً ما كنا نراه على احتكاك وتواصل دائم مع أغلب قيادات الصف الأول من المسؤولين داخل القطر ، وكان على اطلاع على كثير من الأسرار التي لا يعرفها إلا قلة غيره، ربما ساعده تاريخه السابق كضابط لامع

في المظاهرات ومن ثم حركة التمرد الثوري التي قادها ضد الانفصال على ما اضطلع به لاحقاً من مهام مختلفة.

عاصر الكثير من القادة والزعماء الكبار بشكل مباشر وكانت فاتحة نشاطه في هذا المجال يوم قفز بالمظلة في استعراض عسكري أيام الوحدة بحضور الرئيس جمال عبد الناصر الذي أبدى إعجابه بشجاعته وسأل عنه ، وبعد أن عرف أنه من سورية قال للحاضرين: "هذا بطل من الإقليم الشمالي"، وقد روى لي أبو الندى كيف استدعي من قبل القصر الرئاسي يومها وأبلغ بأنه سوف يكون مرافقاً لعبد الناصر، إلا أنه عندما قابل الرئيس عبد الناصر لهذا الشأن اعتذر عن هذه المهمة بقوله: "سيدي الرئيس أنا ضابط مظلات ، أحلامي تتلخص بأن أبقى مقاتلاً أقفز بمظلتي خلف خطوط العدو واشتبك معه في ساحات القتال"، وكما قال لي: "إن عبد الناصر استقبل موقفه هذا بابتسامة ورضا"، وفوجئ أبو الندى بعد أيام بأنه تمت ترقيته من قائد فصيلة إلى قائد سرية ، ولكنه لم يجزم أن ذلك مرتبط بهذه القضية.

لم تتوقف أنشطته ومقابلاته لكبار المسؤولين عند عبد الناصر ، ومختلف المراتب العليا في سورية، من قيادات سياسية وعسكرية بعد 8 آذار 1963، بل تجاوز ذلك إلى الفضاء الدولي ، فكانت له لقاءات مع قادة عالميين يعرفهم القاصي والداني، أذكر منهم على سبيل المثال "هوشي منه" قائد الثورة الفيتنامية، و"فان دونغ" رئيس وزراء فيتنام، و"شو آن لاي" رئيس دولة الصين، و"كيم إيل سونغ" رئيس ومؤسس كوريا الشمالية، ووزراء الدفاع في الاتحاد السوفيتي وألمانيا وكثيرين غيرهم لا تحضرني أسماؤهم .

بدأ محمد إبراهيم العلي الكتابة الأدبية الروائية عام 1977، وكانت أولى رواياته "المرابي" المؤلفة من خمسة أجزاء ، تبعتها رواية "الطغيان" وهي ثلاثة أجزاء، وتالت هذه الروايات التي كان منها "الذئاب" و"القناديل" المؤلفة من جزئين، ولا ننسى رواية "التحول الكبير" الذي أعدها من أهم الروايات التي كتبها، إضافة إلى مجموعة قصص أخرى تحت عنوان "شوك الدردار" ، أما ثلاثية "حياتي والإعدام" التي ستصبح رباعية ، وها أنا أكتب هذه الشهادة لنشر في ملحق جزئها الرابع ، فكانت مختلفة عن نمط الكتابات التي سبقتها ، من حيث تأريخها وتوصيفها لمختلف الأحداث العسكرية والسياسية التي تلت الانفصال ، والتي كانت بقيادته الشخصية مع مجموعة من رفاقه الضباط الذين تصدوا لجريمة الانفصال وأرادوا إعادة الوحدة العربية بين مصر وسورية إلى عهدهما السابق ، وهذه الرباعية مليئة بالأحداث المشوقة، حتى لكأن من يقرأها يشعر أنه أمام فيلم سينمائي من الأفلام المشوقة التي كنا نشاهدها في منتصف ستينيات القرن الماضي، وفيها الكثير من الأحداث والأسرار والمواقف التي تحبس الأنفاس ، ولا تخلو من مغامرات شجاعة تصل حافة الهاوية في كثير من الأحيان، وهنا أذكر أن مجموعة الروايات التي كتبها تزيد عن 15 رواية ، لا أذكرها جميعاً.

هذا غيض من فيض ، مما أعرفه، عن محمد إبراهيم العلي، وعن فكره الموسوعي ومعرفته بتفاصيل الحياة السورية من خلال علاقاته بكل أطراف المجتمع السوري وعشائره ومذاهبه واتجاهاته تساعده على ذلك ذاكرة نافذة "مصممة ضد النسيان".

لقد حدثني مثلاً عن قريتي "خرايب سالم"، التي ولدتُ فيها، وعشتُ فيها أكثر من عشر سنوات ، قبل أن أسكن دمشق التي قضيت فيها حتى الآن أكثر من 55 سنة، وعن كثير مما لا أعرفه ولم أسمع به عن قريتي نفسها، فقد ذهب إليها وزارها، وهي تلك القرية النائية البعيدة التي تقع في أقصى قمم الشمال الشرقي لمنطقة جبلّة، والذي اشتهر بعض أهلها القدامى بصيد النمر منذ أن بناها جدنا الأول "سالم التنوخي" التي سُمّيت باسمه، ربما قبل مئات السنين ، وكنتُ أستغرب كيف ومن أين حصل على هذه المعلومات الهامة والموغلة في القدم.

هذا بعض مما عرفته عن هذا الرجل الاستثنائي الشجاع الذي سيبقى جزءاً من تاريخ سورية المعاصرة. سورية عمق التاريخ ، وعمق الحضارة، وعمق الارتقاء، التي يجب أن تفخر بمثل هؤلاء الرجال من أبطالها الميامين.

دمشق في 2018/1/1

الرجل العصامي

ورجل المهمات الصعبة والقائد القدوة

د. رزق إلياس²

بمناسبة قيام المناضل محمد إبراهيم العلي (أبو ندى) بتأليف كتابه الثالث والعشرين، بعد أن بلغ من العمر ستاً وثمانين سنة، أحبّ أن يكون لرفاقه الذين يعزهم كلمة في هذا الكتاب يدونون فيها ما يريدون عنه وعن أنفسهم، لذا كان من الطبيعي أن أكون أحدهم، باعتبار أنني قد قضيت معه من الساعات والأيام أكثر من أي شخص آخر ، لاسيما في الفترة الأخيرة من حياتنا بعد أن أحيل على التقاعد في العام 2005 ، وما زلنا معاً ونحن في نهاية العام 2017 نتبادل الرأي، ونستحضر الذكريات، ونقيّم الماضي، وننظر إلى الحاضر والمستقبل لنستخلص الدروس والعبر محاولين بما نملك من إمكانيات أن نزود

² عميد ركن متقاعد، دكتوراه في التاريخ، رئيس مركز الرأي السوري للاستطلاع والدراسات.

بها رفاقنا وأولادنا وأحفادنا، وكلانا على إدراك تام بأن رسالته الوطنية والعائلية أشرفت على الانتهاء.

لقد التقى الملازم الأول محمد إبراهيم العلي الضابط في كتيبة المظلات في حلب مع الملازم الأول رزق الياس الضابط في قسم تدريب اللواء الرابع في السويداء في الاشتراك في حركة الضباط الأحرار عام 1962 من دون أن يعرف أحدهما الآخر، والتي استهدفت إعادة الوحدة بين سورية ومصر، ومع فشل هذه الحركة حكم على محمد إبراهيم العلي بالإعدام، وأحيل رزق الياس إلى المحكمة العسكرية، وقد أتت ثورة الثامن من آذار عام 1963 لتنتهي ملفي الإعدام والاتهام لكليهما، ولألتقي لأول مرة مع النقيب محمد إبراهيم العلي عام 1966 في حلب بعد حركة 23 شباط 1966، حيث تسلم قيادة الكتيبة 102/ استطلاع وتسلم النقيب رزق الياس عمليات هذه الكتيبة، وفي لقائي الشخصي الأول معه قال لي "إن مهماته كرئيس للحرس القومي في سورية وكعضو في المؤتمر القطري للحزب سوف تشغله عن القيام بمهمة تدريب الكتيبة وإدارة أمورها وهو يفوضني بذلك بناءً على المعلومات المعروفة عني من قبل رفاقنا"، وقد عزز قوله هذا المعلومات التي كنت أعرفها عنه من أنه ضابط مظلي مميز تخرج من الكلية الحربية في مصر، وهي نفس الكلية

التي تخرجت منها، وكان متفوقاً في دورات المظليين والصاعقة إلى درجة أن الرئيس جمال عبد الناصر أطلق عليه عبارة "هذا بطل من الإقليم الشمالي" في أثناء احتفال التخرج بالقفز المظلي، ورأى أن يضمه إلى حرسه الشخصي ولكن الملازم الأول محمد إبراهيم العلي اعتذر بلباقة عن ذلك.

نجح "أبو ندى" خلال وجودنا في حلب لمدة سنة ونيف في إيجاد الحلول المناسبة لأية مشكلة بين الرفاق الحزبيين في حلب وكذلك مع الجماهير والعمال، وكان يتمتع بمصداقية في القول والفعل وسلوكية شخصية مميزة جعلته الشخصية الحزبية الأولى في محافظة حلب.

ومع ارتفاع وتيرة الأحداث بين سورية وإسرائيل في مطلع عام 1967 بسبب زيادة نشاط المقاومة الفلسطينية عبر خطوط الهدنة، رفعت القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة الجاهزية القتالية وكان من ضمنها نقل الكتيبة 102/ استطلاع من حلب في شهر شباط 1967/3/2 لتوضع بإمرة قيادة الجبهة في القنيطرة في معسكر خان أرنية، ولتقوم بمهمة احتياط الجبهة ضد الإنزالات الجوية الإسرائيلية المحتملة في مؤخرة الجبهة، وقد تطلبت هذه العملية تكليف النقيب رزق الياس بقيادة الكتيبة في حرب عام 1967، حيث بقيت الكتيبة في معسكرها حتى نهاية الحرب كاحتياط للجبهة، وفي الوقت الذي تمكن فيه الطيران المعادي من السيطرة التامة على الجو وتدمير معظم الأهداف العسكرية في الجبهة نجحت الكتيبة 102/ في إخفاء أسلحتها وعتادها كافة، والذي وصل آنذاك إلى 118 دبابة وناقلة مدرعة وآلية نقل، بالتحصن والتمويه من دون أن يكتشفها الطيران المعادي الأمر الذي جعلها القوة الوحيدة بيد القيادة السورية لتشرها في مواجهة العدو الإسرائيلي على طول جبهة الجولان (70 كم) بعد الموافقة على قرار وقف إطلاق النار يوم العاشر من حزيران عام 1967.

وقد بقي التواصل الشخصي قائماً مع الرفيق محمد إبراهيم العلي لاسيما بعد أن أصبح قائداً للجيش الشعبي الذي تشكل عام 1967 من الضباط

وصف الضباط والجنود الذين أصبحوا في وضعية الاحتياط للقوات العسكرية النظامية، وقد شرع هذا الجيش بتنظيم أفواج مقاتلة في جميع المحافظات السورية وتمكن من القيام بمهمة الحفاظ على الأهداف الهامة الموجودة في عمق البلاد من عمليات العدو الخاصة، محققاً صورة الوحدة الوطنية والأمن المجتمعي، وقد بدا ذلك بارزاً في حرب الاستنزاف مع العدو الإسرائيلي منذ عام 1968 وحتى عام 1973، وكذلك في حرب تشرين التحريرية عام 1973، وفي حرب الاستنزاف الثانية عام 1974، وفي العمليات اللاحقة كافة. وكان لشخصية الرفيق محمد إبراهيم العلي الكارزمية دور كبير في تنفيذ هذه المهمات الوطنية.

وما زلت أذكر العديد من المهام التي قام بها هذا الجيش في حرب عام 1973، من حراسة الموانئ والمصافي والجسور وعقد الطرق الهامة ومحطات وخزانات الوقود والمؤسسات والمصانع إلى الإسهام في أعمال التعبئة والنقل للأطعمة والذخيرة، والعمل في المستشفيات، حيث كان الشباب والشابات الملتحقون به وفق نظام الفتوة يقومون بهذه الأعمال باندفاع وإخلاص وتنافس فريد.

كما مازلت أذكر المهمة المشتركة التي كُلف بها المقدم محمد إبراهيم العلي قائد الجيش الشعبي للتواصل مع القوات العراقية القادمة من العراق في منطقة الضمير وتوجيه تحركها إلى منطقة الكسوة جنوب دمشق حيث يستلم قيادتها إلى خطوط القتال مع العدو الإسرائيلي في المنطقة غرب الصنمين- غباغب الرائد رزق الياس مندوب القيادة العامة القادم من إدارة الاستطلاع وقد قام كل منا بتنفيذ هذه المهمة على خير وجه. كما مازلت أذكر موقف السيد

الرئيس حافظ الأسد وهو في مقر القيادة الرئيسي للجيش والقوات المسلحة عندما وصل إليه قرار الرئيس السادات بوقف إطلاق النار على الجبهة المصرية يوم 1973/10/22 والبرقية الموجهة من الرئيس السادات إلى الرئيس الأسد يعرض عليه أن يوافق على قرار وقف إطلاق النار كما فعلت مصر لدخول سورية ومصر معاً في العملية السلمية، وقد أخذ هذا الموقف من السيد الرئيس حافظ الأسد نقاشاً واسعاً مع قيادة الجيش ومع القيادة الروسية، وقبل أن يتوصل الجميع إلى اتخاذ قرار نهائي بذلك استدعى السيد الرئيس المقدم محمد إبراهيم العلي قائد الجيش الشعبي وانفرد به ليسأله عن وجهة نظره في هذا الموضوع، وقد أسرّ لي لاحقاً أبو ندى بوجهة نظره التي قدمها إلى السيد الرئيس بقوله: سيدي الرئيس: السادات لم يحارب معنا واكتفى بعبور القناة فقط فيما توجه كل طيران العدو وقواته البحرية ومعظم قواته البرية ضد الجبهة السورية، أنا أرى أن نوافق على وقف إطلاق النار بشروطنا الخاصة وبعد موافقة مصر على ذلك فأعجب السيد الرئيس بوجهة النظر هذه وجاءت موافقة سورية على قرار وقف إطلاق النار في 1973/10/24 وبشروط جيدة.

ومن الضروري التذكير بأن الرفيق محمد إبراهيم العلي بقي قائداً للجيش الشعبي في سورية منذ أن تشكل هذا الجيش إلى أن تقاعد في العام 2005 بناءً على طلبه.

وهذه المهام لم تنس الرفيق أبو ندى هوايته الأدبية في كتابة أحداث حياته التي عاشها في روايات تاريخية واقعية تصور بدقة رائعة طبيعة حياة الفلاحين وعلاقاتهم مع الإقطاع وأجهزة الدولة، كما في كتابه "المرابي" من ثمانية أجزاء، والحديث عن المشاريع الهامة في الدولة كسد الفرات في كتابه "التحول

الكبير"، وتوصيف حالات الفساد التي تصيب المجتمع كما في كتبه "السقوط"، و"الذئاب"، و"الطغيان"، وكذلك كتابه عن الواقع الذي عاشه في سجنه "حياتي والإعدام" والمكون من ثلاثة أجزاء، والآن يقوم بتأليف الجزء الرابع. وأحسن ما قيل في هذه المؤلفات تقييم الأديب الدكتور عبد السلام العجيلي لها بقوله "إن روايات محمد إبراهيم العلي سوف تكون مادة تاريخية- اجتماعية رائعة للأجيال القادمة". ومنحه شهادة الدكتوراه الفخرية في الإبداع الأدبي من اتحاد كتاب روسيا في 2007/11/15، وحيازته على النجمة الذهبية للكاتب الروسي "شولوخوف" عن كتبه المترجمة إلى اللغة الروسية وهي "الطغيان" (ثلاثة أجزاء)، و"نجمة الصبح"، و"التحول الكبير". وكذلك منحه وسام صداقة الشعوب بمرسوم من مجلس السوفييت الأعلى عام 1987.

ولا يسعني إلا أن أذكر بهذه المناسبة الدور الذي انفرد به الرفيق محمد إبراهيم العلي عن جميع الشخصيات السياسية في تاريخ سورية الحديث، من خلال المقابلات السياسية التي قام بها مع الشخصيات السياسية الدولية في عهده، ومنها الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان يدي له تقديراً خاصاً، والرئيس "شوون لاي" رئيس الصين الشعبية، و"كيم إل سونغ" رئيس كوريا الشمالية، ووزير الدفاع السوفييتي "غريشكو"، و"بريماكوف" الصحفي والكاتب ورئيس الوزراء السابق لروسيا الاتحادية، و"ياروزويسكي" رئيس دولة بولونيا، و"هوشي مينه" رئيس الفيتنام، و"فان بان دونغ" رئيس وزراء الفيتنام، وعدد كبير من سفراء الدول الاشتراكية والعربية. وكان الانطباع العام الذي يتركه محمد إبراهيم العلي لدى هؤلاء هو أنه شخصية قيادية سورية ملتزمة في تطبيق أهداف حزب البعث العربي الاشتراكي وبصورة خاصة الجانب الاشتراكي منها، وهم

مصيبون في ذلك. وفي ختام وجهة نظري حول شخصية المناضل الصديق محمد إبراهيم العلي أقول إنني اعتز بصداقته على الرغم من الموقف الذي أنهى فيه حياته الحزبية بخلافه مع القياديتين القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، موجهاً النقد لهما عبر لقاء معه في التلفزيون السوري حول أوجه التقصير في الأداء الحزبي.

مواهب متعددة ورؤى واسعة*

فاليري غانيتشيف

ترجمة: عدنان جاموس

أيها الأصدقاء الأعزاء:

يسرني أن أبلغكم أننا قد وقعنا أمس اتفاقية حول التعاون بين اتحاد كتاب روسيا واتحاد الكتاب العرب في سورية، وأود اليوم أن أقلد عضو اتحاد الكتاب العرب محمد إبراهيم بتكليف من إدارة اتحاد كتاب روسيا ميدالية الذكرى الذهبية وشهادة الشرف المحدثتين بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد الكاتب الروسي العظيم والمشهور في العالم كمله، الحائز على جائزة نوبل م.أ. شولوخوف مبدع الرواية الخالدة «الدون الهادي».

إن صديقنا المحترم محمد إبراهيم العلي يمنح هذه الميدالية الذهبية، وشهادة الشرف هذه تقديراً لإبداعاته الأدبية التي اطلعنا عليها في روسيا عن

* كلمة السيد فاليري غانيتشيف - رئيس اتحاد كتاب روسيا في حفل تكريم الكاتب (15 تشرين الثاني

عام 2007)

طريق ترجمة عدد من رواياته إلى اللغة الروسية، وهو يرسم في أعماله الأدبية لوحة عن الحياة في سورية في القرن العشرين العاصف برؤية واسعة الأفق، ومتعددة الاتجاهات إلى حد يجعلها تثير اهتماماً عميقاً ليس لدى المستشرقين فحسب، بل ولدى الباحثين العلميين في مجال الاثنوغرافيا والتاريخ. إن إبداع محمد إبراهيم العلي الأدبي يتطور بتأثير خلاق من منهج الواقعية الاشتراكية التي تتمثل بسطوع في إبداعات مكسيم غوركي وميخائيل شولوخوف وفالنتين راسبوتين. ومحمد إبراهيم العلي يعرف الكاتب راسبوتيناً من خلال أعماله المترجمة إلى العربية فحسب، بل ومن خلال التعارف الشخصي. إن إبداعات محمد إبراهيم العلي مفعمة بروح الشعب، وأبطال أعماله من ذوي الأصول الشعبية، فهم من الفلاحين والبدو والعمال، ومعلمي الأرياف والجنود والضباط، وكلهم مستعدون للقيام بأعمال بطولية، وهم يقومون بها فعلاً سواء في ميدان النضال الثوري من أجل مستقبل مشرق لشعبهم أم في ميادين الحروب التحريرية ضد الغزاة الأجانب. وأعمال محمد إبراهيم العلي تربي القارئ بروح حب الوطن، والغيرة على مصالحه، واحتقار وكره المستغلين والكوسموبوليتيين الذين لا معبود لهم سوى العجل الذهبي.

إن صديقنا معروف في روسيا لا بصفته كاتباً موهوباً فحسب، بل وبصفته ثورياً متحمساً ومقاتلاً صلباً، وشجاعاً وأمياً عقائدياً يناصر الصداقة والتعاون بين الشعوب، ويدعو إلى الحوار والتفاعل بين الطوائف الأساسية في سبيل مصلحة الإنسانية، وله أصدقاء كثيرون في بلدنا. إن حياة محمد إبراهيم العلي وأعماله التي غالباً ما نجد فيها أثراً لسيرته الذاتية تشهدان على أن من سماته المكونة لشخصيته ميلها لدائم لمساعدة المحتاجين والمعذبين، وهذا من أعلى

درجات السمو الروحي والطيبة لدى الإنسان. واسمحوا لي بهذه المناسبة أن
أقلد محمد إبراهيم العلي جائزة أخرى هي هذه المرة باسم الحركة الاجتماعية
الخيرية أناس العالم الأخيار التي أترأس هيئة الرئاسة فيها، وذلك تقديراً
لمساهمته البارزة في تطوير التعاون الثقافي والعلاقات الأخوية بين الشعب
الروسي والسوري، ومنذ هذا اليوم يصبح محمد إبراهيم العلي عن جدارة عضواً
في حركة أناس العالم الأخيار وهي اتحاد غير سياسي الناس الإرادة الطيبة
المخلصين لقسمهم الطوعي بأن يكرسوا ما بوسعهم تكريسه من وقت وجهد
ومال لخدمة القضية النبيلة المتمثلة بأعمال الخير والرحمة، وبعث مشاعر
الاعتزاز القومي، وخلق أجواء الثقة بالغد القادم لدى جميع الناس في العالم.
نهنك أيها الصديق العزيز

البطولة في الأدب والحياة*

أوليف فومين

ترجمة: عدنان جاموس

أيها الأصدقاء الأعزاء

أقوم اليوم بمهمة مشرفة كلفني إياها رئيس الحزب الشيوعي في الاتحاد الروسي غينادي اندرييفتش زوغانوف؛ وهي مهمة تقليد عضو اتحاد الكتاب العرب في سورية، اللواء محمد إبراهيم العلي جائزة الحزب الشيوعي الروسي الرفيعة التي أحدثت بمناسبة الذكرى السنوية التسعين لثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، التي دشت عصراً جديداً في تاريخ الإنسانية. وقد استحق الصديق الكبير للاتحاد السوفيتي ولروسيا المعاصرة محمد إبراهيم العلي هذه الجائزة تقديراً لموقفه الوطني والأممي الذي ظل وفياً له على مدى حياته كلها.

لقد شارك محمد إبراهيم العلي منذ صباه في النشاط الثوري، وكان عمره ثلاث عشرة سنة عندما انتسب إلى «حزب الشباب». وظل هذا المناضل الصلب ضد الظلم والطغيان والإقطاعيين المحليين والمستعمرين الأجانب، وفي سبيل مستقبل أفضل لشعبه وتحرير الأراضي العربية التي احتلتها «إسرائيل»، ظل دائماً في الخط الأمامي للنضال ضد أعداء سورية الخارجيين وضد الرجعية الداخلية، ولم يكن يرضى بحياته في خضم هذا النضال المقدس بالنسبة إليه. «ففي عام 1963 حُكِمَ عليه بالإعدام في حلب من قبل السلطات التي تمثل

* الكلمة التي ألهاها أوليف فومين نائب رئيس جمعية الصداقة الروسية - السورية. في حفل تكريم الكاتب (15 تشرين الثاني عام 2007).

البرجوازية السورية الكبرى والإقطاعيين بتهمة محاولة القيام بانقلاب ثوري مسلح في البلاد. ولكن حزب البعث العربي الاشتراكي الذي تسلّم السلطة في أعقاب ثورة الثامن من آذار فتح أبواب السجن أمام الرفيق عضو الحزب للخروج إلى رحاب الحرية، وقد شارك محمد إبراهيم العلي إلى جانب ممثلي الجناح الثوري الديمقراطي بحزب البعث العربي الاشتراكي في «حركة الثالث والعشرين من شباط عام 1966» الذي انتصر على الاتجاه ذي النعرة المتعصبة في الحزب، وانتهج خط تحقيق تحولات اجتماعية-اقتصادية تقدمية في البلاد.

وشارك محمد إبراهيم العلي، الرفيق الملخص والوفي للأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي ورئيس الجمهورية العربية السورية حافظ الأسد، مشاركة فعالة في «الحركة التصحيحية في السادس عشر من تشرين الثاني عام 1970» التي قامت لتثبيت وتطوير أهداف «حركة الثالث والعشرين من شباط عام 1966». ورفض محمد إبراهيم العلي بنشاط جهود الرئيس حافظ الأسد لإنشاء الجبهة الوطنية التقدمية في سورية، التي تضم إلى جانب حزب البعث العربي الاشتراكي الحزب الشيوعي، والأحزاب التقدمية الأخرى في البلاد. إن محمد إبراهيم العلي، بحكم كونه مناضلاً مبدئاً وعيداً في عداته للصهيونية والإمبريالية، قد دعم بحزم جبهة الصمود والتصدي التي ترأستها سورية، والتي ناضلت بلا هوادة سياسة أنور السادات الاستسلامية الخيانية.

وقد اجتاز محمد إبراهيم العلي جميع مراحل الخدمة العسكرية مظهراً في أثناء ذلك امتيازاً في المهارة القتالية، وشجاعة شخصية، ووصل إلى رتبة اللواء.

وكان هو أول قائد للحرس القومي في سورية، ثم تولى قيادة الجيش الشعبي منذ عام 1967 وحتى عام 2005، وأسهم في أثناء ذلك بقسط شخصي كبير في التدريب والإعداد القتالي للعسكريين السوريين، وفي التربية الوطنية- العسكرية للشبيبة السورية. وكان للجيش الشعبي إبان حرب تشرين التحريرية دور لا يقدر بثمن في النصر الذي أحرزه الشعب السوري وقواته المسلحة الباسلة بتبديدهم خرافة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر.

إن مأساة الشعب الفلسطيني بالنسبة لمحمد إبراهيم العلي، العربي الغيور على عروبتة، هي مأساته الشخصية وجرح قلبه النازف الذي لا يندمل، وإن شعار النضال في سبيل استعادة الشعب العربي الفلسطيني حقوقه المشروعة، بما فيها حقها في إقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس، هو بالنسبة إليه ليس مجرد شعار، فمحمد إبراهيم العلي مشارك فعال ونشط في هذا النضال، وقد ساهم شخصياً في إنشاء منظمة «فتح» الفلسطينية، وبالذات وحداتها المسلحة «العاصفة».

كما أنه اضطلع بدور مرموق في تشكيل وتدريب الفصائل المسلحة في طليعة حرب التحرير الشعبية «الصاعقة». ويشاطر محمد إبراهيم العلي تماماً الرئيس حافظ الأسد تلك العبارة التي قالها الرئيس مرة ومقادها: إننا لا نكتفي بإعادة مرتفعات الجولان فحسب، بل لا بد لنا من تحرير فلسطين.

وأنا لن أتحدث في كلمتي هذه عن وجه متألق من وجوه الموهبة المتعددة الجوانب التي يتمتع بها محمد إبراهيم العلي، وأقصد بهذا إبداعه الأدبي، فقد تحدث عن ذلك رئيس اتحاد كتاب روسيا ف.ف. غانيتشيف. وسأكتفي هنا

بالاعتراف بأني شخصياً قد شعرت بمتعة إبداعية وجمالية بالغة في أثناء عملي على ترجمة رواية صديقي الوفي «الطغيان» إلى اللغة الروسية.

وقد لمست وفاء الصديق محمد إبراهيم العلي لأصدقائه عندما بادر قبل الجميع لمدي المساعدة لي بعد القصف الإسرائيلي الهمجي للمركز الثقافي السوفييتي بدمشق، الذي كنت أترأسه، وذلك في التاسع من تشرين الأول عام 1973.

وقد تجلّى هذا الوفاء فيما بعد أكثر من مرة عندما كان صديقي يدعمني معنوياً في اللحظات الصعبة في حياتي. وستظل الحياة البطولية التي عاشها محمد إبراهيم العلي بحد ذاتها مثلاً يحتذى وقدوة لي على الدوام. واسمحوا لي الآن أن أسلم صديقي هذه الجائزة التي استحقها عن جدارة.

وأن أعبر عن تهاني لصديقي الوفي الغالي!

وبعد أيها الأصدقاء لشد ما سرني نبأ اتخاذ اتحاد الكتاب العرب في سورية قراراً بإصدار كتاب مكرس لسيرة ونضال الشخصية البارزة في الجمهورية العربية السورية محمد إبراهيم العلي. وتضاعف سروري عندما تلقيت اقتراحاً بأن أكون في عداد مؤلفي هذا الكتاب.

وإنه لشرف عظيم ومفخرة لي أن أشاطر القراء في سورية، وسائر الوطن العربي انطباعاتي عن لقاءاتي وأحاديثي مع هذه الشخصية المتألقة، التي تجسد أفضل سمات الشعب السوري.

بدأت صداقتي مع محمد إبراهيم العلي في عام 1972، عندما كنت أعمل مديراً للمركز الثقافي السوفييتي بدمشق، وكان صديقي في ذلك الوقت قد

اجتاز طريقاً مجيداً بصفته مناضلاً في سبيل استقلال سورية الوطني، وتحرير شعبه من اضطهاد الإقطاع وظلمه، وكان طريقه ذاك مليئاً بمقاساة الحرمان وخوض النضال، واجتراح المآثر في سبيل سعادة الشعب.

ولد محمد إبراهيم العلي عام 1934 في أسرة فلاحية فقيرة، وذاق منذ طفولته المبكرة مرارة استبداد الإقطاعيين المحليين الذين تحميهم حراب الفرنسيين، وكان قلب الصبي المرهف الحس يطفح بمشاعر العطف والحب لأبناء قريته المظلومين المهانين، ويمتلئ في الوقت نفسه بمشاعر الغضب والاحتقار للمستغلين المحليين والأجانب.

وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره انتسب إلى «حزب الشباب» الذي سمي فيما بعد «الحزب العربي الاشتراكي» وبعد اندماج هذا الحزب بحزب البعث في عام 1952 انتسب إلى الحزب المشكل مجدداً باسم حزب البعث العربي الاشتراكي، وهو ما زال عضواً عاملاً فعالاً فيه حتى اليوم. وقد اعتقل محمد إبراهيم العلي في عام 1954 بسبب التحريض الثوري الذي كان يقوم به في أوساط الفلاحين والفقراء في قرية الصّور على ضفاف نهر الفرات، حيث كان يعمل معلماً ريفياً، بيد أن الانقلاب العسكري الجديد الذي حدث في سورية آنذاك أنقذه من العقوبة الصارمة المنتظرة، والتحق الشاب بخدمة العلم وأرسل للخدمة في أحد المواقع المتقدمة في الجولان، وبعد أن أنهى دورة الرقباء تابع دراسته العسكرية في الكلية الحربية في حمص، واتبع الدورات التي تخوله التخرج ضابطاً، وكان طوال سني خدمته في الجيش يمارس نشاطه الحزبي، مما جعل رؤسائه ينظرون إليه شراً لكونه بعثياً. وقد التحق في عام 1959 بالكلية الحربية في القاهرة وتخرج فيها برتبة ملازم، وفي أثناء خدمته

اللاحقة بمصر في كتيبة المظلات، أدهش زملاءه بشجاعته عندما قفز من حوامة من دون مظلة من ارتفاع 80 متراً فوق مياه النيل مع أنه لم يكن ماهراً في السباحة، وقد حياً رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر الذي كان حاضراً العر صاحب هذا العمل الجريء.

وقد تأثر محمد إبراهيم العلي، وهو المناصر للوحدة العربية عن قنعة راسخة، تأثر بعمق عندما وقع الانفصال بين سورية ومصر في عام 1961 بتدبير من البرجوازية السورية والإقطاعيين المستائين من الإجراءات التقدمية التي أقدم عليها جمال عبد الناصر. ونقلت وحدة المظلات التي كان يخدم فيها إلى حلب، وهناك شارك، بصفته عضواً في حركة الضباط الأحرار، بالأحداث الشهيرة التي جرت في الثامن والعشرين من آذار عام 1962، وذلك عندما أصدر حزب البعث العربي الاشتراكي تعليمات تقضي بأن تقوم المنظمة الحزبية في كتيبة المظلات التي يخدم فيها محمد إبراهيم العلي بقيادة عملية الاستيلاء الثوري على مدينة حلب. وتولى هو قيادة الكتيبة وسيطر على المدينة بقوة السلاح. بيد أن هذه العملية لم تتلق دعم الوحدات الأخرى في الجيش السوري مما أدى إلى إخفاقها، وإلى اعتقال محمد إبراهيم العلي وزجه في السجن مع مجموعة من مناصريه.

وحكمت عليه السلطات الانفصالية في السابع عشر من كانون الثاني عام 1963 بالإعدام بتهمة تنظيم تمرد عسكري مسلح. وقضى الثوري الذي لا تلين له قناة أياماً طويلة في زنزانة المحكوم عليه بالإعدام، رافضاً رفضاً قاطعاً تقديم استرحام لرئيس الجمهورية، كما رفض الهروب من السجن. وقد قامت في جميع أرجاء البلاد العربية مظاهرات شعبية تطالب بإطلاق سراحه، كما

كانت إذاعتا القاهرة وبغداد تبثان برامج مكرسة لدعمه، وقبل أن يحل موعد تنفيذ الحكم بيوم واحد قامت ثورة الثامن من آذار التي فجرها حزب البعث العربي الاشتراكي، وفتحت أبواب السجن أمام الوطني الشائر، ثم عين محمد إبراهيم العلي في عهد الثورة قائداً للحرس القومي في سورية، مما ألقى على عاتقه مسؤولية هامة، إذ كانت مهمة الحرس القومي هي الحفاظ على النظام الثوري في البلاد. وقد تحول هذا الجهاز منذ عام 1967 إلى «الجيش الشعبي» الذي ظل محمد إبراهيم العلي يقوده حتى عام 2005. وكان يتأسس إلى جانب ممثلي الجناح الثوري- الديمقراطي الآخرين في حزب البعث العربي الاشتراكي مسيرة النضال ضد الجناح ذي النزعة الإصلاحية، والنصرة القومية المتعصبة في الحزب، وقد تكلل هذا النضال بانتصار «حركة 23 شباط عام 1966» التي أعلنت أن مهمتها هي القيام بتحويلات اجتماعية- اقتصادية تقدمية، وترسيخ مبادئ الديمقراطية الشعبية في سورية، بالاعتماد على العمال والفلاحين سائر الكادحين. وقد شارك محمد إبراهيم العلي مشاركة فعالة في «الحركة التصحيحية في 16 تشرين الثاني عام 1970» التي قامت لتثبيت وتطوير الأهداف التي كانت تتطلع إلى تحقيقها «حركة 23 شباط عام 1966»، وظل علللدوام رفيقاً مخلصاً ووفياً للأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي ورئيس الجمهورية العربية السورية حافظ الأسد، الذي ترأس «الحركة التصحيحية» في الحزب الحاكم والدولة. وكان الرجلان قد تعارفا في أثناء الخدمة العسكرية في مصر، وتعاونوا تعاوناً وثيقاً في نطاق حزب البعث العربي الاشتراكي، سواء في ظروف العمل السري فأم بعد وصول الحزب إلى السلطة، وقد أسهم محمد إبراهيم العلي مساهمة فعالة في إنشاء «الجبهة

الوطنية التقدمية» التي تضم إلى جانب حزب البعث العربي الاشتراكي الحزب الشيوعي، والأحزاب التقدمية الأخرى في سورية. وكان لديه دائماً العديد من الأصدقاء في أوساط جميع ممثلي القوى الوطنية التقدمية، وظل محمد إبراهيم العلي منذ عام 1985 وحتى عام 2005 عضواً في اللجنة المركزية للحزب.

لقد أسعدني الحظ بأن أكون شاهداً حياً على حرب تشرين التي أيقنت شخصياً من خلالها برجولة وبطولة الشعب السوري، الذي بدد خرافة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر. لقد كان دوي قصف المدافع الذي وصل إلى العاصمة السورية في السادس من تشرين الأول الساعة الثانية نهاراً مؤذناً ببدء حرب تشرين، وذلك عندما بادر الجيشان المصري والسوري إلى مهاجمة المواقع الإسرائيلية على طول خطوط الجبهة. وبهذا بدأت الحرب التحريرية التي تهدف إلى استعادة الأراضي الفلسطينية والسورية والمصرية التي اغتصبها المعتدون الإسرائيليون إثر الهجوم المباغت الذي شنوه في الخامس من حزيران عام 1967. ولم يكن هدف العرب يقتصر على تحرير الأراضي المحتلة فحسب، بل كان يتعدى ذلك على حماية شرف الأمة العربية وكرامتها، والذود عن أصالتها ودورها في تطوير الحضارة العالمية. وكما كان يتردد يحق في برنامج إذاعة دمشق فإن حرب تشرين كانت جزءاً لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني العالمية ضد الإمبريالية والصهيونية والاستعمار.

وعندما بدأت الحرب كان العاملون السوفييت، والسوريون في المركز الثقافي السوفيتي الذي أترأسه، والواقع في شارع «أبو رمانة» يتابعون القيام كالعادة بواجباتهم الوظيفية، وظل المركز يقوم بوظائفه التي كان يؤديها قبل الحرب على الرغم من أن خط الجبهة كان يقع على بعد 60 كم عن العاصمة.

ولكن كان لا بد للعالمين الذين استمروا في تأدية واجباتهم المعتادة من أن يأخذوا بالحسبان في تلك الأيام ظروف الوضع الحزبي الذي نشأ في دمشق، ولذا فقد جمعوا ونقلوا إلى مكان آمن المواد والصور الوثائقية التي تعكس النشاط الإعلامي - الدعائي والثقافي - التنويري الذي يقوم به المركز في سورية، والقوائم الاسمية للأعضاء والنشطاء السوريين في جمعية الصداقة السورية - السوفيتية، ولرواد المركز الدائمين وللمشاركين في دورات تعلم اللغة الروسية. وفي الوقت نفسه بدأت تجري إجراءات تهدف إلى رفع درجات الأمان لمباني المركز ضد الحرائق والغارات الجوية، وذلك بسبب إقدام الإسرائيليين على القيام بغارات جوية على مشارف دمشق.

وقد ورد في رواية «نجمة الصبح» التي كتبها محمد إبراهيم العلي فيما بعد: في الساعة الثالثة اتصل نائب القائد العام هاتفياً بقائد الجيش الشعبي قائلاً: «نفذ» فرد عليها القائد: «حاضر» ووضع السماعة، وشعر كأن الأرض تحته قد مادت. اتصل بقيادة فرع الحزب في المدينة، وبقيادة الجيش الشعبي في طرطوس، وأمر بالنقل الفوري لعشرات الآلاف من الأمتار المكعبة من الأخشاب من المرفأ المعرض لقصف الإسرائيليين في أي لحظة».

وفي ذاك الوقت كانت قد شُكلت ووضعت في حالة الجاهزية القتالية كتائب الجيش الشعبي، المؤلفة من طلاب الجامعات وتلاميذ المدارس الثانوية، وكان على قيادة الجيش الشعبي أن تنظم حماية الطرق، وإبطال مفعول القنابل الموقوتة، والقضاء على قوات الإنزال الجوي، وتقديم المساعدة في مجال التموين وتأمين دفاع مدني فعال.

وكنّت أتابع، ونفسي مفعمة بشعور الاعتزاز بأصدقائنا السوريين، الأعمال والنشاطات المنظمة والمنسقة بدقة وانسجام التي كان يقوم بها الأهالي المدنيون، ومنذ اليوم الأول للعمليات القتالية تولى أعضاء اتحاد شبيبة الثورة، والاتحاد الوطني لطلبة سورية مهمة التعميم والتمويه الضوئي، فكان الفتيان والفتيان يوقفون السيارات عند مفارق الطرق، ويقومون بسرعة وبراعة فائقة بتمويه مصاييحها بطبقة من الدهان الأزرق، وسارع على الفور أفراد الجيش الشعبي المسؤول عن الأمن في المناطق السكنية، إلى إقامة مراكز حراسة حول المباني الإدارية والاجتماعية، وإلى تنظيم دوريات ليلية. وعلى الرغم من قرب خطوط الجبهة لم يغادر العاصمة أي إنسان من سكان دمشق.

وكان العمال والفلاحون والطلاب وأعضاء الحزب واللاحزيون مستعدين جميعاً لأي مفاجآت، وكان الناس يناوبون في الأفران والمستشفيات والمصانع والطرقات وعند الجسور، وينظمون السير وإجراءات الدفاع المدني، وكنّت أتابع باهتمام البرامج التي تبثها إذاعة دمشق، وكانت العادة هي أن تُذاع في البداية بلاغات الناطق العسكري، ومن ثم تصدح المارشات العسكرية وأغاني فيروز التي تحمس الشعب وتدفعه إلى النضال لإحراز النصر.

وقد أحدث خطاب رئيس الجمهورية العربية السورية حافظ الأسد أعمق الأثر في نفسي - وخاصة عندما قال: «أيها الأخوة المواطنون، يا أحفاد خالد وأبي عبيدة، وعمرو وسعد وصلاح الدين! إن ضمير أمتنا ينادينا وأرواح شهدائنا تستحشا لتمثل معاني اليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت».

إن هذا الخطاب الرائع للرئيس السوري قد أحيانا في ذاكرتي أحداث بداية الحرب الوطنية العظمى التي خضناها ضد ألمانيا النازية في عام 1941،

والخطاب الذي توجه به آنذاك القائد العام الأعلى جوزيف ستالين إلى الشعب السوفييتي، فقد عمد الزعيم السوفييتي آنذاك، ونحن نواجه خطراً مدمراً من جانب ألمانيا الهتلرية التي كانت قد استولت على أوروبا كلها، عمد إلى الإهابة بالشعب والقوات المسلحة أن يكونوا جديريين بلقب ورثة المحاربين الروس الذين دافعوا عن روسيا، وكللوها بتاج المجد وهم يقاتلون تحت قيادة أولئك القادة العسكريين العظام، من أمثال دميتري دونسكوي وألكسندر نيفسكي، وألكسندر سوفوروف، وميخائيل كوتوزوف.

إن القوات المسلحة السورية والفدائيين وجيش التحرير الفلسطيني قد أدهشوا العالم بأسره، كما اعتقد، ببطولاتهم ومهاراتهم القتالية، فالقوة التي أنزلت على جبل الشيخ خلال الساعات الأولى من الحرب كسرت مقاومة الإسرائيليين المتمرسين في تحصيناتهم المتعددة الطوابق تحت الأرض، وأسرت عشرات الضباط والجنود الإسرائيليين. وكان الإسرائيليون يرصدون بأجهزتهم العصرية الحديثة من هذا المرصد الاستراتيجي البالغ الأهمية كل تحركات القوات السورية، في مناطق حوران ودمشق وجبل العرب، وقد قال وزير الدفاع الإسرائيلي قبل الحرب بمدة قصيرة: «لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يفكر جدياً باقتحام مرتفعات الجولان، إذ إنها تتفوق بتحصيناتها على أقوى تحصينات الحرب العالمية الثانية».

في التاسع من تشرين الأول ذهبت مع نائي ا.ي.م حكيموف والمسؤول المالي في المركز في الساعة الحادية عشرة صباحاً على وجه التقريب إلى السفارة السوفييتية لبلغ السفير ن.م.محيي الدينوف جاهزية المركز الثقافي لمواجهة أي أحداث غير متوقعة، ولنطلع على آخر الأخبار، وقد دعونا

المشرفة على دورات تدريس اللغة الروسية أ. ب كالينيتشيفا إلى الذهاب معنا إلى السفارة، ولكنها رفضت بسبب انشغالها ببعض الشؤون المنزلية، وفيما نحن في السفارة سمعنا في الساعة الثانية عشرة دوي طائرات تحوم في الجو، ثم صوت انفجارات قوية، وتبين لنا فيما بعد أن سرباً من الطائرات الإسرائيلية استطاع الإفلات من وسائل الدفاع الجوي السورية، والقيام بغارة بربرية على أحياء سكنية في مركز المدينة، حيث يقع مبني المركز الثقافي السوفيتي، وما إن انتهى القصف حتى كنت أنا ونائبي نغادر السفارة ونتوجه إلى المركز الثقافي وقد استبد بنا القلق على مصير المركز والسيدة أ.ب كالينيتشيفا.

وشاهدنا عند اقترابنا من المكان أن مبني المركز قد تهدم بكامله نتيجة قصفه بالقنابل والصواريخ قصفاً مباشراً، وكان الدخان يتصاعد من أنقاض المبنى، أما المكتبة وأرشيف الأفلام فما زال يحترق.

وقد علمنا بعد مضي بعض الوقت أن الطائرات المجرمة التي قصفت السكان الآمنين قد تم إسقاطها بضربات وسائل الدفاع الجوي السوري في أثناء عودتها باتجاه قواعدها، وتم أسر طيار إسرائيلي تمكن من قذف نفسه من الطائرة، والهبوط بالمظلة إلى الأرض، وقد غدا هذا الطيار «بطل» فيلم وثائقي صوره أحد الخريجين السوريين من معهد السينما من موسكو، وأنتجه خلال فترة زمنية قياسية بعنوان «القاتل». وقد حاول هذا القاتل الادعاء بأنه كان يقصد قصف هيئة أركان الطيران السورية. ونحن نترك حقيقة الأمر لذمة الإسرائيليين الذين يتبجحون بدقة التسديد عندما يقومون بتوجيه ضرباتهم الجوية، ولكن لا أحد يستطيع أن يتهرب من الواقع الملموس، فالمركز الثقافي السوفيتي الذي هو أحد المؤسسات الثقافية التي تحظى بأكبر عدد من الرواد

في العاصمة السورية كان أول موقع في دمشق يدمره الطيران الإسرائيلي، وقد كان جهاز عرض الأفلام الذي دُفن تحت أنقاض المبنى قد شُحن ببكرة لفٍّ عليها فيلم روائي بعنوان «تشايكوفسكي»، تمهيداً لعرضه في العاشر من تشرين الأول، وما إن علم قائد الجيش الشعبي بقصف المركز الثقافي السوفييتي، وكنت آنذاك أرتبط وإياه بعرا الصداقة، حتى أرسل رجاله على الفور إلى مكان الحادث، وعندما عدت من السفارة، وجدت أن رجال الجيش الشعبي يجهدون في إطفاء الحريق ورفع الأنقاض، وقد أرسلوا إلى المستشفى عدداً من عاملي المركز السوريين الجرحى، وكنت آمل أن تكون المشرفة على دورات تدريس اللغة الروسية بينهم.

وكان مكتب المسؤول المالي حيث توجد الخزنة الحديدية العائدة للمركز، والتي تحتوي على حوالي 75 ألف ليرة سورية قد تهدم تماماً. جمعتُ العاملين في المركز واستعنتُ بدورية من رجال الشرطة ونظمتُ عملية سحب الخزنة الحديدية من تحت الأنقاض، وقد استغرقت هذه العملية نحو ساعة ونصف، وفي الساعة السابعة عشرة تقريباً استطعنا فتح الخزنة بصعوبة، وأخرجنا منها النقود وأودعناها في السفارة. وبعد مرور نصف ساعة من مغادرتنا موقع الأنقاض دُعر السكان في وسط المدينة من دوي انفجار يصم الآذان. لقد ظل الإسرائيليون أوفياء لأنفسهم، إذا انفجرت تحت أنقاض المركز الثقافي السوفييتي قبلة موقوتة، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الشقة التي أسكنها، والموجودة في الطابق الأرضي من المبنى الواقع خلف المركز الثقافي، قد دفنت تحت أنقاض الطوابق الأعلى بفعل القصف المباشر، ندرك أنني كان يمكن أن أقتل ثلاث مرات في ذلك اليوم: المرة الأولى في حالة وجودي في

مكتبي، والثانية في حالة وجودي في منزلي، والثالثة في أثناء إخراج الخزانة الحديدية من تحت الأنقاض. وتذكرت أنني قد ولدت في ساعة سعد والإنسان الذي يولد في مثل تلك الساعة يقولون عنه في روسيا إنه محظوظ.

ولكن قلقنا أخذ يشتد عندما افتقدنا رفيقتنا أ.ب. كالينيتشيفا، إذ لم نجد لها أثراً في مستشفيات دمشق. كما تبين لنا أيضاً أن المدير الإداري للمركز محمد أمين كان قد أتى إلى المركز قبل القصف الإسرائيلي بقليل وصعد إلى مكتبه.

توجهت برجاء إلى وزير الثقافة وإلى قائد الجيش الشعبي في سورية ألتمس فيه تنظيم حملة بحث فوري، إذ كنا لم نقطع الأمل بعد في أنهما مازالا على قيد الحياة تحت أنقاض المبنى. وهنا لا بد لي من أن أقدر فضل قائد الجيش الشعبي حق قدره: فعلى الرغم من العجز الحاد في كمية وسائل الإنقاذ بسبب الخراب الكبير والضحايا في المدينة وجّه محمد إبراهيم العلي أكثر الآليات تطوراً، وأفضل فصائل الإنقاذ لرفع أنقاض المبنى المهدم، واستمرت أعمال إزالة الأنقاض ليلاً ونهاراً على الرغم من إطلاق صفارات الإنذار بشكل مستمر، ومن الخطر الذي ينطوي عليه احتمال وجود قنابل وصواريخ موقوتة وسط الحطام.

وبعد ثلاثة أيام من البحث المستمر عثرنا أخيراً على جثمان محمد أمين مساعدتي المخلص وصديقي الوفي، خريج إحدى المؤسسات التعليمية السوفيتية العليا في موسكو، حيث دافع عن أطروحته العلمية بنجاح، وفي اليوم التالي ووري جثمانه الثرى في موطنه في قرية تل منين التي تبعد نحو 20 كم عن دمشق، وعلى الرغم من ظروف الحرب واستمرار الغارات الجوية فقد شيع

جنازة محمد أمين مئات الأشخاص ومن بينهم قادة الحزب الشيوعي السوري، وأعضاء وقادة منظمات اجتماعية سورية، وعدد غفير من أصدقاء المركز الثقافي السوفيتي.

أما جثمان أ.ب كالينيتشيفا فلم يعثروا عليه ويخرجوه من تحت الأنقاض إلا بعد مضي عدة أيام من البحث، وقد نُقل بطائرة عسكرية إلى موسكو ليُدفن هناك.

وفي الحادي عشر من تشرين الأول تابعنا أنا وحكيوموف مشهداً مذهلاً في سماء دمشق، فقد كانت طائرات «الفانتوم» و«الميراج» الإسرائيلية التي تصيها صواريخ «أرض - جو» السوفيتية الصنع، والتي تسلاح بها الجيش السوري، تتحول أمام أبصارنا إلى بقع برتقالية، وبعد برهة قصيرة كانت تنفتح تحت بعضها مظلات الطيارين الذين تسنى لهم قذف مقاعدهم من طائراتهم، وكان بعضهم يقذف بنفسه من الطائرة قبل أن يصيها الصاروخ. وكان الدمشقيون يندفعون إلى شرفات وأسطح منازلهم ليشاهدوا الطائرات المصابة، ويستقبلون كل طائرة هاوية إلى الأرض بالتصفيق والهتاف صائحين: «عاش الاتحاد السوفيتي! عاش بريجنيف!» وكانت مكبرات الصوت تدعو سكان العاصمة إلى القبض على الطيارين الهابطين بالمظلات، وتسليمهم لأقرب قسم شرطة. وبعد بضعة أيام عُرضت في إحدى ساحات معرض دمشق الدولي طائرة إسرائيلية مُسقطه ليتفرج عليها الجميع.

وكان من الواضح أن هذا الإجراء تم بتأثير من الأفلام الحربية السوفيتية التي كان المركز الثقافي السوفيتي يزود بها التلفزة السورية بانتظام، فمن المعروف أن هذا ما كان يحدث بالضبط في أثناء الدفاع عن موسكو في عام

*1941؛ إذ كانت الطائرات الهتلرية التي يتم إسقاطها تعرض في «حديقة غوركي للثقافة والراحة» في العاصمة السوفيتية. وقد اكتشفت في إحدى الطائرات الإسرائيلية المسقطة جثة الطيار متفحمة، إذ إن مقعده كان مبروطاً بقمرة القيادة بالسلاسل، أي أنا لطيار قد طلب أن يربط بمقعده ويثبت بالقمرة قبل الطلعة القتالية خوفاً من أن يجبن ويتخاذل. وقد خسر الإسرائيليون في الحادي عشر من تشرين الأول فحسب أكثر من 50 طائرة على الجبهة السورية، علماً بأن هذه الطائرات لم تسقط بالصواريخ فقط، فالطيّارون السوريون البواسل كانوا يشتبكون بشجاعة في معارك جوية مع طائرات «الفانتون» وهم في طائراتهم «الميج-17» ويتغلبون على الطيارين الإسرائيليين المشهورين بمهاراتهم القتالية.

وكان يمكن أن تتوج حرب تشرين بنهاية مغامرة لو أن القوات المصرية، بعد عبورها المظفر قناة السويس، طورت هجومها وتوغلت إلى عمق شبه جزيرة سيناء؛ لكن الجيش الإسرائيلي استغل إيقاف القوات المسلحة المصرية عملياتها الهجومية فحشد كل قواته ووجهها إلى الجبهة السورية. وقد ذكر محمد إبراهيم العلي في روايته «نجمة الصبح» أن الجماهير العربية الواسعة قد أدانت السادات بغضب، بصفته خائناً لمصالح مصر وعميلاً للإمبريالية والصهيونية، ويقتبس الكاتب في الرواية نفسها كلمات بطل عبور القناة الفريق سعد الدين الشاذلي الذي يقول: «السادات خدعنا جميعاً عندما تناسى وصايا الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. لقد كان يتصرف بانسجام مع أعدائنا».

وقد أجمل رئيس الجمهورية العربية السورية الراحل حافظ الأسد نتائج حرب تشرين التحريرية وأشار بصورة خاصة إلى أن «النتيجة الحاسمة في

صراعنا النهائي ضد الغزو هي زوال عقدة الخوف من القوة الإسرائيلية». و«إنها المرة الأولى التي يظهر فيها المستوى المتميز للجندي العربي تنظيمياً وتدريباً وبسالة» و«لقد انعكست نتائج حرب تشرين هذه على المقاتل العربي والمواطن العربي ثقة بالنفس واستعداداً للتضحية واعتزازاً بها»، وأشار أيضاً إلى أنه «في هذه الأيام العشرة المجيدة من المعارك الطاحنة التي خاضتها قواتنا المسلحة بكل أسلحة وبمنتهى الرجولة والشجاعة وإيمان بالنصر لا يتزعزع. صححنا مفاهيم وأفكاراً كثيرة خاطئة». وقال الرئيس ما مفاده: إننا في تلك الأيام من الصمود البطولي الرائع أثبتنا انتسابنا إلى تاريخ أمتنا العربية البطولي المجيد، ورفعنا الروح القتالية لدى الشعب وعززنا ثقته بالنصر النهائي.

ويفكر النقيب حسن، أحد شخصيات رواية «نجمة الصبح» قبل أن يقوم بهجومه البطولي موجهاً طائرته التي تخترق نحو بارجة إسرائيلية: «أليس باستطاعتي أن أحقق مأثرة لتمجيد حزب البعث وتمجيد فلسطين الحبيبة». ولا شك في أن محمد إبراهيم العلي على استعداد دائم لاجترار مثل هذه المأثرة. وقد نفذ الجيش الشعبي تحت قيادته إبان الحرب كل المهام الموضوعة أمامه، واستحق كل تقدير وإعجاب من الشعب السوري، وأضاف قائد الجيش الشعبي إلى أوسمته العسكرية العديدة «الوسام الحربي من الدرجة الأولى».

بدأ محمد إبراهيم العلي مزاولة نشاطه الأدبي منذ عام 1977، وانتسب في عام 1978 إلى اتحاد الكتاب العرب في سورية. وقد نشر منذ ذلك الوقت 14 رواية ومجموعة قصصية، وسيرته الذاتية في ثلاثة أجزاء.

وهو يكتب أعماله مستلهماً تقاليد الواقعية الاشتراكية المبكرة، ومتحاشياً الأساليب الأدبية المعقدة، لكي تكون كتاباته في متناول فهم أولئك الذين

يتوجه إليهم بها. ويتضح لنا من الإهداءات التي يستهل بها أعماله الجهة التي يتوجه إليها بهذه الأعمال، وها هو يقول في إهداء استهل به إحدى رواياته: «إلى جميع الكادحين في وطني الصغير سورية، وإلى جميع الكادحين في وطني العربي الكبير، وجميع الكادحين الذين شيدوا صرح الحضارة الإنسانية من دون أن ينالوا لقاء ذلك جزاء، وإلى الذين يناضلون في سبيل بناء مجتمع جديد عادل».

يصور محمد إبراهيم العلي بحب حياة الناس البسطاء الكادحين، ويحرص على أني ذكر جيل الشباب بمعاناة الآباء والأجداد وطموحاتهم الروحية، ونزاهتهم وحبهم للعمل وإنسانيتهم العميقة، وهذا من شأنه أن يذكى في نفوس الشباب شعلة الوطنية، ويشير حماساتهم لمتابعة النضال ضد جميع أشكال الاستغلال والإذلال، وفي سبيل إقامة علاقات عادلة بين الناس، وبين جميع الشعوب. ويرى الكاتب في هذا بالذات الهدف الرئيسي لإبداع الأداء العرب المعاصرين. وهذا الهدف هو ما تجسده رواية «الطغيان» التي يصور فيها حياة المجتمع السوري في النصف الأول من الأربعينيات.

بعد أن أنجزت في عام 1975 بناء المركز الثقافي السوفييتي الجديد بدمشق في شارع 29 أيار، وهي منطقة لا تقل أهمية عن منطقة المركز السابق في «أبو رمانة» الذي خربته الإسرائيليون، عدت إلى موسكو وتابعة دراساتي العليا لمدة ثلاث سنوات في أكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وبعد مناقشة أطروحة الترشيح لدرجة الدكتوراه التي كتبها حول موضوع: «الحركة الشبابية واتحاد شببية الثورة في الجمهورية العربية السورية» بدأت العمل في قسم الدعاية السياسية الخارجية في اللجنة

تصويب

عذراً.. أيها الكرام

لقد وقعت بعض الأغلط، وهنا تصويب لها

الصحيح	الغلط	ص. س
والهكسوس	والهكوس	ص 13. س 5
تقع على	تقع	ص 19. س 3
يسكن فيها	يسكن	ص 19. س 9
يسكنها	تسكنها	ص 19. س 10
الساحل	لساحل	ص 19. س 10
كثير	كثيراً	ص 20. س 4
معركة	حركة	ص 20. س 6
البابلون	البابلين	ص 10. س 11
أبو	أب	ص 21. س 6
العبرانيون	العبرانيين	ص 26. س 15
العثمانيين	العثمانيون	ص 32. س 14
المسيحي	المسيحيين	ص 33. س 7

العثمانيين
يعرف أي
الفرنسيين
الذي
حقيقية
السوفي
فأنحرفت
قاسي
ويندون
استدعائها
مقال
الدولة
اتحادية قام
الطائفة العلوية
الكلية
يدعو
كالخزوات
ثلاثة

العثمانيون
يعرف أي
الفرنسيون
الذي
حقيقية
السوفي
فأنحرفت
قاسي
ويندون
استدعائها
مقال
الدول
اتحادية
الطائفة السنية
الطليعة
يدعوا
خزوات
ثلاث

ص.40. س 10
ص 48. س 3
ص 56. س 18
ص 70. س 8
ص 70. س 16
ص 72. س 17
ص 80. س 20
ص 81. س 18
ص 82. س 11
ص 83. س 16
ص 84. س 8
ص 91. س 12
ص 92. س 6
ص 95. س 19
ص 97. س 1
ص 97. س 7
ص 98. س 16
ص 102. س 11

المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، حيث كنت مسؤولاً عن الإعلام الموضوعي في وسائل الإعلام الجماهيري، والأدب الصحفي والفني الذي يتحدث عن البلدان العربية، وعن حياة ونضال شعوبها، وكنت أسهم في تطوير العلاقات الثقافية والعلمية والإنسانية بين الاتحاد السوفيتي والوطن العربي، وقد ظل بلدنا وقيادته منذ ذاك الوقت وحتى عام 1991، وهو عام تفكك الاتحاد السوفيتي، يتخذان موقفاً مبدئياً وصلباً يلتزم بدعم حركة التحرر الوطني العربية، ويقدمانه مساعدة شاملة للبلدان العربية التي اختارت طريق بناء مجتمع جديد وعادل، وطريق التقدم الاجتماعي والاقتصادي سواء في مجال العمل البناء، أم في مجال التصدي لمؤامرات الإمبريالية وقوتها الضاربة في الشرق الأوسط (أي الصهيونية).

وقد زرت سورية مرات عدة، بحكم كوني نائباً لرئيس جمعية الصداقة السوفيتية السورية، وفي كل مرة كانت تنتظرنى لقاءات ممتعة ومكثفة مع محمد إبراهيم العلي وكثير من الأصدقاء الآخرين. لقد كان قائد الجيش الشعبي يشارك بفعالية في حياة البلاد الحزبية والاجتماعية والسياسية، وكان أحد أنشط القادة والأعضاء في حياة البلاد الحزبية والاجتماعية والسياسية، وكان أحد أنشط القادة والأعضاء أصحاب المبادرة في جمعية الصداقة العربية السورية-السوفيتية، إذ إنه كان على قناعة عميقة بأن التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفيتي هو الضمانة لتقدم سورية بنجاح على طريق التوجه الاشتراكي الذي اختارته لنفسها. وكان يثمن عالياً دور الاتحاد السوفيتي في تعزيز قدرة سورية الدفاعية. وقد عبر محمد إبراهيم العلي عن التقدير العالي لهذا الدور بلسان قائد بطارية في رواية «نجمة الصبح» عندما يقول: «إن الاتحاد السوفيتي لم

يخل علينا بشيء، ويمكننا بالسلاح الذي تمتلكه أن نحزز النصر أكثر من مرة، وقد أعطانا الاتحاد السوفيتي كل ما نحتاج إليه، والأكثر من ذلك أن قلوب السوفيت معنا». كما أن محمد إبراهيم العلي زار موسكو مرات عدة حيث كان يوسع دائرة أصدائه في أوساط القادة العسكرية والكتاب والعلماء السوفيت، وقد انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين مارشال الجو أ.غي. بوكريشكين الحائز ثلاث مرات على لقب بطل الاتحاد السوفيتي، وقائد الطائرة المطاردة الأسطوري في الحرب الوطنية العظمى. وكان الجيش الشعبي في سورية يتعاون مع نظيره السوفيتي المتمثل في المنطقة السوفيتية الوطنية الجماهيرية الدفاع التي تسمى: «الجمعية التطوعية لمساندة الجيش والطيران والأسطول» والتي كان يقودها طيارنا المشهورة في العالم كله.

وكنا في أثناء لقاءاتنا في دمشق وموسكو نناقش بحوية الأحداث الجارية في الشرق الأوسط، وكان محمد إبراهيم العلي يثني على مقالاتي في الصحف السوفيتية المركزية، حيث كنت أدمج جبهة الصمود والتصدي التي تشكل سورية نواتها الأساسية، وكنا نعبر معاً عن استكارنا لموقف السادات الخياني الذي أقدم على التواطؤ المنفرد مع تل أبيب، مستهيناً بالمصالح القومية للشعبين الفلسطيني والسوري. وكان محمد إبراهيم العلي بالذات هو الذي أوحى إلي بتأليف كتابي: «كامب ديفيد: سياسة محكوم عليها بالفشل» الذي أصدرته في عام 1979 في موسكو بالاشتراك مع صديقي الحميم المرحوم أندريه زاخاروف، الذي فارقنا قبل الأوان منذ عامين وهو في منصب سفير الاتحاد الروسي في دولة الإمارات العربية المتحدة، ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب الذي يبرز بصورة صحيحة جميع المسائل السياسية الأساسية، ويضع

النقاط على الحروف، قد ورد ذكره في الموسوعة السوفيتية الكبرى وغيرها من المراجع، وكان من دواعي سروري أن أعرف في أثناء زيارتي لدمشق في نيسان هذا العام أن دبلوماسياً روسياً من العاملين في السفارة السورية قد استعان بكتابنا هذا كمصدر له في أثناء كتابته أطروحته. وكنت أفخر مع صديقي الذي شاركني في التأليف أن كتابنا: «كامب ديفيد: سياسة محكوم عليها بالفشل» قد نشر بادئ ذي بدء على صفحات جريدة «البعث» ثم صدر بعد ذلك في كتاب مستقل في دمشق.

وقد صدرت في بداية الثمانينيات من القرن الماضي في الاتحاد السوفيتي الترجمة الروسية لروايتي محمد إبراهيم العلي: «التحول الكبير» و«نجمة الصبح»، وأخذ اسم الكاتب يشتهر في بلدي لا بصفته بطلاً وطنياً سورياً فحسب، بل وبصفته أديباً موهوباً أيضاً. وقد أصدرت إحدى أكبر دور النشر في الاتحاد السوفيتي وهي «دار النشر الحرية» في عام 1988 الترجمة الروسية لرواية محمد إبراهيم العلي «الطغيان» بخمسين ألف نسخة. وقد عملتُ بشغف كبير على ترجمة هذه الرواية، وكتبت مقدمةً وافيةً لها. وأسهم معي في الترجمة المستعرب السوفيتي المعروف ب. أي. شاغال. ويتحدث الكاتب في روايته بتعاطف وألم عميقين عن الشقاء الذي يعاني منه الفلاحون السوريون الذين يعيشون في القرى والضياع الواقعة في السهول الزراعية الممتدة من حمص حتى حلب، فقد كانوا يعانون من ظلم مضاعف وأحياناً مثلث من جانب البكوات والمستعمرين الفرنسيين وزبائيتهم، وتصور الرواية بلوحات معبرة مشاهد من حياة البدو المعيشية حيث «شرف العشيرة أغلى ما في الحياة». ويعبر الكاتب عن موقفه المتعاطف بعمق من الحياة

القاسية «لفرسان الصحراء» البسطاء، هؤلاء الذين لا يتميزون عن الفلاحين سوى أنهم لا يكسبون قوتهم من زراعة الأرض، بل من تربية المواشي.

وأذكر بالمناسبة أن محمد إبراهيم العلي لا يزال حتى اليوم يتمتع بهيبة وكلمة لا ترد لدى هؤلاء البدو شبه الرحل في البادية السورية، وقد لمست هذا شخصياً في أثناء زيارتنا المشتركة لمضارب البدو. وكثيراً ما كان قائد الجيش الشعبي يفصل في النزاعات التي كانت تنشأ بين عشائر البدو بسبب خطف خطيبة أو خلافٍ على اقتسام مياه الآبار. ويصور الكاتب في هذه الرواية المتعددة الخطوط والاتجاهات الوقاحة اللامتناهية، والقسوة اللتين يتصف بهما عملاء الصهاينة في سورية، إذ تطفح ترسانتهم بالابتزاز وشراء الضمائر، وإفساد الأخلاق والقتل والسلب والنهب، وإشعال الحرائق وتدنيس المقدسات الدينية.

وهم لأي تورعون، بغية إخافة الطائفة اليهودية في سورية وإجبارها على الهجرة إلى فلسطين، عن قتل اليهود والعرب على حد سواء بدم بارد، وإطلاق النار على المسلمين في أحد مساجد حلب، والإعلان عن أن هذه المذبحة الدموية هي من صنع أيدي اليهود بسبب التناحر بين العرب والعبريين.

ويكافح محمد إبراهيم العلي جميع أشكال التمييز العنصري، وعدم التسامح الديني، ويناصر عن قناعة المساواة في الحقوق، والتعايش بسلام بين الأديان التي كان الشرق الأوسط مهدها الأول، وهو يفضح زعماء الصهيونية الذين شوهوا اليهودية كدين، وحولوا اليهود إلى حطب لنيران الحروب، من أجل تنفيذ خططهم الجنونية المعادية للإنسانية، والهادفة إلى إحكام سيطرتهم على العالم. ويدين الرجل في الوقت نفسه إدانة حازمة الرموز الإسلامية الأصولية المتطرفة التي تشوه تعاليم الإسلام، وتقوّض السمعة الطيبة التي يتمتع بها

العرب المسلمون الحقيقيون. وقد اشتهر محمد إبراهيم العلي بدوره الشخصي في قمع العمليات الرجعية التي قام بها «الإخوان المسلمون» في سورية في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي. وهو بصفته وطنياً عربياً غيوراً، وضليعاً في تاريخ شعبه، يقدر عالياً مساهمة العرب المسيحيين في بناء الحضارة العربية-الإسلامية، وفي النهضة العربية وحركة التحرر الوطني، والمسيحي العربي في نظره هو من لحم ودم الأمة العربية، وها نحن نراه صديقاً للمفتي العام في الجمهورية العربية السورية، ولبطريرك أنطاكية وسائر المشرق، وهما يكتنان له عميق الاحترام. وهو يدعو على الدوام إلى التكاتف الإسلامي-المسيحي الذي كان على مدى التاريخ عربوناً لنجاحات وانتصارات العرب عموماً، وقد تسنى لمحمد إبراهيم العلي بحكم مكانته الرفيعة أن يقدم المساعدة غير مرة للطائفة المسيحية السورية، ففي عام 1994 سلم مفاتيح كنيسة قديمة تقع في قرية السودا (شرقي طرطوس)، حيث كان توجد ثكنة للجيش الشعبي، للكهنة الأرثوذكسي الجليل راعي الأبرشية الملحية، وقد ظل معسكر للجيش الشعبي يربط سنوات طوالاً في موقع تل كوكب، حيث تجلى نور السيد المسيح لشاول الذي أصبح اسمه فيما بعد بولس الرسول، وحيث يوجد الآن مصلى أهدته الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إلى بطريرك أنطاكية وسائر المشرق. وفي بداية التسعينيات من القرن الماضي وضع اللواء قائد الجيش الشعبي محمد إبراهيم العلي قطعة الأرض هناك في عهدة البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، وأقيم في ذاك المكان في عام 2003 وبمساعدة روسيا تمثال بولس الرسول، الذي أقيمت منذ سنتين احتفالات عامة لإحياء ذكرى حياته وأعماله الجليلة، على مستوى القطر وعلى

نطاق واسع شارك فيها ضيوف من بلدان كثيرة ومنها روسيا. وبما أنني أتحدث حول موضوع العلاقات الإسلامية - المسيحية لا يمكنني ألا أورد نبذة من رسالة الشكر الموجهة إلى الصديق العزيز والكاتب المعروف معالي الوزير محمد إبراهيم العلي:

مع أحر التحيات ومشاعر المحبة.

إننا نعبر لكم عن أعمق مشاعر الامتنان والمحبة لتشريفنا بوضع المبنى الذي كان يشغله سابقاً الجيش الشعبي في الصليبية في عهدتنا، وسيكون هذا المبنى أساساً لإقامة دير انتقال السيدة العذراء المقدسة للروم الأرثوذكس، إن مبادرتكم النبيلة سيخلدها إلى الأبد تاريخ أبرشية حماة للروم الأرثوذكس وستظل ذكراها خالدة في قلوب رعيتنا التي تحفظ الجميل.

إننا نعتبر هذه الأعطية دليلاً إضافياً ساطعاً عن مشاعر المودة والكرم تجاه الكنيسة الأرثوذكسية في عهد القائد العظيم حافظ الأسد، الذي يتابع مسيرته المجيدة رئيسنا الغالي وقائدنا الشاب الدكتور بشار فليحفظه الرب ويرعاه...».

إنني أكتب هذه السطور ونحن على أعتاب الذكرى الخامسة والستين لانتصار الشعب السوفيتي على ألمانيا النازية، هذه الذكرى التي سيحتفل بها على نطاق واسع في روسيا وفي العديد من بلدان العالم. وقد تذكرت بهذه المناسبة مشهداً آخر من سيرة محمد إبراهيم العلي، الذي زار موسكو عام 1985 بصفته ضيف شرف لحضور الاحتفالات بالذكرى الأربعين لانتصار الجيش السوفيتي في الحرب الوطنية العظمى، وكانت الزيارة تلبيةً لدعوة من جمعية الصداقة السوفيتية - السورية، ومن زملائه العسكريين السوفيت، ومن

عدد من المنظمات الاجتماعية الأخرى، وقد ورد في نص التحية التي وجهها إليه بهذه المناسبة رئيس جمعية الصداقة السوفيتية- السورية، ورئيس هيئة الدولة لشؤون الطباعة والنشر وتوزيع الكتب في الاتحاد السوفيتي ب.ن. باستوخوف.

«الرفيق العزيز محمد إبراهيم العلي.

إن هيئة الدولة لشؤون الطباعة والنشر والتوزيع في الاتحاد السوفيتي. ترحب من أعماق القلب بقدومكم إلى موسكو لحضور الاحتفال بالذكرى الأربعين لانتصار الشعب السوفيتي في الحرب الوطنية العظمى، هذا الانتصار الذي خلص شعوب العالم في أيار عام 1945 من الطاعون الفاشي.

إن مشاركتكم بهذا العيد الأغر البهيج شاهد على الاحترام العميق للبطولة، ولذكرى ملايين الناس السوفيت الذين ضحوا بأرواحهم في ميادين النضال ضد الطغيان الفاشي أبالسة الظلامية.

إن السوفيت يعرفونكم بصفتم ثورياً لا تلين له قناة، ومناضلاً متفانياً في سبيل حرية وسعادة شعبه، وبصفتم شخصية عسكرية وسياسية بارزة في الجمهورية العربية السورية، تبذلون الكثير من قواكم وجهودكم من أجل الاستمرار في تعزيز الصداقة والتعاون بين بلدينا.

ونحن نعرفكم كاتباً موهوباً أبدع أعمالاً تتمتع بالشعبية مثل: «المرابي» و«الطغيان» و«التحول الكبير» و«القناديل»؛ وتكشفون فيها عن الجوهر الحقيقي لأشرس أعداء سورية المحبة للحرية، وهم الإمبريالية والصهيونية؛ وتدعون فيها أبناء وطنكم إلى النضال ضد الاستعمار الجديد والصهيونية، وفي سبيل مستقبل مشرق للشعوب العربية، نود أن نعبر لكم، أيها الرفيق محمد

إبراهيم العلي، عن شكرنا النابع من القلب على كتابكم وتبرعكم بمكافأة المؤلف لصندوق السلام السوفيتي.

نتمنى لكم موفور الصحة والنجاحات الكبيرة في نشاطكم النبيل الهادف إلى تعزيز الصداقة السوفيتية- السورية. مع صادق الاحترام.

وقد نشرت الصحف السوفيتية الرئيسة في آب عام 1987 مرسوم رئاسة مجلس السوفيت الأعلى في الاتحاد السوفيتي، حول منح مواطنين سوريين وسام صداقة الشعوب الذي وقعه رئيس هيئة مجلس السوفيت الأعلى في الاتحاد السوفيتي، الذي ترأس في السابق خلال سنوات عدة وزارة الخارجية السوفيتية أندريه غرميكو، وينص المرسوم على مايلي:

«تقديراً للمساهمة الكبيرة في تطوير العلاقات الثقافية السوفيتية- السورية وبمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتوقيع اتفاقية التعاون الثقافي بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، والجمهورية العربية السورية، يمنح وسام صداقة الشعوب ل:

- نجاح العطار وزيرة الثقافة في الجمهورية العربية السورية.

- محمد إبراهيم العلي عضو اللجنة المركزية لحزب البعث العربي الاشتراكي.

موسكو، الكرملين 18 آب 1987».

كما سلم سفير الاتحاد السوفيتي في الجمهورية العربية السورية أ.س. دزاسوخوف محمد إبراهيم العلي أحد أرفع الأوسمة في الاتحاد السوفيتي.

وقد زار سورية في تشرين الثاني عام 2007 وفد من اتحاد كتاب روسيا يضم في عدادة صديقين قديمين من أصدقاء محمد إبراهيم العلي، وهما رئيس

الاتحاد ف.ن. غانيتشيف وكاتب هذه السطور. وبعد توقيع اتفاقية التعاون بين اتحاد كتاب روسيا واتحاد الكتاب العرب في سورية، جرت في دمشق مراسم منح عضو اتحاد الكتاب العرب محمد إبراهيم العلي جائزة رفيعة، فقد قلده رئيس اتحاد كتاب روسيا ف. غانيتشيف شارة التميز العليا للحركة الخيرية الاجتماعية «أناس العالم الأخيار»، كما قلده باسم اتحاد كتاب روسيا ميدالية ذهبية ودبلوم «ذكرى شولوخوف المئوية» عرفاناً بقيمة أعماله الأدبية المترجمة إلى اللغة الروسية. كما قلده أوليغ فومين نيابة عن رئيس الحزب الشيوعي في الاتحاد الروسي غ.أ. زوغانوف ميدالية إحياء الذكرى السنوية التسعين لثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى عرفاناً بموقفه الوطني والأممي.

ولا يمكنني بهذه المناسبة ألا أذكر عقيلة محمد إبراهيم العلي، ورفيقة دربه الوفية السيدة أم الندى، التي كانت وهي صبية الخامسة عشرة من عمرها قد قدمت يدها وقلبها للضابط الشاب، وها قد مضى الآن أكثر من خمسين عاماً وهي تسير برفقته جنباً إلى جنب في درب الحياة القاسي، وتشاركه لحظات المشقة والحرمان والخيبة والنصر، ويقول اللواء نفسه عن رفيقة دربه: «إنني أشكر زوجتي شكراً لا حدود له لأنها ظلت دائماً راعية الأسرة وحافظتها، وقد عكفت على تربية بناتنا الخمس وبنينا، وظلت طوال حياتها تحيطني بعنايتها ورعايتها، مما أتاح لي التحرر التام من المشاغل المنزلية، وتكريس كامل وقتي للخدمة في صالح الشعب» ويمكنني أن أقول بدوري إن أم الندى هي رمز للمرأة السورية التي تجسد التواضع الفطري، والحنان وكرم الضيافة العربي. وإن نسيت لا أنسى أنا وأبناء وطني، الذين أسعدهم الحظ بأن يكونوا ضيوفاً

في منزل أم الندى، ابتسامتها الترحيبية وحفاوتها، والمأكولات العربية الشهية التي تعدها بيديها، وتقري بها دائماً ضيوف الأسرة الأعزاء.

وما زال بوسعي أن أقول الكثير الكثير عن صديقي السوري المحترم والعزيز والوفي أبي الندى. ولعل الفرصة تتاح لي لأفعل هذا في إصدارات أخرى. وكنت قد التقيته آخر مرة في دمشق في نيسان هذا العام، وذلك بعد أن تقاعد، ورأيته مفعماً بالنشاط والحيوية، وقد كرمته في العام الماضي القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي بصفته أحد أعضاء الحزب القدامى البارزين، ومنحته أوسمة التميز اللاتقة بمكانته. وهو يقوم الآن بإلقاء محاضرات أمام نشطاء الحزب، ويعكف على تربية الروح الوطنية لدى الشبيبة، ولا يكف عن التفكير بخططه الأدبية المقبلة. وقد اجتمعنا مرة ثانية قبل مغادرتي دمشق، وعبرنا عن أسفنا لتفكك الاتحاد السوفيتي، ولبقاء مشكلة الشعب الفلسطيني من دون حل حتى الآن، وقد توصلنا معاً ونحن على أعتاب موعد زيارة الرئيس الروسي إلى سورية إلى استنتاج مفاده أن روسيا وسورية محكومتان بال صداقة، وذلك لأن ثمة أموراً كثيرة جداً تجمع بينهما، ونحن على ثقة بأن حليفنا المشترك سيكون النصر، واتفقنا على لقاءات قادمة.

وفي الختام أود أن أتمنى لصديقي العزيز حسب القول التقليدي الروسي:

«العمر المديد أيها الرفيق».

26/نيسان/2010

الشعب لا يقهر

أناتولي كاربوف*

ترجمة: هاشم حمادي

إن اسم الكاتب محمد إبراهيم العلي معروف لدى القارئ السوفييتي، ففي موسكو صدرت باللغة الروسية رواياته المعروفة: نجمة الصبح - التحول الكبير - والطغيان - هذه الروايات التي تسمح برؤية وفهم حياة سورية، البلد الذي تربطه بالشعب السوفييتي علاقات صداقة قديمة ووطيدة.

إن محمد إبراهيم العلي كاتب يرصد بكل اهتمام حياة الشعب العربي السوري الملحمية، ويركز اهتمامه على أولئك الناس، الذين يضعون سعادة شعبهم في المرتبة الأولى، الناس الذين لا يضنون بالتضحية بحياتهم في سبيل استقلال الوطن، وفي سبيل سيادة هذا الوطن، المضطر إلى خوض غمار المعارك ضد المحتلين الغزاة. ويتمتع الكاتب بقدرة على رؤية المهام التي تواجه الشعب كله، وتقترن هذه القدرة بالإلمام الواسع باهتمامات الإنسان البسيط، كما تقترن بالتعاطف مع حياته القاسية والجديرة بالاحترام والتقدير.

إن بالإمكان وصف روايات محمد إبراهيم العلي بالروايات السياسية، لأن حياة أبطاله تتحدد في خاتمة المطاف بالأحداث الجارية على تراب الوطن،

* الدكتور أناتولي كاربوف الناقد الأدبي عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية -

جامعة لومومبا - عضو اتحاد الكتاب السوفييت.

هذه الأحداث التي يساهمون فيها بمشاركة فعالة، لكن الكاتب لا يتطلع إلى مجرد الحديث عن بعض المشاهد المنفصلة من حياة وطنه وشعبه، بل إن ما يهمله هو تصوير الإنسان الذي يقطن الأرض السورية ويبين الأسباب الكامنة وراء استحالة قهر من لا يفصل مصيره عن مصير شعبه، ومن هنا تصبح الرواية السياسية رواية اجتماعية- سيكولوجية، فالمحور الأساسي هنا هو الإنسان، الإنسان الذي يعيش حياته بين دفتي الكتاب. والكاتب يولي كل الحب والتقدير لهؤلاء الناس «الجنود والضباط أمثال حمدان وجاسم وأحمد وعلي» في «نجمة الصبح»، والفلاحين «حسين ويوسف والمعلم عادل» في «الطغيان».

إن أهم الأحداث الجارية في حياة الشعب العربي في سورية هي القوة المحركة للموضوع في روايات الكاتب العلي، ففي رواية «نجمة الصبح» تطالعا هذه الأحداث في مجريات حرب تشرين 1973، فقد تزامنت بداية الحرب بالنسبة للملازمين الأولين أحمد وعلي مع عرسهما المنتظر: فهما وينطلقان إلى ساح التحرير من خلف مائدة العرس مباشرة، وليس من باب المصادفة أن الاحتفال بالزفاف قد بدأ في مثل هذا الطرف العصيب بالنسبة للوطن، فأبطال الكاتب يتمتعون بروح معنوية عالية، والحياة مستمرة في مجراها على الرغم من كل ما يتهدد سعادة الناس. وكما يقول المساعد حسين والد أحمد فإنه: لا داعي لتأجيل العرس، بل ليستمروا وليمرح الشعب، وهل هناك من فرح أكبر مما جاءنا الآن؟ لقد انتظرنا طويلاً من أجل أن ننتقم من أعدائنا».

إن الكاتب يصور أبطاله أقوياء ذوي روح معنوية عالية، يكرسون جل حياتهم من أجل مصالح شعبهم، ولعل أفضل صفحات «نجمة الصبح» هي تلك التي

تصور زحف القوات السورية عند أقدام جبل الشيخ، هذا الزحف الذي كان بقناعة أحد أبطال الرواية «سيكتب صفحة بطولية جديدة في تاريخنا» إنها الحرب العادلة التي يخوض غمارها الشعب بأسره، فهدي، زوجة الملازم مندر، تدرس التدريب العسكري في كلية البنات، وعن مثل هؤلاء النساء يقول قائد الجيش الشعبي إنهن ركيزة الأمة في الحاضر والمستقبل، وكلتا تلميذتيها خديجة وريم، الغارقتين في التحضير للعرس القريب، ومن ثم الذي بدأ، تلتحقان مع بداية الحرب بالمستشفى لكي تكونا، بدورهما، في عداد الشعب المكافح.

إن أبطال رواية العلي يعيشون في زمن محفوف بالخطر، الذي يهدد استقلال وطنهم، ومن هنا تركيز أفكارهم ومشاعرهم على شيء واحد، كيف يعيشون، وماذا يعملون من أجل أن يتوطد السلم والطمأنينة، ويترسخا على أرض سورية العريقة والرائعة. ولهذا فإن أبطال رواياته، حتى في منازلهم، يخوضون في النقاش السياسي، ويتحدثون بكل حماسة عن الأخبار الواردة من ساح المعركة، التي تدور رحاها غير بعيدة عن قريتهم، وحين يستشهد زوج فاطمة وابنها وشقيقها، فإن إحساسها لا يقتصر على الحزن العميق. «إنني فخورة وسعيدة فهم قدموا حياتهم من أجل حرية وطننا، من أجل أن تحرس نجمة الصبح النوم الهادئ لأبنائها، وأنتم عليكم أن تفخروا: فالأمة التي تنجب أبطالاً أمثال حسين حمدان وأحمد لا توجد قوة قادرة على قهرها، ونحن لن نحيد عن طريقنا».

إن المواطن السوفييتي، الذي ذاق مرارة الحرب، والذي يصون ذكرى الامتتان لأولئك الذين لم يعودوا، الذين دفعوا حياتهم من أجل سعادة الناس،

من أجل أن يعيشوا ويعملوا في ظل السلام، يتفهم جيداً الروح البطولية لروايات العلي، ويكن لها كل التقدير والاحترام، إن المناضلين الشجعان من أجل الاستقلال الوطني، الذين يعيشون على صفحات هذه الرواية يشيرون الإحساس بالاعتزام بالإنسان الذي لا يتوانى عن خوض المعركة المصرية ضد العدو الشرس، إن أمثال هؤلاء الناس جديرون بكل التقدير والإعجاب.

إن أحداث روايات العلي تتركز في رقعة صغيرة، لكن أبطالها يعيشون هموم ومعااناة الشعب العربي السوري كله، دون التفوق في النطاق الأسروي الضيق، بما فيه من أفراح وأتراح، إذ إن ما يحدث في الوطن وليس بالإمكان الانعزال عن هذه الحياة، والاحتماء بالجدران المنزلية من ما يجري خارجها، فالإنسان قادر على الصمود في وجه الشر، والتغلب عليه فقط حين يصبح جزءاً من الجماعة، تلکم هي الفكرة التي يحاول الكاتب جاهداً أن يسوق القارئ إليها.

في رواية «الطغيان» لا يكف المعلم عادل يؤكد هذه الفكرة بإصرار، ولما كان بالنسبة للفلاحين «منهم وفيهم» فإن كلماته تلامس شغاف قلوبهم، أما ما يقض مضاجع هذا المعلم فهو تطلعه إلى أن يتحول سخط فقراء الريف العفوي ضد مضطهديهم - المحليين والأجانب - إلى نضال واع ضد هؤلاء وأولئك.

إن رواية «الطغيان» تسمح بالإحساس بكل وضوح بشعور الإعجاب الحار، الذي يكنه الكاتب للكادحين. إنه يعرف حياتهم جيداً، فتراه يرسمها بكل دقة متناهية، وبتفصيل وإسهاب، يتعاطف معهم، يفرح لفرحهم ويتألم لألمهم، وما كثره من حياتهم.

كرس الكاتب رواية «الطغيان» للحديث عن تلك الحقبة من حياة سورية، التي كانت حركة التحرر الوطني فيها لا تزال في طور النمو، ويحاول الكاتب أن

يبين أنه لا توجد قوة قادرة على وقف هذه المسيرة لأنها تحتوي فئات الشعب العريضة.

وأبطال الرواية يرزحون تحت نير البكوات والمستعمرين الفرنسيين الظالمين، ولا يخفي الكاتب موقفه من الأغنياء البخلاء محبي المملذات على حساب الفقراء أبناء جلدتهم، فهم لا يتورعون عن نهب اللقمة الأخيرة من الفلاح وعن ارتكاب أبشع أنواع الجرائم بهدف تلبية رغباتهم القذرة، فرشاد بيك وصبري بيك والشيخ عبد الرحمن، إذ ينهبون الفلاحين المساكين، الذين لا حول لهم ولا قوة، يتذللون في نفس الوقت للمحتل الأجنبي، ويشاركونه الصفقات، ويخونون أسيادهم حين تدر عليهم هذه الخيانة المنافع الشخصية.

وفي القطب الآخر، المواجه لعالم البخل والحقارة والشر، يطالعا الإنسان الريفي المسحوق المذلول والمهان، لكنه لم يفقد تمسكه بمبادئ الأخلاق العالية، والقدرة على الحفاظ على كرامته، كما تحافظ عليها الفلاحة صفية، التي ترفض التنازل أمام ابتزازات وتهديدات رشاد بيك القذرة، وكما يحافظ عليها حسون، الذي يعتبرونه في القرية بهلولاً، لكنه يستغل ذلك ليلقي في وجه الطغاة بالحقيقة المرة ويضطر لدفع حياته ثمناً لذلك.

وثمة موضوع آخر مهم تعالجه هذه الرواية - المحاولات الصهيونية، الرامية إلى طرد العرب من فلسطين أرضهم الأم، ويبين الكاتب الأساليب الدنيئة التي تستخدمها الصهيونية من أجل ذلك: الظلم، الكذب، شاء الضمائر، الاستفزاز. وعملاء الصهاينة أمثال مارلين وشارون وجون يطالعوننا في الرواية أناساً بدون أخلاق، لا يتورعون عن ارتكاب أفظع الجرائم ضد الإنسانية بهدف تحقيق أهدافهم، وفي أغراضهم الاستفزازية لا يوقفون حتى أمام قتل اليهود، الذين

يرفضون المشاركة في الأعمال الصهيونية القذرة، وهذا- كما يعرف قارئ اليوم- لم يكن سوى بداية الطريق الذي تسلكه الصهيونية التي كتبت إحدى أكثر الصفحات مأساوية في تاريخ الشعب العربي.

في رواية «الطغيان» يصف الكاتب حياة شعبه، ومن خلال هذه الرواية والروايات الأخرى، ينداح أمام القارئ السوفيتي عالم لا يزال إمامه به قليلاً. فيها نحن ندخل مع الكاتب دار الفلاح السوري، ونراه في الحقل وبين أقرائه، ونتعرف على حياة الفلاح في الريف العربي بحلوها ومرها.

كل هذا يساعد في التعرف على الإنسان الكادح، الذي يقطن بعيداً منا نحن الروس، والذي نتفهم اهتماماته ونشعر أنها قريبة منا.

إن الفن يقرب بين الشعوب، ويساعد في رؤية النواحي الكثيرة التي توائم بين الناس في مختلف أنحاء المعمورة وتشدهم إلى بعضهم.

ثم إن الفن يسمح بفهم مكمّن قوة الإنسان وقدرته على مواجهة الشر، والثقة بالتغلب عليه في نهاية المطاف. في روايات محمد إبراهيم العلي قد تبدو سلطة البيكوات وأزلامهم لا حدود لها، وإن الفلاح المسكين لا حول له ولا قوة، وإنه مغلوب على أمره ولا شيء يحميه من هذه القوة الغاشمة، لكن هذا الجبروت إن هو إلا وهم، فمع مرور الزمن يدرك أولئك الذين يقعون وراء مقاليد الحكم أن الأرض تמיד تحت أقدامهم، وفي نهاية الرواية يضطر ذوو النظرة البعيدة منهم إلى استبدال لهجة الاحترام بلهجة التحقير والإذلال السابقة في معاملة الفلاحين، لكن هذه مجرد حيلة تكتيكية، ومع ذلك فهي تدل على أن زمن رشاد بيك وأمثاله قد ولى وأن عهدهم قد انتهى.

إن روايات العلي مفعمة بالتفاؤل الشجاع، وهذا شيء جدير بالاهتمام لأن الكاتب يتحدث عن المراحل الصعبة في حياة شعبه، ويختار تلك الأحداث من تاريخه، حيث لا يزال النصر بعيداً، لكن الثقة بهذا النصر وأنه آت لا ريب فيه توطد العزم، وذلك لأن من يعيش على صفحات هذه الروايات أناس أقوياء جريئون واثقون بقوة الخير والعدل، وهم يكونون لوطنهم كل الحب. إن اللقاء بأمثال هؤلاء يثلج فؤادي القارئ الذي يتبع بكل اهتمام مجريات ووقائع حياة الفلاح والجندي والضابط في سورية، حياة النسوة اللطيفات والرائعات، اللواتي يعرفن واجبهن جيداً، ويخلصن له.

إن محمد إبراهيم العلي يقود القارئ إلى عالم يقطنه أناس تود أن تصادفهم، أن تتعاون معهم من أجل أن تصبح الحياة في المعمورة مفعمة بالسعادة لكل من يزينها بعمله، ولذا فإن اللقاء مع روايات هذا الكاتب السوري يشكل حدثاً هاماً لكل قارئ.

رأي .. وتصويب

د. كمال خلف الطويل

قرأ الدكتور كمال خلف الطويل الأجزاء الثلاثة التي كتبها تحت عنوان (حياتي والإعدام)، وكان له هذا الرأي الذي أنشره كاملاً. بدءاً، فلعله من أمانة القول أن يحمد للسيد مصطفى طلاس ومحمد إبراهيم العلي تصديهما لتدوين شهادتهما على التاريخ الذي عاشاه وساهما بتشكيله - كل من موقعه - بصرف النظر عن صواب السردية - كلاً أم جزءاً - من عدمه.. إذ أن تاريخ سورية الحديث - وبالتحديد عبر نصف القرن المنصرم: أي منذ وحدة -58 هو تاريخ مسكوت عنه، مكبوت في صدور من بقي على قيد الحياة، ومنسي في غياهب قبور من رحل، ممن كانت لهم أيام فيه ومعه. وما على هاوي التاريخ ومتابعه وقارئه إلا أن يقاطع الشهادات بعضها بعض، ويقايسها على الوثائق المنشورة في الخارج، وعلى الشهادات الشفوية للصامتين، وعلى الوقائع المدونة من أحداث ذلك الزمان ليخلص إلى ما هو الأقرب للحقيقة.

ألج إلى تناول شهادة محمد إبراهيم العلي - من أجزاء ثلاث - بعدما
سنتحت لي فرصة مطالعتها مؤخراً، وهي بعنوان : حياتي والإعدام.
ليس القصد هنا مناقشة رأي الكاتب في الأحداث وشخصها وملابساتها
، وإنما التفاعل تصويماً لما رصدته من أخطاء وهنات، إن لجهة الوقائع أم
لإسقاطاتها.

الجزء الثاني:

ص189: الذي ذهب لإبلاغ القوتلي بذهاب الوفد العسكري لمصر
للتباحث حول إقامة الوحدة كان العميد أمين النفوري نائب رئيس الأركان وليس
رئيسها عفيف البزرة، وهو من كان على رأس الوفد.

ص190: عبد الناصر وصل دمشق في 24 شباط وليس 22 شباط.

ص219: هل كان المقدم فهد الشاعر ناصرياً عندما اشترك بانقلاب
8 آذار؟ أم كان مستقلاً على طراز زياد الحريري، وغسان حداد؟ ألم يتبعث
خلال أسابيع كما غسان فيما رفض زياد؟

بالمقابل نجدك في ص223 تصف راشد القطيني بأنه مستقل فيما هو
عرف بأنه ناصري.

ص228: تصف محمد عمران بأنه كان محبوباً من عبد الناصر! لم يكن
قد التقاه بعد.. هو قابله أول مرة في الجولة الثالثة لمباحثات الوحدة بنيسان
63، وقد يكون أحبه بعدها.. لكن قبلها؟

ص235: صلاح الحديدي كان قائد المنطقة الشرقية عام 63 ثم أنه لم
تكن هناك فرقة ثالثة مدرعة.. الفرقة المدرعة الوحيدة حينها هي الرابعة.. الفرقة
الثالثة هي فرقة مشاة آلية.

ص286: صلاح البيطار لم يستقل في أيار 63 احتجاجاً على الإطاحة بزياد الحريري لأن الأخير ببساطة لم يطح به إلا في 8 تموز 63.

هو استقال حينها بسبب استقالة الناصريين من وزارته، ولما اعتذر سامي الدروبي عن التكليف وفشل سامي الجندي بالتشكيل عاد البيطار وشكل وزارة ترك فيها شواغر أجولة حسن نية نحو المستقلين.

ص287: قرارات تسريح أعوان الحريري صدرت أواخر حزيران فيما هو في الجزائر، أما عن شخصه فهو لم يبلغ بإقالته من منصبي وزير الدفاع ورئيس الأركان إلا إثر عودته إلى دمشق، وأنا ما عليه إلا المغادرة سفيراً متجولاً. وفعلاً ودعه البيطار في المطار يوم 8 تموز.

ص288: يعني ماذا تسمي سفر لؤي الأتاسي الطارئ للقاهرة في أيار فيما عبد الناصر في الجزائر وعامر في موسكو؟ هل توقع أن أنور السادات يكفي وفي؟ عجب! ثم أن رحلة عبد الناصر للجزائر لم تكن سرية بل شديدة العلنية، وعلى يخب الحرية.

ص289: علي صبري لم يكن في تموز نائباً لرئيس الجمهورية بل رئيساً للمجلس التنفيذي.

ثم من حدد يوم 18 تموز موعداً لزيارة وفد سوري برئاسة لؤي الأتاسي لعبد الناصر؟ هل القاهرة؟ وهل كانت - عند التحديد - على علم بموعد محاولة جاسم علون الانقلابية وابتغت التوقيت، أم هي صدفة؟ ثم هل استنتجت من لقائكم يومها معه في الإسكندرية أنه كان على سابق علم بالمحاولة؟

ص307: رفع أمين الحافظ في تموز 63 إلى لواء لا فريق.

ص322: المؤتمر القطري عقد في أيلول 63 وليس تشرين الأول.

المؤتمر القومي السادس هو الذي عقد في تشرين الأول، ولم ينتخب حافظ الأسد ستنها عضواً في القيادة القومية وإنما في القيادة القطرية وكان حينها بمرتبة رائد ثم رفع إلى مقدم في تشرين الثاني مع ترفيع العقيد محمد عمران والمقدم صلاح جديد لرتبة اللواء، ثم رفع اللواء في ديسمبر 64. ص323: المؤتمر القطري الاستثنائي عقد مطلع شباط 64 لا قبله بشهر أو شهرين.

وكما أسلفت لم يرفع حافظ الأسد حينها اللواء بل مع نفي اللواء محمد عمران للخارج في ديسمبر 64.

ثم أن أزمة الحزب في العراق دامت أسبوعاً من 11-18 تشرين الثاني 63 وليس في أواخره.

ص 324: صدام حسين كان في نوفمبر 63 عضو مكتب الفلاحين القطري وعضواً في المؤتمر القطري، أي شخصية شبه ثانوية في الحزب.

ص 351: القيادة القطرية المنتخبة في أيلول 63 ضمت: حمود الشوفي وأحمد أبو صالح ومحمود نوفل وخالد الحكيم ونور الدين الأتاسي وحافظ الأسد ورياح الطويل ومحمد عبيد.

لم يكن فيها إبراهيم ماخوس وصلاح جديد ومحمد عمران ومنصور الأطرش وشبلي العيسمي وصلاح البيطار وسامي الجندي.

ص357: القيادة القومية المنتخبة من المؤتمر القومي السابع الاستثنائي في شباط 64 لم تكن مؤقتة.

ثم أنه عبد المجيد لا عبد الرحمن الرافعي.

ص 362: فصل صلاح البيطار من قبل القيادة القطرية جرى بعد خروج الحزب من الحكم في العراق.. لم يكن يومها هناك مجلس رئاسة.. هذا أنشئ في مايو 64.

كان هناك المجلس الوطني لقيادة الثورة والذي تم تعيين البيطار في يناير 64 نائباً لرئيسه كترضية بعد تجميد الفصل، ولم يشكل البيطار وزارته الرابعة إلا في مايو 64.

ص 366: عمران أبعد في ديسمبر 64 وليس في شباط 65.

الجزء الثالث:

ص 124: الذي عقد بعد المؤتمر القومي الثامن المنعقد ربيع 65 كان مؤتمراً قطرياً استثنائياً التم في آب 65، وليس مؤتمراً عادياً. لم يكن ميشيل عفلق وقتها أميناً عاماً بل كان منيف الرزاز. أنت تقصد المؤتمر القطري العادي في آذار 65، وهو الذي سبق المؤتمر القومي بشهرين.

ص 125: في هذا المؤتمر انتخب محمد الزعبي أميناً قطرياً مساعداً أما صلاح جديد فحل محله في هذا المنصب في آب 65 بعد تركه رئاسة الأركان، أي مع المؤتمر الاستثنائي في آب.

ثم أن أحمد أبو صالح لم يكن ولا مرة عضواً في مجلس الرئاسة.

ص 127: حلت القيادة القومية القيادة القطرية في 8 ديسمبر 65 وليس أواخر صيفه.

كل ما وصفته من أحداث وقتها جرى في ديسمبر 65-شباط 66.

ص 129: لم تتفق القيادتان القومية والمحلولة القطرية على إنشاء قيادة موحدة، وإنما شكلت القيادة القومية قيادة حزبية عليا لتضمها مع من عينتهم من سوريين هم: صلاح البيطار وإلياس فرح وعبد القادر النبال ومحمد عمران. ص 130: أحمد سويداني عين مديراً للمخابرات العسكرية منقولاً من الشرطة العسكرية عام 64 وليس يناير 66.

هو من كشف كوهين في يناير 65 ، مع معاونه وداد بشير. ص 131: ماذا تقصد بأن القيادة القومية اضطرت إلى إعادة تشكيل قيادة قطرية جديدة؟ الأمور مضت إلى انقلاب في شباط 66 أليس كذلك؟ ثم أن صلاح نمور كان قائد اللواء المدرع الخامس بحمص عشية حل القيادة القطرية، وكان اختطافه من مصطفى طلاس وخالد بدوي شرارة انفجار الأزمة، وهو المحسوب على أمين الحافظ.

هل بعدها عين أحمد خضور قائداً للواء كحل وسط وهو المحسوب على محمد عمران؟ بالمناسبة، فالقيادة القطرية المنتخبة في آب 65 ضمت سليم حاطوم ومصطفى طلاس (كان وقتها رئيس أركان اللواء الخامس، وقائده صلاح نمور).

ص 143: أعضاء مجلس الرئاسة المعينين في يناير 66 هم: شبلي العيسمي وأحمد الخطيب وحسان مريود (وليس عبد الفتاح البوشي الذي كان وزير مالية يوسف زعين وخرج معه).

ص 265: أواخر 67 كان أحمد المير قد أصبح عضواً في القيادة القومية منذ أيلول وترك سلك العسكرية، فما الصفة التي جال فيه مع رئيس الأركان أحمد سويداني على القطعات؟ هل كمسؤول حزبي؟

ص 268: بعد عزله من رئاسة الأركان في شباط 68 عين أحمد سويداني رئيساً لمكتب المنظمات الشعبية القطري وليس مكتب الشبيبة.
ملفت قولك أن من أتى بمصطفى طلاس خليفة له في رئاسة الأركان هو صلاح جديد وليس حافظ الأسد الذي كان يفضل عواد باغ عليه.
ثم وقتها لم يكن طلاس عضواً في القيادة القطرية، هو خرج منها في أيلول 66.

ص 313: لم أفهم ما هو الحصار الذي كان مضروباً على ياسر عرفات في تشارين 69؟

الرجل ذهب للقاهرة ووقع اتفاقها أوائل نوفمبر مع إميل البساتي.. هل كان محاصراً قبل الاتفاق؟

ص 321: ماذا كان يشغل عبد الحليم خدام ما بين احتلال الجولان وتعيينه وزيراً للاقتصاد في مايو 69؟ هل كان متفرغاً حزياً؟
ثم أن كمال ستينو لم يشغل في حياته منصب نائب رئيس الجمهورية، وهو في صيف 68 لم يكن يشغل أي منصب.

في أكتوبر 68 انتخب عضواً في اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي.
أظنك تقصد أنك التقيته في نيسان 71 في بلغاريا.

ص 327 : الوزارة الزعينية التي تقصدها هي التي شكلت في أيلول 65 ، وليس في 68.

ص 328: عادل نعيمة لم يدخل القيادة القطرية إلا في آذار 69 وليس أيلول 68.

حينها كان أحمد سويداني قد خرج من القيادة القطرية وحل محله مصطفى طلاس.. ثم أنت أغفلت فايز الجاسم.

ص 332: علمي أن عبد الكريم الجندي أسس مكتب الأمن القومي في أيلول 66 بعد المؤتمر القطري الثالث، وليس بعد انقلاب 8 آذار.. ما بين التاريخين كان اهتمامه الأساسي مسائل الإصلاح الزراعي.

ص 286: أغفلت من تشكيل القيادة القطرية المؤقتة في 16 نوفمبر 70 ، عبد الرحمن خليفاي وداود الرداوي وعبد الله اللاذقاني، وأضفت عليها من لم تضمه إلا في أيار 71، وهم فايز الناصر والياس اللاطي وطه الخيرات.

والحق أن الأهم من الأخطاء هو الإغفال.. أقصد عدم تناول الكاتب الأحداث عايشها حتى الثمالة مثل، وقائع حربي 67 و 73، والدخول السوري للبنان 76، وحرب المخيمات 85-88، والحرب الأهلية 79-82، وحرب 91 على العراق، وانفراط ميثاق العمل المشترك السوري العراقي 79، والحرب الهاشمية - الفلسطينية في الأردن، والحرب الأهلية اللبنانية. أحسب له على كل أنه أخرج من دروج التاريخ أسماء وحوادث لم يسمع بها السوري تحت الأربعين إلا ما ندر، وطرحها للتداول والأخذ والرد والجدل والحوار.. ولعمري أن ذلك من فضائل الأمور. أحضه على تغطية ما أغفل، ومجايلته على التقدم بالقلم واللسان، فتاريخ "الشام" يستحق البوح والتدوين والمعرفة، لا الكتمان.

حكاية وطن في رجل المبدع.. والبندقية

إلهام سلطان^(*)

بين صرخته الأوج.. ورجفة زناقه.. سيرة مناضل عشق أرضه حتى الثمالة
فرسم على روحه حكايا وطن.. يندّ تقبض على الزناد ويدّ تداعب القلم بأن
معاً.. لترسم الوطن صلاة عشاق هم من يرسمون التاريخ.. من يسطرون قصص
أمجادهم وبطولاتهم من يلونون الشمس بإبداعاتهم، من يجعلون من البندقية بهاء
حبرهم في ذاكرة الأرض صفحات بيضاء للأجيال القادمة...

إن السيرة المجيدة للشعوب هي عبارة عن بناء كل حجر يستند إلى
الحجر الذي قبله ويعد أساساً للحجر الذي بعده.

وكذلك حياة وبطولات مبدعنا محمد إبراهيم العلي في تاريخ سورية هذا
البلد العريق الذي قاوم عبر التاريخ كل أشكال الاحتلال. فمرّ عليه الكثير من
المماليك والمغول والتر والصليبيين والعثمانيين والصهاينة ولفظهم كلهم وبقيت
هذه الأرض شامخة تعانق الشمس بسبب بطولات رجالاتها التي حضنتها في
بؤبؤ العين من كل غزوات الزمن، ومناضلنا محمد إبراهيم العلي وهب حياته
وروحه في سبيل حرية واستقلال بلده. فمنذ الوحدة إلى الانفصال إلى حركة
الثالث والعشرين من شباط إلى حكاية التشريين إلى بطولات الجيش الشعبي
ومضات حياة في هذه الأرض التي تحمل من حضارة ثمارها.. فشجرة

(*) كاتبة إعلامية ومهندسة في التلفزيون العربي السوري ومعدة برنامج إبداع.

الفينقيين المثقلة بالأبجدية وشجرة الكنانعيين المثقلة بالآلهة، وشجرة الرومانيين المثقلة بالشرائع والبيزنطيين المثقلة بالترانيم وشجرة الإسلام المثقلة بالحب والسلام كل هذه الأشجار تشكل بهاء حبر لمبدعنا.. لنقول في النهاية إن الغلبة ليست لقوة تقهر وتدمر ، وإنما لبذرة تنمو ونهر يجري وشمس تشرق كل يوم، تشرع أبوابها للحب والفرح والأمل. ولرجال حملوا أقلامهم ونشروا فكرهم وثقافتهم على جبين الشمس ووثقوا تاريخ أرضهم في أديم الذاكرة ووشمهم هذه الأرض في سجل أبنائها الخالدين.

فالمناضل والأديب محمد إبراهيم العلي لنبض كلمة إبداع ولصوت بندقية صرخة... سيجب سوار الشمس بألف مدى.. ولتعرف حضارة أي أمة من الأمم نفتح دفتر مبدعها وفنانيها وكتابتها فهي رموز وضاءة وأيقونات خالدة..

ولأن كل ما تبنيه الأمم من حضارات مادية يزول ولا يبقى لها إلا عمق الثقافة وألف الإبداع فهي حضارات خالدة...

حضارات خالدة سطرته زنايق ذهبية بفكرها وثقافتها ووطنيتها فبات القلم الذي يكتب بحبر دهشته الأرض التي لا تغيب عنها الشمس.

من نرف الجراح ومن آلام شوك الدردار الذي وشم على تراتيل نبضه ومن صرخة القهر والحرمان يطل علينا.. سندياناً.. غاراً.. نساً.. ألقاً.. يحمل بين خافقيه ترانيم الإنسانية المعمدة بالحب والخير والعطاء.. يطل علينا بيده المرتجفة التي تختزن بين وريقاتها حكايا سنين الألم والقهر ومعاناة الفقر والمحرومين والمظلومين وحكايا الأبطال والمناضلين ..

رجلٌ ليس كغيره من الرجال .. درب بطولات وأمجاد وتضحيات خطه من نعومة أظفاره بقدمين متعبتين على طريق شوك الدردار.. ويدين غضتين نحتت

في جيد الصخر مسيرة نضالها.. قاتل.. ما تراجع يوماً وما استسلم تابع بإصرار
وحزم بيد رسم تاريخه النضالي ويد تكون على ورقات الإبداع قصصاً لا ينتهي
بريقها..

حياة محمد إبراهيم العلي بين القص والرواية والشعر والأبحاث ومداد
البندقية توضأت أحرفه بتمر الوطن ودثره بين خافقيه قداسة البخور... التقية
للمرة الأولى في مكتب الدكتور رزق الياس وتعرفت إلى هذه القامة السامقة
الباسقة التي طالما عشنا بين صفحات رواياته.. تربينا على أفكاره ونهلنا من
جمال وروعة قلمه التقنية وكان التاريخ بكل أبعاده شريطاً من الذكريات تمر أمام
ناظري.. ودقات الساعة تعلن زمنها من تاريخ هذا الثائر المناضل الذي يرسم
في كل دقة من دقائقها حروباً ونضالات ومواقف ودماً ودموعاً وفرحاً وحزناً وألماً
وشموخاً كان وما زال.. تفتحت ذائقتي الأدبية عبر كلماته وقصصه وسطور
حياته وتنفست عشق الوطن من أريج أحرفه.. وشعرت أن الزمن توقف.

محمد إبراهيم العلي هذا السوري النبيل الذي يحمل رائحة السنديان
والبلوط، وألم شوك الدردار مع جمال زناقه تفوح رائحة الغار من جمر خافقيه
التي بدأت شرارتها الأوج.. منذ عام 1962 وحركة الضباط الأحرار التي توجت
بمؤتمر حمص الشهير.. مما أدى إلى إبعاد أصحاب الانفصال وإعادة البعثيين
والناصرين إلى مسرح الأحداث ولیدخل بعدها إلى السجن في سبيل وحدة
وحرية وطنه الذي تأبى إلا أن يكون يداً واحدة لا تقبل الانفصال كيف لا..
وهي الخطوة الأولى في سبيل الوحدة من المحيط الهادئ إلى الخليج الثائر..
دخل الزنزانة وقبع بين جدرانها وخلفه قضبانها لتوهج في قلبه شمس مشاعل
وجل ما كان يدمي روحه هو وجوده مع خائن يعمل لصالح إسرائيل عانى ما

عانى في السجن ، ولكن بقي سمو وشموخ بلده أقوى من كل الآلام وكان لي الشرف أن أجسد سيرة حياة هذا الرمز في برنامج إبداع.. تناول المحطات الهامة في حياته.. وصفحات حياة المناضل والأديب محمد إبراهيم العلي صفحات وطن لا تنتهي وثقة عبر سلسلة حياته في كتابه (حياتي والإعدام) بأجزائه الثلاثة الذي يضم تاريخ سورية بأبعاده الوطنية والقومية والسياسية ضمن سيرة حياته فهي توثيق وسيرة ذاتية لمراحل نضاله وخطوات حياته من صرخته الأولى في قريته أم حارتين عبر سلسلة وقفات ونضالية وشمأ في ذاكرة الوطن ... وبقي العريف محمد وسيرته الذاتية في روايته (الذئاب) التي يجسد فيها بطولات أسطورية للجيش العربي السوري، بطولات تتوهج قوة وعزة وعنفواناً لأبطال كتبوا بحبر دمهم أهزوجة النصر على ربي قاسيون.

سطر محمد إبراهيم العلي تاريخ بلده بأقلام صادقة ومداد لا يهمد بريقه ووضعه تحت الضوء.. هذا التاريخ الذي كان يركن في زوايا النسيان وبين خوابي العتمة ورفوف الجهل السوداء.

أديننا عانى من الفقر والحرمان والتشرد ومن ظلم الإقطاع وقهر الفلاحين واستعبادهم كل ذلك أمام ناظره وهذا فجّر في داخله مساكب من نور ومداد شلالات إبداع.. واخترت كل تلك الصور في ذاكرته وقيت في ثنايا نبضه ليضفر من بوحها وضجيج حبرها كنوزاً إبداعية وكتباً تاريخية وروائية أغنى بها مكتبه وذاكرة الوطن عرائش زهو أنامله التي تتوضأ بعطر الوطن تدثر حكايا التاريخ بتبر قاسيونها وتدثر هدير بردى نبضاً بين خافقيها ..

لاوديسا عمريت، حكايا الشهباء صرخة أبي فراس الحمداني وأنين نواير حماء مدينة أبي الفداء، بصرى بقلعتها وبهائها وصدى السنين المحفورة على

مدرجها والفيحاء بجمالها وعنفوان قاسيونها كلها تكحلت بناظره وشهدت على عطائه ونضاله في المعركة كان فارساً مقدماً يزغرد الفارابي في ناظره وفي صرخة الإبداع كان بهاء حبره يلون جيد صفحاته وقفات عالية المدى على صهوة الريح بضفائر عطر وجمار كلمات وأبجدية بحروف سمراء في مرايا الإبداع ..

مثل المرابى والطفيان والتحول الكبير والقناديل ونجمة الصبح وحياتي والإعدام والدولاب وشوك الدردار والصيد تحت الجليد... وما زال قلمه يبدع.. وتاريخه النضالي مشرف فمنذ صباه شارك في النشاط الثوري وكان عمره ثلاث عشرة سنة عندما انتسب إلى حزب الشباب وتابع في نضاله ضد الظلم والطفيان الإقطاع والمستعمرين ففي عام 1963 حكم عليه بالإعدام في حلب.. ولكن حزب البعث العربي الاشتراكي الذي تسلم السلطة في أعقاب ثورة الثامن من آذار فتح أبواب السجن أمام المناضل محمد إبراهيم العلي وفي حركة الثالث والعشرين من شباط عام 1966 كان له دور فعال فيها وشارك مع الرئيس حافظ الأسد مشاركة فعالة في الحركة التصحيحية في السادس عشر من تشرين الثاني عام 1970، قامت من أجل تطوير أهداف حركة الثالث والعشرين من شباط عام 1966.

ورفد محمد إبراهيم العلي بنشاط جهود الرئيس لإنشاء الجبهة الوطنية التقدمية في سورية.

وهو أول قائد للحرس القومي في سورية.

حيث تولى قيادة الجيش الشعبي من عام 1967 وحتى عام 2005، وقد ساهم شخصياً في إنشاء منظمة فتح الفلسطينية وظل محمد إبراهيم العلي من

عام 1985 وحتى 2005 عضواً في اللجنة المركزية للحزب، وهذا بعض من تاريخه النضالي أما في مجاله الإبداعي ، وعلى مسافة السطر تزهو ورقاته الخضراء التي تبوح بموسيقا ناعمة تحت الضوء وترمي بالعتمة إلى البعيد.. وتعزف، على سلم الحلم فيتابع قلمه بخطوات ثابتة وأحرف جميلة وأنفاس رقراقة تلتقط الشمس من وميض الحرب والسلم فيهدر موج إبداعه وجمر روحه.. موجاً زللاً لا يستكين فيزهو جسد سرده شهد العسل وشغف المفردات فيتعانق الحرف والنض والحب والغار ليرسم لوحة وطن وحكاية فارس .

وفي سورية ما زال رغم كل ما حدث ويحدث الضوء يتحدى العتمة ويصارع كي يمحو الظلام.. وتشرق المحبة بكل ألوان الحياة.. وهذا من عظمة وروعة وجمال شعبها الخلاق.. هذا الشعب الذي وشم آثاره وبصماته على مر الأزمنة والعصور وما زال يرتل الإبداع قصيدة عن مبدعيه ومتفقيه ..

ومحمد إبراهيم العلي المناضل والكاتب والباحث الروائي والإنسان السوري بالرغم من أنه تجاوز الخمس والثمانين ما زال فكراً وقادراً وذاكرة حية نابضة بالحياة وما زال يزلزل من بين جمر أصابعه وضوء خبره صرخة تزين جيد الصباحات بجمال الوطن!

إمهال ولا إهمال

د. عبد السلام العجيلي*

انتهيت اليوم من قراءة آخر قصص "شوك الدردار"، المجموعة القصصية لأبي ندى، الأستاذ محمد إبراهيم العلي، فوجدتني أردد لب نفسي، جاداً في هذه المرة، ما كنت قلته في ذات أمسية بلهجة أقرب ما تكون إلى المزاح عن الأعمال الأدبية لأبي ندى، على منبر المركز الثقافي في بلدتي، الرقة، في حضور مبدع تلك الأعمال وحضور العديد من قرائه والمهتمين بأدبه ونقاد هذا الأدب.

ما قلته في تلك المناسبة كان رداً أو، بالأحرى، كان تعليقاً على ما تحدث به الأدباء الذين تتالوا على المنبر وهم يسيطون للمستمعين آراءهم المستنتجة من دراستهم لروايات محمد إبراهيم العلي، وهي روايات غير قليلة في العدد احتلت حيزاً لا يستهان به من المكتبة القصصية السورية والعربية. أسهب المتكلمون في تلك الأمسية في طرح آرائهم. وعلى خلاف ما كان يتوقعه بعض الحضور لم تكن كل الآراء المطروحة إطراء وتقريباً للآثار المتحدث عنها، مما قد تسوق إليه المكانة الشخصية لمبدعها، وهي مكانة بارزة في ميادين هامة إذ إنها بعيدة عن ميدان الأدب، فلقد كانت تلك الآراء دراسات جادة ألفت الأضواء على خصائص النتاج الروائي المدروس فكشفت جوانبه الإيجابية، ولم تتردد في بعض الأحيان عن توجيه النقد لجوانب أخرى رآها الدارسون مآخذ

* أديب، روائي، شاعر.

على ذلك النتاج. وهذا، فيما أراه، ما يعطي الدراسة النقدية أهميتها وقيمتها. فأنا كثيراً ما أتمثل بقول بومارشيه: "إذا لم تكن هناك حرية في انتقاد التقييم فلا قيمة للمديح وتعداد المحاسن". وأحسب أن كاتب الروايات التي تحدث عنها المتحدثون آنذاك لم يستغرب إبداءهم آراءً ليست كلها إطرءاً وتقريباً. فهو نفسه، في المقدمة التي صدر بها مجموعة "شوك الدردار" يقول ما يلي عن مؤلفاته:

"ولا بأس في أن تتعرض هذه المؤلفات للنقد، فمن قائل إنها ضعيفة فنياً، ومن قائل إنها جيدة في كل شيء ولكنها تكتب بلغة سهلة وبسيطة، وآخرون استكروا في البداية هذه الأعمال".

إلى آخر ما أورده مما يساق على رواياته من مآخذ عند بعض الدارسين لها، وهو بهذا الإيراد يعبر عن صدق مع النفس وسعة في الصدر وسلامة في التفكير في آن معاً.

أعود إلى ما رددته على نفسي من قول كنت قلته أمام حضور الأمسية التي ذكرتها في أول هذه السطور. قلت يومها إن النقاد كثيراً ما يذكرونني بروكروست وسرير بروكروست. كان بروكروست ينيب من يدخله بيته في سرير معد لاستقبال نزلائه، فإذا كان النزيل أطول في قامته من السرير قطع بروكروست قدميه ليصبح طوله متناسباً مع مقاييس سريره!

وكذلك النقاد في كثير من الحالات، إنهم يريدون منا أن نكتب ما هو في ضمائرهم أو ما يتوقون إلى أن نكتبه لهم، فهم يعاقبون بتقطيع الأوصال من لا ينزل على مقاييسهم أو من يكتب ما لا يلائم أذواقهم، وأضفت إلى هذا الكلام قولني إنني في قراءاتي لروايات أبي ندى، في عفوية أسلوبها، وبساطة لغتها

وجذب قارئها على متابعة أحداثها، كثيراً ما تذكرت من تراثنا القصصي حكايات ألف ليلة وليلة. لقد احتجنا إلى قرون عديدة كي نتبين ما لألف ليلة وليلة من قيمة فنية، فهل لزام علينا أن ننتظر أجيالاً وقروناً لنكتشف القيمة الفنية لروايات محمد إبراهيم العلي التي هي اليوم بين أيدينا؟

ذلك ما جاء على لساني في تلك الأمسية، وجاء كما أسلفت بلهجة مزاح ساقت البسمة إلى شفاه المستمعين. ولم أصدر في قلبي هذا عن دراسة نقدية للآثار التي عنيها حينئذ، فأنا في الواقع أبعد ما أكون عن تقصد الدراسة النقدية لما أقرؤه. ما يهمني في الأثر الذي أطلعه هو قدرته على الإمتاع والإفادة وعلى إثارة اهتمامي بصورة لا ألقيه فيها من يدي لإملال أو لتفاهة مضمون. غير أنني اليوم، وأنا أطبق غلاف مجموعة "شكوك الدردار" على آخر قصصها، أعود إلى ذلك القول فأجد المقارنة التي أوردتها فيه بين منزلة ألف ليلة وليلة ومنزلة آثار محمد إبراهيم العلي تصح كل الصحة إذا نظرنا إليها بعين النقد الجادة، تصح بشرط أن نحصر صحتها في جوانب معينة من خصائص هذه الآثار الأخيرة.

والجوانب المعينة التي أحصر المقارنة المقصود بها هي الجوانب الظاهرية، أو جوانب الشكل، في ألف ليلة وليلة وفي الآثار التي أتحدث عنها. إنها تلك التي تبدى في لغة الكتابة في ذلك الأثر القديم وهذه الآثار المعاصرة، تركيباً ومفردات، وفي طريقة السرد، وفي التقطيع في الأحداث، وغير هذا وتلك من الخصائص الأسلوبية. وفي هذه الجوانب تبدو المآخذ التي عددها الكاتب نفسه فيما أوردت له من أقوال، تبدو تلك المآخذ ميزات تفرد هذا النتاج الروائي، عن نتاج غيره من الكتاب الآخرين، أعني من تلك المآخذ

بساطة اللغة وبعدها عن التعقيد، ومرجها التاريخ بالسيرة الذاتية، والرواية بالملحمة، مما ترك النقاد في حيرة من سلوكها في مسلك مذهب معين من مذاهب الفن الروائي. لقد جعلت هذه الحيرة أولئك النقاد يغفلون عن خاصة مهمة من خصائص روايات محمد إبراهيم العلي تشارك بها حكايات ألف ليلة وليلة البسيطة في لغتها ومفرداتها، والتي تمتزج فيها السير والرواية التاريخية بالأساطير والقصص المتخيلة، أعني بها خاصة التشويق التي تجعل القارئ يسبح في تيار الأحداث المروية بسهولة ويسر، متابعاً تصرف الشخصيات وتطور سلوكها، متسائلاً عن خواتيم الحكايات كما كان شهريار يتساءل عن خواتيم الحكايات التي كانت تقصها عليه شهرزاد.

في هذه الجوانب الظاهرية وحدها تصح المقارنة بين ألف ليلة وليلة والنتاج الأدبي لمحمد إبراهيم العلي، بدءاً من رواية "المرابي" في جزئها الأول وانتهاء بهذه المجموعة التي ختمت الآن قراءتها والتي ترجع كتابتها إلى بضعة سنوات مضت، ولكن ثمة جوانب أخرى لهذا النتاج هي جوانب المضمون فيه والغاية التي يهدف إليها المضمون، فمن المتفق عليه أن الغاية التي كتبت لها حكايات ألف ليلة، في أجزائها المختلفة والمتباينة أسلوباً ومحتوى، كانت في الدرجة الأولى التسلية والإمتاع، وربما الإلهاء عن أمور تستلزم من أبناء المجتمع الذي كتبت له تفكيراً صحيحاً وعملاً جاداً. وهذه عكس الغاية التي تهدف إليها روايات محمد إبراهيم العلي وأقاصيصه. قد يكون في هذه الروايات والأقاصيص ما يشوق ويغري بالمتابعة، ولكن اسم التسلية لا ينطبق على إحساس القارئ، من قرائتها يمكننا أن نسمي هذا الإحساس تمتعاً أو تذوقاً، وهو وسيلة الكاتب إلى أن يقود قارئه على التعرف على أمور بعيدة في جوهرها

عما يسر أو يلد، وأعني بها المآسي التي تعرضت لها أجيال من الناس في هذا الوطن في أزمان معينة من تاريخه وفي أماكن معينة من ترابه، ومن وراء هذا التعريف على تلك المآسي وإحياء ذكرياتها غاية أخرى، هي تبصير المواطن بواقعه الحاضر ليدرك قيمة ما هو فيه ويحذر الانحراف عن سواء السبيل والانزلاق في اتجاه المهالك والمهاوي.

وثمة اختلاف آخر في المضمون يصر عليه أبو ندى، ونلاحظه نحن في المقارنة التي أتحدث عنها، وذلك حين يقول إن نصيب الواقع هو المسيطر فيما يرويه، فما تورده رواياته وقصصه من أحداث هي أمور عاشها بنفسه واستقى دقائقها "من منجل الحصاد ومحراث الفلاح، وسوط الإقطاعي، ورشاشات النازية الجديدة في إسرائيل، وخيام البدو الرحل وخان الحججي في المدينة، والسجن وحكم الإعدام في عهد الانفصال". هكذا يعدد لنا الكاتب في مقدمة مجموعة "شوك الدردار" العناصر التي استلهمها أو استوحى منها في كتابة آثاره. إنها عناصر واقعية تعطيه، في استهداف غايته، زخماً لا يتوفر له لو كان كل ما يرويه، أحداثاً متخيلة أو تراكيب مفتعلة، كما هي الحال في أغلب القصص التي حفلت بها مجلدات ألف ليلة وليلة.

كل هذه الخصائص التي تحدثت عنها، من موافقة ومخالفة، جدرة بأن تدعونا إلى مرحلة المقارنة بين القيمة الفنية لنتاج أبي ندى، وقيمة نتاج ألف ليلة وليلة، وهي مقارنة أشرت إليها في البدء مازحاً وانتهيت إلى التفكير بها جاداً. فما علينا إذن إلا أن نسرع في الالتفات إلى هذه القيمة، غير مشترطين نزول كاتبها على رغباتنا ومطابقته لأهوائنا في أسلوب كتابته. أقول هذا في الواقع للنقاد أكثر من قولي له للقراء.

فهؤلاء الأخيرون بعيدون كل البعد عن معاملة بروكروست لنزلائه، في تقدير ما يقرؤون وفي الإعجاب بما يقرؤون. وهم قد أصدروا حكمهم منذ وقت طويل على آثار محمد إبراهيم العلي الروائية في قراءتهم لها بالعربية وفي ترجماتها الأجنبية.

ولابد لي، وقد عدت إلى ذكر بروكروست، من أن أختتم هذه الصفحات بالاعتراف بأنني لم أسلم شخصياً من مقاربة لعقلية ذلك الرجل صاحب السرير المشهور، في تقييمي لروايات محمد إبراهيم العلي حين كنت أتابع قراءتها عند ظهورها، كنت أجدها مركزة على وصف مآسي الفقراء والكادحين من أبناء شعبنا في فترات بائدة مضت وانقضت. وكنت أرى أن مهاجمتها لطغاة ومستغلين، طواهم وأفعالهم الشائنة الزمن، شجاعة في غير محلها ومعارك فات وقتها، لاسيما وأن واقعاً جديداً من السوء بدأ يذر قرنه ويفقأ العيون بوجوده. أليست هذه هي العقلية البروكروستية حين أتجاهل محاسن ما أقرؤه لهذا الكاتب وأطالبه بأن يعالج فيما يبدع ما أريده أنا لا ما يريده هو؟ وكأن أبا ندى، حين تفضل وأهداني مجموعته "شوك الدردار" في آخر لقاء لي به، كأنه كان يدرك ما قد آخذه عليه في هذا المجال. ففي قصة "السقوط"، وهي آخر قصة في المجموعة، رد على ما يمكن أن يعد انتقاداً غير منصف من جانبي، أحسست بعد قراءتي هذه القصة الأخيرة أنها تقول لي: "تقديراتك لما يكتبه صاحبك في غير محلها، ها أنت تراه لم يغفل عما ظننته أغفله ولا تجاهل ما حسبتة يتعمد تجاهله. إنه يتحدث عن السقوط في الحاضر مثلما تحدث عن الجشع والظلم والخيانة في الماضي".

وحقاً إنه تحدث. قد لا يكون حديث محمد إبراهيم العلي عما يشاهده اليوم في غزارة حديثه عما عاشه أمس. ولكنه في هذه القصة التي أشرت إليها اخترق الجدار الذي يتجنب الدنو منه، لسبب ولآخر، كثيرون ممن هم في مكانة أبي ندى وفي مركزه المرموق. إنه لا يزال ابن الشعب الذي يتكلم بلسانه، كما تكلم ذلك الفلاح بلسانه في آخر فقرات قصة "السقوط" حين جاء فيها ما يلي:

"وقال فلاح في هدوء واتزان: عين الشعب يقظة تراقب. ترى المحسن والمسيء وتعامل كل فرد بما يقدم لوطنه. ولكل ظالم نهاية، والشعب يمهل ولا يهمل".

1993/11/13

محمد إبراهيم العلي في ذاكرتي

د. عيسى درويش*

في العام 1959 أوفدت إلى مصر بمنحة لدراسة الاقتصاد والعلوم السياسية في الجمهورية العربية المتحدة، وكان يطلق على مصر الإقليم الجنوبي. كانت المرة الأولى التي أحطُ الركاب فيها في أرض الكنانة. كان عمري آنذاك لا يتجاوز الثمانية عشرة عاماً. وكان لا بد لأي واحد منا أن يسال عن رفاقه الذين سبقوه إلى مصر، كان هناك عدد كبير من رفاقنا العسكريين الذين التحقوا كضباط بالتشكيلات العسكرية في الإقليم الجنوبي.

وفي العام 1960 سمعت لأول مرة بالرفيق محمد إبراهيم العلي أثناء تصفحي للجرائد المصرية، حيث نشرت في هذا العام مناورات في الدلتا للقوات المسلحة المصرية، وكان في المناورة إنزال مظلي فوق منطقة تكثر فيها المستنقعات والقصب. وكان الملازم المظلي محمد إبراهيم العلي أحد الضباط الذين أبرزوا كفاءة في القفز المظلي من الطائرات فوق المنطقة المستهدفة وقد عرفت فيما بعد، في القاهرة، الرفيق حافظ الأسد، وثم وفي الإسماعيلية تعرفت فيما بعد إلى عدد من الضباط الذين شغلوا فيما بعد مناصب قيادية في الحزب والجيش والدولة.

* قاص، شاعر، باحث.

وفي عام 1961 كان الانفصال المشؤوم الذي كان وقعه كالصاعقة علينا نحن الطلاب الذين ندرس في الإقليم الجنوبي من الناحيتين القومية، حيث كنا من البعثيين الذين يرون في الوحدة العربية الهدف الرئيس بين أهداف الحزب ومن الناحية الدراسية ما هو مصيرنا بعد الانفصال. وكان من الطبيعي أن يعود بعض الطلاب إلى سورية وأن يبقى البعض الذين لا تتوافر لهم فروع في الجامعات السورية لاختصاصاتهم، وكنت من المجموعة التي بقيت في الجامعات المصرية بعد الانفصال.

انقطعت السبل بيننا وبين الأهل في سورية بسبب سياسة الانفصال وما رتبته من قطيعة شبه تامة مع مصر، وحرب سياسية وإعلامية بين البلدين استمرت حتى سقوط الانفصال في الثامن من آذار 1963 على يد مناضلي الحزب وحلفائهم من الوجوديين والقوميين.

في فترة الانفصال كان النضال الوطني في سورية ضد الانفصال يكاد لا ينقطع يوماً، كانت المظاهرات والمنشورات والإضرابات، وكنا نتابع هذا النضال ونشارك فيه في العطلة الصيفية بشكل سري داخل تنظيمات الحزب ومع جماهير الشعب، وكان قمة هذا النضال الجانب العسكري منه حيث فشلت محاولة انقلابية في 28 آذار 1962 في حلب كان محمد إبراهيم العلي من العناصر التنفيذية في هذا الانقلاب وراح نتيجة هذه المحاولة عدد من الضباط والأفراد من الضحايا. وبرز اسم محمد إبراهيم العلي وكان برتبة ملازم أول مع مجموعة من زملائه كمتهم رئيسي في هذه المحاولة وبدأت المحاكمات لأكثر من عام حكم نتيجتها بالإعدام، وصار قابلاً في السجن العسكري بالمرّة ينتظر ما هو مكتوب له عند ربه.

في هذه الفترة أخذ محمد إبراهيم العلي يشكل رمزاً وطنياً لكل القوى الوطنية والوحدوية في القطر السوري على صعيد الأحزاب والجمعيات والنقابات والأفراد، فقامت المظاهرات والإضرابات وبدأت العرائض والتواقيع الشعبية بمئات الآلاف لإيقاف تنفيذ الإعدام وإعادة المحاكمة. وكان لذلك

الأثر الكبير في منع وردع الحكم الانفصالي من تنفيذ الإعدام. (3)

كان المحامون الذين تولوا الدفاع عن محمد إبراهيم العلي من أصدقائي وأذكر منهم المحامي منير عبد الله الذي كان يزودنا بالمرافعات وأخبار المحاكمات والخطط القادمة من أجل الدفاع عن رفاقنا المناضلين.

وأذكر أنه في خريف 1962 زار الرئيس ناظم القدسي مدينة اللاذقية وقد استقبلته المدينة ببعض القنابل الصوتية التي انفجرت في حي الشيخ طاهر أثناء عبور الموكب منها، وفي بعض الأحياء الشعبية وكنت على معرفة ببعض الذين تولوا إعداد هذه القنابل وتفجيرها من عمال وعسكريين. كما قدمت عرائض للرئيس القدسي لإصدار عفو عن المناضل محمد إبراهيم العلي وذكر لي بعض الرفاق الذين صنعوا ثورة الثامن من آذار أن من أحد أسباب التعجيل في قيامها هي منع إعدام محمد إبراهيم العلي.

في العام 1963 وفي الثامن من آذار انتهى حكم الانفصال. في هذا التاريخ كنت في جامعة الإسكندرية أستعد لامتحانات السنة النهائية للحصول على البكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية والعودة للقطر. وقبل صدور النتيجة التي كنا ننتظرها وفي شهر تموز 1963 تم اعتقال عدد كبير من الطلاب العرب والسوريين، وكنت واحداً منهم بحجة أننا نشكل تنظيمًا سرياً

(3) ذكر لي أحد الرفاق أن الانفصال سرب عميلاً للاتصال مع محمد إبراهيم العلي ووضع خطة لقتله أثناء محاولة الهرب.

لحزب البعث العربي الاشتراكي وتم إبعادي بحراً على ظهر مركب تجاري لشحن الأخشاب يتجه إلى قبرص من دون أن يكون معي نقود سوى خمسة جنيهات مصرية ومن دون تأشيرة، وبقيت على ظهر المركب في البحر ثلاثة أيام في لارنكا وتم إنزالي إلى مركب شحن آخر يتجه إلى سورية وهذه قصة طويلة سيكون لها موقع في مذكراتي الخاصة مستقبلاً. وعلمت بعد وصولي أن أول عمل قام به الرفاق هو إطلاق سراح الرفاق في سجن المزة ومنهم محمد إبراهيم العلي.

في خريف 1963 التقيت مع النقيب المظلي محمد إبراهيم العلي وكان مندباً للحرس القومي آنذاك في منزل الوزير الأسبق الدكتور إبراهيم ماخوس في اللاذقية، وكان قد جرى التعارف فيما بيننا وشعرت أنني أعرفه منذ زمن بعيد ومنذ تلك اللحظة لم نفترق عن بعضنا إلا في السفر والمهام الدبلوماسية التي كلفنا بها لاحقاً.

تعرفت على هذه الشخصية الطيبة المتواضعة التي تجمع بين بساطة الريف والقوة والصلابة والقدرة على التحمل والصبر في الشدائد والقناعة بالقليل والتفاؤل في المستقبل وإلى جانب هذه الصفات كلها كان يملك الصدق والصراحة في القول مهما كان وقع ذلك عليه أو على من يصارحه.

تولى مهمة إنشاء مدارس الحرس القومي فكان مثلاً في المشاورة والإصرار على التنفيذ والمتابعة الميدانية شبه اليومية. وقد أصبحت بعد نهاية عام 1963 مديراً للعمل والشؤون الاجتماعية في محافظة اللاذقية في منطقة تمتد من الحدود مع لبنان إلى الحدود مع تركيا، وكان عدد العاطلين كبيراً جداً ونسبة المتعلمين من النساء والرجال قليلة نسبياً وكان أمام الحزب والثورة شعار تعليم

كل مواطن، ولم تتسع لهم المدارس الخاصة العالية الأجر نسبياً آنذاك ومدارس الدولة المحدودة العدد، وفي مدارس الحرس القومي بدأ العمل وندب الرفاق الحزبيون الأكفاء للتعليم في هذه المدارس وإعداد جيل من الشباب مؤمن بوطنه وأمته وقادر على حمل المهام في المستقبل. ويكفي أن أشير من دون ذكر الأسماء إلى أنه وصل إلى القيادة القطرية بعض المعلمين الذين علموا في هذه المدارس ووصل إلى مراتب عليا في الحزب والدولة والجيش عدد من خريجي هذه المدارس. ثم انتخبت في العام 1966 عضواً في قيادة فرع اللاذقية وأصبحت مسؤولياتي الحزبية والإدارية والتثقيفية كبيرة جداً. وأذكر أنني في ليالٍ كثيرة كنت أنام على طاولة في مكتب الحزب أو في مديرية الشؤون الاجتماعية، وكان طيلة هذه الفترة الممتدة من 1964 وحتى ربيع 1969 على اتصال دائم يكاد يكون أسبوعياً مع محمد إبراهيم العلي. كان يطلبني بدون تردد ليلاً أو نهراً للإلقاء محاضرات في حمص، أو حلب أو اللاذقية وكنت ألبى بحماس شديد وكان يحضر شخصياً قادماً من دمشق إلى حمص أو حلب أو اللاذقية ونقضي الساعات ثم نغادر في نفس اليوم كل إلى عمله.

ومن الطرائف التي أذكرها على سبيل الدعابة أنه حضر إلى اللاذقية مع وفد من القيادة القطرية للإشراف على انتخابات تكميلية في فرع اللاذقية لانتخاب عضو قيادة فرع مكان شاغر. وأثناء انعقاد المؤتمر تم ترشيح رفيق متنافسين وأذكر أنه كان يتلو الأوراق على المسجلين، وقد نجح أحدهما وعلى الرغم من تكرار اسمه أكثر من سبعين مرة سألتني: ما هو اسم الرفيق الذي فاز بعد مضي أقل من ساعة من انتهاء الانتخابات. ثم ذهبنا إلى مقر الحزب وسألتني عن اسم الفائز وذكرته له. ثم تعرف على الرفيق الفائز للمرة الثالثة

وسألني عن اسمه، ثم همس في أذني قائلاً لا تستغرب أنني نسيت اسمه. أنا لم أكن مرتاحاً له ومن لا أرتاح له لا أتذكره. وضحكت. قائلاً له. لم أر في صراحتك أحداً.

في العام 1965 انطلقت العملية الفدائية الأولى داخل فلسطين المحتلة من الأراضي السورية وبدأت حركة فتح عملها برعاية سورية ثم تبعها تنظيمات فلسطينية أخرى واشتد الضغط على سورية، وزادت مسؤولية الحرس القومي والجهاز الحزبي في حماية الثورة، وأصبح للحزب مهمات إعداد الشباب في الفتوة وتدريب الجهاز الحزبي على العمليات القتالية وكان للرفيق محمد إبراهيم العلي دور كبير في هذا الإعداد وكانت العملية كبيرة والمسؤولية جسيمة إعداد المدربات والمدربين والتدريب على السلاح في مراكز للتدريب، وإقامة المعسكرات وإقامة البيانات العملية، كانت المهام كبيرة والإمكانات محدودة العدد.

وأذكر على سبيل المثال وليس الحصر وذلك لأن التفاصيل قد تكون من اختصاص المؤرخين وربما سأعود إلى ذلك في كتابة مذكراتي الخاصة. وأعود لأذكر الإضرابات التي قامت الرجعية بها لإجهاض الثورة بعد قيامها مباشرة. إغلاق المتاجر، العصيان في المساجد والتحريض على الفتن، والإضرابات ومواجهة ذلك من قبل جماهير الشعب وأعضاء الحزب والتنظيمات الشعبية والذي تلا لاحقاً التأميم في 1965 ومصادرة ممتلكات بعض السياسيين الذين تحالفوا مع قوى الإمبريالية للتآمر على الثورة وما تلا ذلك من قيام حركة شباط 1966، وقصة هذه الحركة تحتاج إلى بحث تفصيلي. لقد ساهمنا فيها جميعاً كل في نطاق رسم له. وأذكر كان للرفيق محمد إبراهيم العلي دور في التسلسل

إلى اللواء المدرع السبعين في الكسوة مع بعض الرفاق واعتقال قيادته الموالية لليمين في الحزب.

كنت في هذه الليلة في اللاذقية وقبلها قمت بزيارة سرية إلى القنيطرة مع الرفيق محمد يونس الذي أصبح محافظ إدلب لاحقاً، وقمنا بالمهمة المكلفة بها بالاتصال مع بعض الضباط ومقابلة محافظ القنيطرة الذي أصبح وزيراً للخارجية فيما بعد وتلك قصة أخرى ليس مجالها الآن.

في اللاذقية كان دوري احتلال مقر قيادة الشرطة، ومن ثم منع التجول في المدينة ومنع وصول العمال إلى أماكن العمل حتى لا تحدث صدامات عمالية تؤثر على المصانع المؤممة آنذاك. وتمت الخطة من قبل الرفاق بنجاح كل في عمله، حتى قيام إذاعة حلب ببث بيانات عسكرية لمؤيدين للرئيس أمين الحافظ الرئيس السوري آنذاك. وفي الساعة الثانية عشرة تم الاتصال مع الرفيق حافظ الأسد وزير الدفاع الذي أعطانا الطمأنينة بأن إذاعة حلب ستوقف، وأن كل شيء سينتهي لصالح الحركة وتنفسنا الصعداء. وأقول للتاريخ بأنه لولا القائد الخالد حافظ الأسد لحدث صدام مسلح بين قطعات الجيش وسالت دماء كثيرة، ولكنه بشجاعته وحكمته والتفاف الجيش حوله تم حسم الأمور ونجحت حركة 23 شباط 1966.

بعد 1966 زادت مسؤولية الجهاز الحزبي في التوعية السياسية بين الجهاز الحزبي وفي القطاع العسكري والمدني وفي صفوف الشعب أيضاً، فزاد العبء النضالي، وكنت مع الرفيق محمد إبراهيم العلي في الدورات والمعسكرات وتأليف الكراسات وقد كتبت في هذه الفترة محاضرة حسنة الإعداد كما جاء في تقييم القيادة لها حول أسلوب العمل بين العمال، وقمنا

بالعمل بين الفلاحين حيث تم إنشاء اتحاد الفلاحين. ثم تم إنشاء الاتحاد النسائي واتحاد شبيبة الثورة ثم صدر قرار إنشاء الجيش الشعبي. واذكر أنني كنت في اللاذقية في صيف 1966 وحوالي الساعة الثانية ظهراً يتصل بي الرفيق محمد إبراهيم العلي يطلب مني أن نلتقي في الساعة السابعة مساءً نفس اليوم في حلب، لأنه تم جمع كل طالبات دار المعلمات في القطر في حلب ويبلغ عددهن ألف طالبة، وطلب مني إلقاء محاضرة تحت عنوان "الطريق العربي للاشتراكية" وكنت ألقى هذه المحاضرة في اللاذقية في جمهور من المثقفين والحزبيين وأصدقاء الحزب في محافظة اللاذقية. والإعداد لم يكن عليّ صعباً. بل كان الانتقال إلى حلب بعد يوم مليء بالأعمال وصعوبة الطريق. وانعدام وسائل النقل المريح آنذاك، وقال لي محمد إبراهيم العلي سوف أتحرك الآن من دمشق. وأنت تتحرك من اللاذقية. وهكذا تحركت من اللاذقية في سيارة (جيب لاند روفر) ووصلت في الموعد المحدد وبدأت المحاضرة في الساعة السابعة والنصف وانتهت في الحادية عشرة مساءً. كان الرفيق أبو ندى كما كنا نطلق عليه قبل ولادة نجله أحمد وهو الوحيد على ستة بنات، قد وعدني بعشاء من المشويات الحلبية بعد المحاضرة. ولكنه نظر إلى الساعة وقال ما رأيك أن نذهب إلى مقر كتبية المظلات في حلب؟ وكان يتولى قيادتها إلى جانب مهامه في الحرس القومي، وعندما وصلنا إلى مقر الكتبية أذكر أنه طلب من أحد الضباط وكان برتبة نقيب يدعى مورييس قدسية قائلاً هات يا مورييس النظام الداخلي للحرس القومي، وكان لم يصدر بعد لنقوم بدراسته مع الرفيق عيسى، وأحضر الضابط المسودة وانضم إلينا مع بعض الضباط وقرأنا النظام الداخلي للحرس القومي مادة مادة. وأدخلنا على بعض المواد التعديلات

الضرورة وعندما انتهينا كانت الساعة الواحدة والنصف صباحاً ولم نذق طعاماً سوى أكواب الشاي. وطلب الطعام فقالوا له لم نحضر الطعام. والمطاعم مغلقة وبعيدة عن مقر الكتبية. وهكذا قررنا العودة وركب سيارته راجعاً إلى دمشق وركبت سيارتي أيضاً راجعاً إلى اللاذقية. وعند وصولي في الساعة الخامسة صباحاً أيقظت والدتي راجياً إعداد الطعام لي، وقد تعجبت رحمها الله من عدم وجود طعام في حلب.

وبقيت هذه الحادثة مع طرفة أخرى أروبها حصلت في المؤتمر القطري الثالث وقد دعاني الرفيق محمد إبراهيم العلي مع الرفاق آنذاك كامل حسين ومحمود يونس للغداء في منزله. وذهبنا لتلبية الدعوة. وعند وصولنا إلى المنزل لم يكن به أحد على الإطلاق. فأم ندى أخذت الأولاد إلى القرية في الغاب، أما نحن فلم يكن أماننا سوى بعض اللبن أضاف عليه مسحوق دقيق البرغل. وفاز فيه من له أسنان قادرة على الطحن.

في نفس العام وفي أيلول 1966 فاجأنا سليم حاطوم بعصيان في السويداء واحتجز قيادة الحزب الأمين العام نور الدين أتاسي والأمين العام صلاح جديد وآخرين، وتحرك الجهاز العسكري والحزبي. وكان المنقذ مرة أخرى الرفيق القائد الخالد حافظ الأسد وكان وزيراً للدفاع آنذاك بالشجاعة والقوة حيناً وبالحكمة حيناً آخر للخروج من هذه الأزمة من دون قطرة دم، وفرّ سليم حاطوم ورفاقه إلى الأردن مقر تخطيط المؤامرة. وأعدم حاطوم ومعه بعض زملائه بعد حرب 1967 بعد أن ظنوا أن الساحة فارغة وأن النظام قد تم إسقاطه. وكنا في الفترة من 1963 - وحتى أيلول 1966 قد فقدنا عدداً من القيادات والكادر الحزبي بسبب السقوط في المؤامرات والمغامرات التي كان

البعض يقوم بها بدافع أجنبي أو طموح شخصي، وكان ذلك كله ينعكس علينا ويضاعف من مسؤولياتنا والتزاماتنا.

في العام 1967 كان هذا العام كارثياً بسبب هزيمة حزيران 1967، ونجاح العدوان الإسرائيلي الأميركي لإجهاض الحركة القومية العربية التقدمية ممثلة بنظام البعث في سورية والناصرية في مصر واحتلال إسرائيل لمناطق واسعة من الأرض العربية، وهي سيناء في مصر والضفة الغربية من فلسطين التي كانت تحت الحكم الأردني والجولان من سورية، إضافة إلى قطاع غزة الذي كانت تحت الإدارة المصرية. والحديث عن هذه الحرب طويلة جداً، وقد نشرت المؤلفات والوثائق العديدة عنها وبعضها مازال سراً في الوثائق لم يفرج عنها حتى الآن.

أحدثت نكسة حزيران جرحاً عميقاً في نفوسنا كحزبيين ومواطنين، وجرت نقاشات مطولة داخل الحزب وخارجه، وعقدنا مؤتمراً ق طرياً استثنائياً بعد الحرب ومؤتمراً قومياً استثنائياً، واعتمد الحزب صيغاً جديدة للتعامل مع المواطنين بإنشاء ما يسمى لجان الدفاع عن الوطن وحماية الثورة وانضم إليها شخصيات وطنية وتقدمية، وتشكلت لجنة في كل محافظة في حين عارضها البعض وأصدر منشورات تضمنت هجوماً قاسياً على الأنظمة التقدمية العربية واضطربنا لمواجهة هذه الأمور إصدار النشرات والصحف المحلية، وأذكر أننا أصدرنا جريدة في اللاذقية سمينها صوت المعركة كنت أتولى تحريرها والإشراف على طباعتها وتوزيعها، وكنت حريصاً على استضافة محمد إبراهيم العلي، وأخبار المعسكرات التدريبية وبدء دورات العمل الفدائي التي اعتمدها الحزب للكفاح المسلح من أجل استعادة الجولان وتحرير الأرض، وكانت

جرحات التدريب عالية بذل الرفاق العسكريون جهداً كبيراً لإنجاحها وخاصة وزير الدفاع آنذاك الرفيق حافظ الأسد رحمه الله.

وفي هذه الفترة تقرر تنحية رئيس الأركان اللواء أحمد سويداني أثناء حرب 1967، ثم هرب إلى العراق وعاد متسللاً إلى سورية فيما بعد حيث أودع السجن. وتقرر تعيين الرفيق مصطفى طلاس رئيساً للأركان العامة للجيش وتقرر ترفيعه استثنائياً من رتبة اللواء. وبعد ذلك بقليل تقرر تعيين مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون لتحسين الأداء الإعلامي لهذه المؤسسة الهامة آنذاك. ولكنني اعتذرت عن قبول هذه المهمة أمام وزير الإعلام حبيب حداد آنذاك ثم أمام رئيس الوزراء يوسف زعين الذي نصحني بإقناع القيادة في تغيير قرارها، وكان أن ذهبت للقيادة وقابلت الأمين العام المساعد للحزب وتم إلغاء القرار، وكانت حجتني آنذاك أنني أفضل العمل بين الجماهير. وبعد ذلك تم تعييني مديراً للشركة الخماسية وهي أكبر وأهم الشركات المؤممة وكانت تضم آلاف العمال موزعين على انتماءات سياسية مختلفة وتثير المشاكل والإضرابات. وقد أوردت ذلك لأتحدث عن الصداقة التي تربط بيننا نحن الثلاثة أنا والرفيق طلاس والرفيق محمد إبراهيم العلي.

كان الرفيق مصطفى طلاس يتردد عليّ أحياناً في الشركة الخماسية، وفي إحدى المرات كانت معه الأخت المرحومة زوجته أم فراس وكانت صريحة وطيبة وكريمة، وكانت تبدي رأيها في بعض الرفاق سلباً أو إيجاباً وصراحتها المحبة وقلبها الطيب. وكان الرفيق مصطفى سجيناً في المزة أيام الانفصال مع محمد إبراهيم العلي وعدد من الرفاق، وكان يروي لي أبو فراس ذكريات السجن قائلاً: كنت أتبادل الرسائل مع أبي الندى من عنبر السجن إلى الزنزانة في

الأسفل بواسطة قذف الورقة في المطاطة. وكان يرد على رسائلنا وفي إحدى المرات وصلتنا رسالة شعرية من محمد إبراهيم العلي يصف نفسه في قصيدة غير موزونة يقول فيها واصفاً نفسه بالأسد:

أسد في عشه بعد أن ذاع
وسجنه لا يفكه إلا جفت

والقصيدة لدى الرفيق مصطفى طلاس وربما نشرها في مذكراته. وكان الرفيق مصطفى يسأل أبا ندى عندما نلتقي أو يلتقي به في حديث الذكريات. كيف جعلت نفسك أسداً يجلس في عش، العش للطير والعرين للأسد؟ ثم ألم ترا غير جفت الكسر (بارودة الصيد) لتحرير نفسك؟ ويضحك ونضحك والمحبة وذكريات النضال تملأ النفوس بالسعادة.

وأعود لأكرر القول حول الجهد الكبير لإعادة بناء القوات المسلحة التي رعاها وأشرف عليها القائد الخالد حافظ الأسد ورئيس أركانه اللواء مصطفى طلاس والعماد وزير الدفاع فيما بعد، والتي كان من نتائج ذلك الإنجاز الرائع الذي حققته القوات المسلحة في السادس من تشرين 1973.

وذكر الأعداد لا يمكن أن يمر من دون ذكر تعيين الرفيق محمد إبراهيم العلي قائداً للجيش الشعبي الذي جعل له مركزاً للتدريب والتطوع في كل محافظات ومناطق القطر العربي السوري، وأصبحت سورية بفضل الجهود التدريبية والتشقيفية قلعة مسلحة عصية على الأعداء وخاصة بعد الحركة التصحيحية في 1970 وإنشاء الجبهة الوطنية التقدمية.

وفي كل مسيرة تحريرية أو ثورة شعبية لا تمشي الأقدار بما تشتهي السفن، وهكذا واجهنا بعد حرب 1967 أزمة في الحزب وانشقاقات كادت تعصف به،

وانتحر مدير المخابرات عبد الكريم الجندي وحاول بعض قياديي الحزب إيجاد شرخ بين الحزب والجيش. وحصل أيلول الأسود في الأردن بين المقاومة الفلسطينية والجيش الأردني اضطر سورية لدخول الأردن لفك الحصار عن المقاومة وإخراجها من الأردن باتفاق برعاية الجامعة العربية وتأزم الوضع في المنطقة لدرجة تدخل القطبين الجبارين آنذاك للحيلولة دون صدام مسلح واسع النطاق في المنطقة. وتوفي جمال عبد الناصر. وحدث فراغ قيادي في المنطقة. كان للرئيس الراحل والقائد الخالد حافظ الأسد أن تحرك داخل القطر لتقية الوضع الداخلي حزياً وشعبياً من كل الشوائب والانطلاق لبناء التضامن العربي على النطاق الإقليمي، ووضع سورية على خريطة المنطقة والعالم كلاعب أساسي في بناء الاستقرار في الشرق الأوسط، وتحصين المواقع العربية ونقلها من مواقع الركود إلى مواقع الحيوية والهجوم كما حصل في حرب تشرين، وكانت الحركة التصحيحية في 1970 التي كتبت تاريخاً جديداً لسورية الحديثة.

قبل الحركة التصحيحية كنت عضواً في المؤتمر القطري بينما محمد إبراهيم العلي كان عضواً في المؤتمر القطري والمؤتمر القومي معاً. ولذلك لم أحضر المؤتمر القومي العاشر بينما حضره الرفيق محمد إبراهيم العلي. ولكن على الرغم من أننا لم نكن نسكت على الخطأ في الحزب والدولة كنا نتمتع نحن الاثنين باحترام رفاقنا جميعاً من عسكريين ومدنيين، ولم نكن نبحث عن مغنم أو منصب وحوله تاريخه النضالي وأنا كنت شديد الاعتداد بالماضي النضالي حيث حصلت على العضوية العاملة في الحزب ولم أتجاوز الخامسة عشرة من عمري استناداً لنشاطي المتميز في الدعوة للحزب وجميع أبناء جيلي

يعرفون قصائدي الشعرية في ثانوية جول جمال في اللاذقية. وفي المرحلة الجامعية كنت في التنظيم السري للحزب وتم طردي من مصر كما ذكرت سابقاً مع أعضاء التنظيم بعد الخلاف الناصري البعثي 1963.

وأنا كنت مديراً للشؤون الاجتماعية والعمل في اللاذقية وعضواً في قيادة فرع محافظة اللاذقية بالانتخاب، وعمري ثلاثة وعشرون عاماً، وكذلك عضواً في المؤتمرات القطرية من 1965 وحتى 1980 حيث عينت بعدها سفيراً في الكويت، كذلك عينت مديراً عاماً للشركة الخماسية وأنا في السابعة والعشرين من عمري بالإضافة إلى عدد من المهمات الإضافية. وكنت فخوراً بسلوكي وانضباطي الحزبي أيضاً. وكنا نحن الاثنين أبو ندى وأنا معروفين من جميع القيادات التي توالى على سورية منذ الثامن من آذار وحتى يومنا هذا، وأنا أقول هذا الكلام ليس تفاخراً على أحد ولكن لأروي الواقعة التالية:

في يوم الثالث عشر من تشرين الثاني 1970 رن جرس الهاتف في منزلي مساءً وكان على الخط الآخر الدكتور إبراهيم ماحوس رئيس مكتب الفلاحين في القيادة آنذاك، وقبلها كان نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية يتكلم بعصبية وبلهجة أمرة. تعال إلى القيادة فوراً. وكما ذكرت لم أكن عضواً في المؤتمر القومي العاشر ولم أتابع جلساته لأنه لم يكن على جدول أعماله ما يستحق المتابعة على الأقل بالنسبة لنا نحن أعضاء التنظيم في القطر السوري. والأولى أن ينعقد مؤتمر قطري استثنائي لمناقشة الأوضاع الداخلية والتفصيل في ذلك ليس هنا موضوعه.

ذهبت إلى القيادة القطرية وكان مقرها في البرامكة في المبنى الذي شغله اتحاد شببية الثورة فيما بعد، فوجدت القيادة بكامل أعضائها، ووجدت الرفيق

محمد إبراهيم العلي قد سبقني إليها. وطلب مني ومن الرفيق محمد إبراهيم العلي أن نهب إلى الرفيق حافظ الأسد وزير الدفاع، وإلى رفاقنا في الجيش لإقناعهم بعدم القيام بانقلاب عسكري وتجنب إراقة الدماء بين الرفاق في الحزب والجيش، وعلمت في هذه اللحظة أن المؤتمر القومي قد اتخذ قراراً بتنحية كل من وزير الدفاع ورئيس الأركان عن منصبيهما، وعندما حاولت مناقشة الموضوع، قيل لنا لا وقت للمناقشة الدقائق مهمة في هذه الليلة، ذهبت مع محمد إبراهيم العلي وقابلنا عدداً من الرفاق العسكريين القياديين في الجيش كلا على انفراد. ووجدنا كلاماً موحداً لدى الجميع. لقد أهانت القيادة المؤسسة العسكرية ونعتقد أن قرارها كان خطأ في الشكل والمضمون وأنها ترفض القرار المتعلق بوزير الدفاع ورئيس الأركان. وعليكما أن تذهبا للرفيق حافظ الأسد فنحن ملتزمون حزبياً وعسكرياً بما يقرره.

وفي اليوم التالي طلبني الرفيق حافظ الأسد على انفراد لمقابلته وأثناء وصولي إلى الأركان قابلني الرفاق علي أصلان وعلي ظاظا وعلي دوبا، ثم ذهبت إلى مكتب الرفيق مصطفى طلاس رئيس الأركان فوجدت الرفاق ناجي جميل وعبد الغني إبراهيم وعدنان دباغ وفهمي اليوسفي وكان محافظ حماة آنذاك وبعض الضباط الذين لا يتسع المجال لذكر أسمائهم جميعاً.

قابلني الرفيق حافظ الأسد وزير الدفاع في مكتبه وكان شهر رمضان. وكان رحمه الله يصوم رمضان ويتواضعه المعروف لم يجلس على مكتبه وإنما جلس على الكرسي المقابل، وكان في اللباس العسكري ويرتدي سترة عسكرية "فيلد" فوق البدلة الكحلية لضباط القوى الجوية، والذي كان فخوراً بانتمائه لها وأباً حقيقياً لسلاح الجو في سورية. قال لي أشعر ببعض البرد بعد تناول الفطور،

وبعد تناول الشاي. شرح لي الوضع السائد في سورية والخلل في الدولة والحزب وترك القيادة الأوضاع تتردى إلى حد التسبب مما شكل خطراً على الثورة والحزب والشعب والمكتسبات التي تحققت بعدها. ثم تحدث عن المؤتمر القومي المؤلف في أغليته من طلاب سوريين دارسين في الخارج وامتناع القيادة عن عقد مؤتمر قطري لمعالجة الأوضاع لأنه الأقدر على إيجاد الحلول لكل المشاكل المطروحة، ثم تحدث عن هرب القيادة واختفاء البعض والاضطرار لإلقاء القبض على صلاح جديد لدواعي تتعلق بأمن الجيش والحزب. ولا أجد مبرراً لذكر التفاصيل، واستمرت المواجهة أكثر من ساعتين، وأدليت بدلوي في المواضيع كلها وأشهد أمام الله أنه قال لي. قل للرفيق نور الدين الأتاسي الأمين العام للحزب آنذاك أن يجمع القيادة القومية ويجمد قرار المؤتمر القومي العاشر ويقوم بالدعوة إلى عقد مؤتمر قطري نناقش فيه جميع المواضيع. وأنا مستعد أن أقبل تشكيل حكومة برئاسة يوسف زعين. ثم تابع يقول رحمه الله، أنا لست طامعاً ولا راغباً في الحكم ولكن أقول لكم كمناضلين حزبين أن في البلاد فراغاً سياسياً وقيادياً بسبب هرب القيادة علينا أن نتحرك لملء الفراغ وقطع الطريق على أعداء الحزب من القيام بتحريك مضاد ضد الجميع سواء من الجيش أو خارج الجيش، وقد قال لي سأرسل وفداً عسكرياً لإبلاغ الرفيق نور الدين الأتاسي بما شرحته لك، وقد علمت أن الرفيق حافظ الأسد أرسل وفداً عسكرياً يضم أعضاء التنظيم الحزبي العسكري في الجيش، وبعض قادة التشكيلات واجتمع إلى الرئيس الأتاسي ولكنه رفض أي حديث دون إطلاق سراح صلاح جديد وتعذر الحل. وكانت الحركة التصحيحية في 16 تشرين الثاني 1970 وبداية عهد جديد في سورية والمنطقة العربية.

كان الرفيق محمد إبراهيم العلي مع الضباط الذين قابلوا الأمين العام نور الدين الأتاسي كما ذكرت. وتسلم الرفيق محمد إبراهيم العلي قيادة الجيش الشعبي في سورية بمرتبة وزير تقديرًا لمواقفه النضالية، وبقي في هذا المنصب أكثر من 35 عاماً حيث أحيل إلى التقاعد، أما أنا فقد بقيت مديراً عاماً للشركة الخماسية التي كنت قد عينت فيها في بداية 1960 وقد شرفني الرئيس حافظ الأسد رحمه الله بزيارة في الشركة بعد شهر من قيام الحركة التصحيحية، وكان وعدني بهذه الزيارة أثناء لقائي معه عشية الحركة التصحيحية، وقمت بعد الحركة بزيارة كل من حمص، حماة، حلب، إدلب، اللاذقية، طرطوس، بطمأنة الحركة العمالية السورية ببقاء الحزب والثورة والمكاسب المحققة والوعد بتطوير هذه المكاسب، وتعزيز دورها في الحياة السياسية والاقتصادية في القطر، وهذا ما تم فعلاً، وكنت أحظى بمحبة الكادر النقابي السوري وثقته وأذكر أن عضو القيادة القطرية ورئيس الاتحاد العام للعمال بعد نقله من طرطوس إلى دمشق قد تم ترشيحه عندنا في الشعبة العمالية التي كان يشكل الرفاق في الشركة الخماسية عمودها الفقري، ونجحنا معاً إلى المؤتمر القطري في 1975.

كنا حريصين على الانضباط الحزبي، محمد إبراهيم العلي وأنا، وحريصين على بناء الحزب وعدم خسارة كوادره بعد الحركة التصحيحية نظراً للانقسامات الحزبية في العراق بعد وقبل ثورة الثامن من آذار وخاصة بعد الانقلاب الثاني للبعث في العراق 1968، وعودة قيادة اليمين المطرودة من سورية إلى بغداد، ولذلك كنا حريصين على أن تنزل القيادة القطرية المؤقتة إلى القواعد لإعادة انتخابها وذلك حرصاً على نقائها وتأكيد شعبيتها. وكان ذلك بشكل شبه إجماع لدى قواعد الحزب. وذهب من يقول من ضعاف الإيمان للرفيق حافظ الأسد:

إن فلان وفلان والعديد معهم يقفون ضد القيادة القطرية المؤقتة. وسألهم أين يقولون أو يتحدثون؟ قالوا له في المؤتمر. وقال لهم اذهبوا إلى المؤتمر وناقشوهم. إلى المؤتمر ساحة لنقاش. وهكذا فشلت محاولات البعض في التأثير على الرفيق القائد الخالد، وبقينا نتمتع بثقته ومحبه رحمه الله.

وأذكر في 1975 وكنا أعضاء المؤتمر القطري عن مدينة دمشق وعددنا ثمانية وعشرون عضواً، أذكر منهم محمد إبراهيم العلي وعز الدين ناصر وأحمد الحسين وفاضل الأنصاري والشهيد إبراهيم نعامة. وآخرون، وإنني قلت للرفيق الرئيس ما يلي:

سيدي الرئيس، اسمحوا لي باسم الطبقة العاملة في دمشق التي شرفتني أن أمثلها في المؤتمر القطري أن أقول لكم إنها ترغب في أن تكون القيادة القادمة على مستوى طموحك وإخلاصك، والأمة والشعب تساعدك في حمل المهام وتكون أمينة على المبادئ وتقف إلى جانبك عند الصعاب.

وأقول لك بكل الصراحة إن القيادة الحالية كانت عبئاً عليك، عاشت على شعبيتك وثقة الأمة بك. بل أقول إن البعض أساء إلى الحزب والشعب بتصرفاته. ونرجو أن يسمح للمؤتمر بمحاسبة كل المسيئين إلى قيم الحزب والأمة.

وقال بكل هدوء. ولم يفاجأ: أنا مع هذا الكلام يجب أن نختار الأصلح ولكن هناك بعض المراكز التي اقترنت بالحركة التصحيحية مثل الخارجية والدفاع ومكتب الأمن القومي ورئاسة الوزراء وأنتم أحرار فيما ترونه في الانتخاب.

وفي المؤتمر ذكر القائد الخالد ما قلته دون ذكر الأسماء قائلاً: إن أحد الرفاق طرح كذا. وأنا مع هذا الكلام وكرر ما قاله لنا في اللقاء مع ممثلي فرع الحزب في دمشق إلى المؤتمر القطري الرابع.

سوف أتوقف عند هذا التاريخ تاركاً ما جرى فيما بعد لمذكرات أكثر تفصيلاً لأنني في هذا المؤتمر كنت عضواً في التحقيق في الفساد في وزارة النفط في فضيحة سموها فضيحة لانسييس، وكان معي في هذه اللجنة التي شكلت باقتراح من الرفيق حافظ الأسد الأمين العام للحزب وبالتصويت عليها في المؤتمر القطري. ضمت الرفاق عبد الرحمن خليفايو عضو القيادة القطرية ورئيس الوزراء سابقاً والرفيق المرحوم زهير محسن عضو القيادة القطرية، ورئيس منظمة الصاعقة والرفيق عيسى درويش والرفيق القاضي آنذاك توفيق صالحة، ورفيق عسكري هو المقدم محمد غانم، ولن أخوض في تقرير اللجنة، ومن تناولهم التحقيق لكن أذكر ذلك لأنني عينت بعدها وزيراً للنفط والثروة المعدنية لشقة القائد الخالد بي، وقد قال لي رحمه الله: مهمتك تنفيذ قرارات اللجنة من إصلاح القطاع النفطي، وقد كنت أميناً لهذا القول منذ 1976 وحتى خروجي من الوزارة 1980.

أكثر من أربعين عاماً جمعتني مع محمد إبراهيم العلي دون انقطاع إلا إذا كنا في سفر، ومن خلاله توثقت صلاتي العائلية معه فقد عرفت الأخت أم ندى وفي مرة وبحضورها روي لي كيف تعرف عليها من خلال عرس أثناء الدبكة حيث أمسك بيدها وأعجب بها ومن العرس إلى الخطبة، وتروي أم ندى كيف عاشت الأيام الصعبة وهي عروس أثناء سجنه وحكمه بالإعدام، حيث لم يمض على زواجهما أكثر من عام. وتعرفت على المرحوم والده بشخصيته الهادئة

والصلبة معاً، وقامتة الفارعة، وتعرفت على أخوته المرحوم الدكتور أحمد والصدیق حسین الذي كان ضابطاً في سلاح الجو، وأخيه صالح أيضاً ثم تعرفت على الأولاد.

محمد إبراهيم العلي الذي يختزن في داخله كل الأحاسيس النبيلة في الإنسان الرفي، القوة والوداعة الصدق والصلابة الوفاء والكرم. ومع احترامي لما يرويه عنه الصديق والرفيق مصطفى طلاس والتي يضيف عليها من روحه المرحية وخفة الدم بعض الصور والمجازات، غير أنني أذكر عن أبي ندى أنه دائم القلق والتفكير فقد يحدثك وفكره مشغول في مكان آخر، وقد تحدثه وتظن أنه يسمعك وربما يكون شارداً أو نائماً. وفي كل ذلك يجد لنفسه الأعذار والمبررات.

اتصل معي في المنزل معاتباً وكنت سفيراً في القاهرة كيف تأتي دون أن تتصل معي؟ لقد سمعت من الآخرين بوجودك في الشام. وقلت له إنني مشغول من وزارة الخارجية، وقال لي: يا أخي ألا تتناول الغداء. أنا أدعوك غداً في نادي الشرق الساعة الثانية والنصف، قلت له هل يسمح لي باصطحاب ولدي المهندس سامر؟ قال: أهلاً وسهلاً بمن معك. واتصلت مع ابني قائلاً أن يلقاني في نادي الشرق في الموعد لتناول الغداء مع أبي ندى.

وجئنا النادي وانتظرنا حتى الساعة الرابعة ولم يأت ولم يعتذر، وفي اليوم التالي اتصل بي من طرطوس يقول لي لقد نسيت وتذكرت الأمر في طرطوس.

هذه الشخصية التي قال لي عنها الأخ الروائي المصري العربي يوسف القعيد عند تعرفه على محمد إبراهيم العلي وكتب عنها في إحدى المجلات

المصرية، إنها شخصية محبة بسيطة وبريئة كتب ما يزيد على عشرين كتاباً بين رواية وسيرة شخصية كيف لا يحظى عندكم بدراسة نقدية لهذه الأعمال؟. وسؤال الأخ يوسف القعيد يبقى مطروحاً. ولقد تكرم بإهدائي معظم أعماله وقرأت الكثير منها. وأقول لم يُنصف محمد إبراهيم العلي كأديب وكاتب.

كان محمد إبراهيم العلي يتمتع باحترام لدى القادة السوفييت. وكان يرسل سنوياً بعض المنح للاتحاد السوفيتي من الطلاب الحزبيين الفقراء للدراسة في الاتحاد السوفيتي. وكانت له علاقة طيبة بالدول الاشتراكية وخاصة في كوريا الديمقراطية وقد زار معظم هذه البلدان. وأذكر أنني التقيت معه في موسكو وكنت عائداً من كوريا الشمالية في وفد كان يرأسه الدكتور شاكراً الفحام وزير التعليم العالي آنذاك. دعاني الرفيق أبو ندى إلى العشاء في مطعم أرباب سكاي في شارع جوركي الشهير في موسكو، وحضر العشاء بعض الرفاق السوريين والروس، وعندما صدحت الموسيقى طلب الرفيق أبو ندى للرقص فرقص مع إحدى الرفيقات وهو مغمض العينين. أما أنا فاعتذرت لعدم معرفتي بالرقص.

وفي مرة أخرى وجدني أرقص جميع أنواع الرقصات مع طلبة عرب من الجامعة الأميركية على موسيقى الرحابنة وغناء فيروز وعزف لهؤلاء الطلاب. فجاء إلي قائلاً أنت تحمل ليسانس في الرقص وضحكنا جميعاً.

وفي مرة أخرى في دمشق اتصل معي الرفيق أبو ندى قائلاً لدى المارشال (بوكركشن) مارشال الاتحاد السوفيتي وكان بزيارة رسمية للقطر، وكان هذا المارشال من أعظم الطيارين في الحرب العالمية الثانية حيث يشير سجله العسكري لإسقاط 45 طائرة ألمانية، وزارني في الشركة الخماسية مع الوفد المرافق له ثم اصطحبنا الرفيق محمد إبراهيم العلي إلى حقل للرمي قريب من

مدينة دوما، حيث قامت الطالبات في الفتوة بالرماية على براميل ثابتة في القاذف الصاروخي آر بي جي. وكانت الإصابة من الدقة حيث صفق المارشال لهن وبقية الحاضرين. وهذه صفة كان يحرص عليها وهي المتابعة الميدانية والنزول إلى المتدربين في الجيش الشعبي من جنود وعمال وطلاب ومواطنين. وقبل أن أختتم هذه المذكرات أذكر أنني تعرفت خلال عملي في القاهرة على المشير عبد الحليم أبو غزالة وزير الدفاع الأسبق في مصر. وهذا الرجل العسكري الذي كان برتبة الملازم عندما انضم إلى الضباط الأحرار قبل ثورة 1952، هذه الشخصية العسكرية تملك ثقافة سياسية رائعة، ولغة إنجليزية ممتازة، وقد ترجم عدداً من الكتب السياسية والعسكرية من الإنجليزية إلى العربية بلغة هي السحر في الروعة والأسلوب. لم يذكر عنه شيء في هذا المجال وكاد يطويه النسيان.

وأذكر ذلك لأروي الحادثة الآتية: قمت بدعوته إلى الغداء في مطعم الكباكجي في شيراتون الجزيرة لتحدث عن قضايا الساعة. وجئت في الموعد المحدد وجلست على الطاولة، وأذكر أن الممثل المرحوم أحمد زكي جاء وسلم عليّ وقال لي: هل تتغدى معي؟ فقلت له أنتظر المستر أبو غزالة ولم يأت المستر أبو غزالة، وتلقيت هاتفاً منه يقول لي إنه في الإسكندرية لأمر ضروري جداً، والآن تذكر الموعد فهاتفني بعد انتظاره قرابة الساعتين وقال لي: إنه سيدعوني على خروف عنده وتأسف كثيراً. وعاد أحمد زكي مرة أخرى بعد أن أنهى غداءه قائلاً. مواعيد العسكريات عم مثل الجو. يوم صحو ويوم مطر. يوم غبار. وهذه الحياة. لقد جئنا من أجل المعاناة. ومرة أخرى تحية محبة لمحمد إبراهيم العلي.

الرجل الأديب..

د. حسن حميد*

دائماً.

كنت، وسأظل من المبدعين الكشافين، ومع الأدب الكشاف الذي لا يرتضى بالعبثات الأولى من الأشياء كافة. الأدب الذي لا يسلم قياده بسهولة من القراءة إلا بالقيم الإنسانية الرفيعة دلالة ومقصداً، وأعني بذلك الأدب الذي يبحث في الماهية، والروح الأولى والبداءات الأولى أيضاً.

أقول هذا، حين ترتضي نفس المرء عن قراءة الجميل والماتع، حتى ولو لقه الحزن لف السياج، فرواية الأديب محمد إبراهيم العلي (الذئاب) التي أتناولها بهذه القراءة، ولدت لدي انطباعاً حزيناً وموجعاً. وهي تدفع قولاتها. وصفحاتها، صفحة صفحة لتاريخ ذلك الزمن الباهت المخفق، الجذب الذي عاشته بلادنا أعقاب نكبة الفلسطينيين سنة (1948). أي النصف الأول من سنوات دسائس، وأحلاف، ومعاهدات، وقرف. وبما فيها من نهوض شعبي عارم تجاه كل ما هو وطني وقومي. ذكرتني (الذئاب) خصوصاً بطلها (العريف محمد) برواية صمت البحر للفرنسي المتخفي وراء اسم (فيركور) وبطلها الضابط الألماني (فرنرفون ابرناك). حيث تستحيل الروايتان تاريخاً مشتركاً واحداً، الأول في أربعينيات هذا القرن (احتلال ألمانيا لقسم كبير الأول من الخمسينيات

* روائي.

حيث اشتد ساعد اليهود في فلسطين المحتلة، واعتداءاتهم اليومية على الحدود السورية. أي أن الروائيتين تعالجان الموضوع الوطني والشأن القومي بعامية وكلاهما تذهبان في المحافظة على الروح، روح الإنسان التي يجب أن تبقى بعيدة عن الذبول والنشfan.

والمفارقة الوحيدة في الروائيتين تتجلى في ذهاب (ابرنالك) في (صمت البحر) إلى الجحيم لموت، وذهاب (العزيز محمد) مجدداً إلى معسكر لتدريب الأول ليعود من أجل خوض غمار الحرب ثانية، لكن كلاهما، على الرغم من هذه المفارقة، يجتمعان على قيمة إنسانية واحدة هي أن لا تموت الروح البشرية، أن تظل الروح متوقدة (ابرنالك) يريد أن يموت كي لا يرى الروح الفرنسية، روح الحضارة وهي تموت، لأن النازيين مصممون على قتل هذه الروح و(العزيز محمد) يريد أن يموت من أجل أن تظل الروح العربية ناهضة أبداً.

2. وكي لا أطيل في عقد مثل هذه المقارنة، مخافة أن يكون أحد بيننا لم يقرأ (صمت البحر) - (فيركور) و(الذئاب) لـ (محمد إبراهيم العلي).

أقول: رواية (الذئاب) رواية أحوال الجولان في أوائل الخمسينيات. رواية الريف السوري ممثلاً بالجولان آنذاك، وحالة اللحمة الودودة ما بين جنود الجبهة والأهالي، وقد تقاسم الطرفان، الأهالي والجنود، الأحزان والآسي، والخوف، والبرد، وقسوة الفصول، وقلة الحيلة، والفقر أيضاً.

صحيح أن المشهديات حول واقع الناس في الجولان كثيرة ومتعددة، مشهديات للرعي والزراعة، والحوانيت، والعادات، والطقوس والأمراض، والولادات، والأمانى والأحزان، ومشهديات عنيفة وموجهة للضعف البشري

الذي يعيشه الجنود في الجبهة، وهم داخل الخنادق المملوءة بمطر الشتاء تارة، أو وهم في خيامهم الباردة تارة أخرى، وهم في هذه وتلك.

يتقاسمون حوارات الليل، ومرثيات النهار التي تعكر النفس والوجدان.

وصحيح أيضاً أن شخصيات الرواية كثيرة، شخصيات ممثلة للأهالي في القرى والمدن (القنيطرة دمشق)، وأخرى شخصيات ممثلة للجنود في الجبهة الأمامية، وأخرى في القيادات المتأخرة في المدن والمناطق كما هو صحيح، أيضاً، أن الرواية تحتفي بالأحداث والسير، الأحداث والمواجهات الدامية على الجبهة، والأحداث والسير للشخصيات كافة.

كل هذا صحيح لكن الرواية، في اعتقادي ليست رواية أحداث، ولا رواية شخصيات أو أجيال، إنها بالدرجة الأولى رواية الزمن المر الذي يؤثر لهذه الأحداث والبطولات، والخيبات المتراكمة، والزمن الذي يتطلع إلى الطموحات القادمة.

فالزمن بكل قسوته، وبكل ديمقراطيته، زمن النصف، الأول من الخمسينيات (زمن الأحزاب والمعارضة والتنافر والتدابير السياسية) يحترم الرواية من الغلاف إلى الغلاف، يلف الأحداث والشخصيات من استهلالها إلى خاتمته، وكأنه نصل حاد لا أول لرغبة ولا أخرى.

أقول الرواية رواية زمن لأن ما من اختيارات قصدية للأحداث، وما من تنميط مقصود للشخصيات التي تدير الرواية والغاية الأساسية التي يقصدها الروائي محمد إبراهيم العلي في عمله هذا - (الذئاب) غير معلقة على الشخصية الأساسية في (الذئاب) (العريف محمد)، ولا هي غاية طامحة لبيان مفردات المكان ودلالاته، ولا هي رامية إلى تصوير حالات العذاب الاجتماعي والنفسي

والاقتصادي الذي يعيشه الناس في القرى الحدودية مواجهة مع العدو، الغاية الجوهرية للرواية تتمثل في نهوض هذا الزمن الموحش، الجارح، ما الذي راح يطحن كل شيء، لأن ما من شيء يمتلك القدرة على مواجهته، فالناس في حالة استسلام مرضية للواقع المعيش، إن أمطرت زرعوا، وأن درت الضروع حلبوا، وإلا فهم في منتهى العجز، وقلة الحيلة، والجنود في حالة استسلام مرضية للواقع المعيش، إن أمطرت زرعوا، وإن درت الضروع حلبوا، وإلا فهم في منتهى العجز، وقلة الحيلة، والجنود في حالة استسلام مرضية أيضاً لردات الفعل ضد المحتل الجسور، والمتجاسر عليهم دائماً. العدو الذي يأسر، ويقتل متى يشاء، والجنود المستسلمون لأوامر القيادات التي لا هم لها، في تلك الآونة إلا مقارنة الشراب، ومطاردة النسوان علناً في المدن والأرياف على السواء.

(فالدثاب) رواية للشهادة. رواية الزمن الشاهد على الواقع المعاش في النصف الأول من الخمسينيات ورواية الزمن الذي يرهص بالآتي الجميل، الذي سينفض العجز ويمحوه، والذي سينظم الجيش ويؤطره، والذي سيرفع من قيمة الإنسان كفرد كائناً من كان في المدن والأرياف على قدم المساواة والخطوة، والزمن الذي سيبدل العدل بالظلم، والفلاح الحقيقي بالإقطاعي، والكرامة، بالخنوع، والاحترام، بالمذلة والمهانة.

إنها رواية الإدانة لزمن أسود منخور بالفساد والجاسوسية وفساد الأسلحة، والمتاجرات الرخيصة، واللامبالاة للقادة الورقيين الذين ارتضوا بالواقع المعطوب فأسلسوا إليه الانقياد، والذين صدقوا خرافة الأعداء بأننا بشر

لا نقوى على شيء. وبأننا بلا حيلة أمام قوة العدو وحلفائه المتكاشرين، وإن ما من أمل لتقوم لنا قائمة.

والرواية في كل هذا لا تقدم إدانتها وشهادتها عن نصف زمنها الخمسيني من وراء أسيجة الزجاج، أو من فوق الشرفات العالية، وإنما تقدم تلك الأحزان العتيقة البعيدة التي نرفها أهالي القرى الحدودية في الجولان، والجنود في مواقعهم بالمعينة والمعاشية، حيث أمضى محمد إبراهيم العلي رداً من عمر الشباب الطري بين هؤلاء الأهالي اللطفاء (الذين يحار المرء من أين يأتون باللطف والتهذيب وحب الآخر، وقابلية التماهي معه، وهم الذين تتقاذفهم الأيام من أتون الإقطاعي المحرق إلى أتون الاحتلال الملتهب).

3- رواية (الذئاب) في خطها الأساسي تقدم زمن (العريف محمد) المساق إلى خدمة العلم بعد أن كان معلماً في مدارس دير الزور، وقد قدم إليها من ريف حماه بعد أن اضطرته الحاجة المادية إلى قطع دراسته. والاكتفاء بالشهادة الإعدادية ليصبح معلماً يعين بما يأخذه من مال، والديه وأخوته على الحياة. وهو في عمله هذا يتعرف إلى الكثير من المعلمين الذين سيلتقي بعضاً منهم ضباطاً في خدمة العلم، فتشتد أواصر الصداقة وتتنامي يوماً بعد يوم.

تقدم شخصية العريف محمد الشخصية الرئيسية في الرواية. الزمن الفيزيائي للرواية بكل تطوراتها وارتداداتها. ومراوحته، وملله وحالة المخاض التي تعيشها الأفكار، والأحزاب، والتجمعات الشعبية، والمدارس، وحالة التذمر السائدة بين فئات الضباط متوسطي الرتب، والجنود، والمثقفين، وطلاب الجامعة، فالنصف الأول من الخمسينيات كان حافلاً بمخازي انكسار الأحلام الكبيرة، في تحرير فلسطين وطرد اليهود، ومسلسل الانقلابات المتتالية،

والارتباطات الكثيرة للضباط حسب تيارات ومذاهب متعددة ومتناقضة إلى درجة الشاحر والتصفيات العلنية والسرية في آن معاً.

شخصية العريف محمد في رواية (الذئاب) هي الشخصية المحورية والجسر الحقيقي ما بين شريحة الضباط والجنود، كما هي نقطة العبور من الحياة المدنية إلى الحياة العسكرية وبالعكس. وهي المهادر الذي تتلاقى عليه الأفكار بكل خيرها وشرها، وهي الجرس المنذر والخطر القادم، بعد كل ذلك الخراب والانكسارات والهزائم المتكررة فردياً وجماعياً وهي النافذة التي تقدم لنا المعرفة السائدة آنذاك من خلال قراءة الجرائد، والاستماع إلى أخبار الإذاعة، وما يُروج من إشاعات، وما يُدار من دسائس ومؤامرات صغيرة وكبيرة في أن واحد وإلى ذلك تبدو شخصية العريف محمد كتلة التوازن، والباعثة عليه في الرواية.

لكن هذا لا يعني أن شخصية (العريف محمد) شخصية توفيقية أو تصالحية، أو شخصية تمشي في ضلال (البراغماتية) إطلاقاً، إنها شخصية تقف على الراهن من أجل الآتي، وتبني الراهن على خراب الماضي شخصية ملأى بالتفاؤل القابل والقادم، (فالعريف محمد) هو من يكتب رسائل الجنود إلى أهلهم، وهو من يعلم الجنود الأميين القراءة والكتابة، وهو من يشتري الجرائد ويقرؤها، وهو أيضاً من يشرح ويشخص واقع الفلاح وحياته مع الإقطاعي من جهة. وحياة الفلاح داخل أسرته من جهة ثانية (حيث تكثر مشاكل العائلة حين تفقر). كذلك هو من ينقل أخبار الثورة الجزائرية وأخبار ثورة جمال عبد الناصر في مصر.

عندما قطع أبو رابع الدكنجي ورقة من الجريدة لفتت انتباه العريف محمد عناوين بارزة. ثورة عبد الناصر في مصر ضد الطغيان، ستتصير ثورة الجزائر، القتال مستمر في جبال الأوراس مظاهرات في الشوارع ضد حلف بغداد، الرواية ص 108.

أما الآخر، فهو أن يكشف (العريف محمد) فساد الأسلحة التي يحملها الجنود. وصف الضباط، والضباط، وكأنها عصي ليس إلا.

المسدسات الإيطالية الرشاشة، وهي سلاحنا، فاسدة، لا تطلق يا سيدي؟ كيف تريدون أن نقاتل بسلاح فاسد؟ وهذا مسدسي كدليل؟؟

وحين يقتنع قائد الفوج بكلام (العريف محمد)، وقد جرب عدة مسدسات رشاشة، ووجدها فاسدة فعلاً، لا تطلق أبداً، يقول قيادة حقيرة هناك جواسيس كثيرون؟ لكن علينا أن نناضل ضد العدو هذا. لن يثينا في عزمنا.

وتحت طيف الأسس والحيرة، يأمر قائد الفوج بجمع الأسلحة الفاسدة لمعالجتها، وإصلاحها كل هذا بيدي لنا جوانب من فعالية شخصية (العريف محمد) ودورها التأثيري في الآخرين، ونظرها الثاقب، وسهرها الدائم الدائب للقبض على الصحو، والجميل، والمرتجى أيضاً.

وفي الرواية (الذئاب) شخصية رئيسية أخرى، هي شخصية الجندي (نوبصر) الذي يكشف لنا من خلال سلوكه وعلاقاته مع أهل القرية، واقع حياة الفلاحين في المواسم المتعددة والمتداخلة والقاسية في كل الأحوال وظروفهم المادية الصعبة، وحياتهم الأسرية الضامرة، وأمراضهم الدائمة وأحزانهم الراضحة، وأفراحهم المرفوعة، الأكثر شبهاً بالفلاح الذي يضع حماره، فيفرح حين يعثر عليه، بعد طول بحث ومناداة، ودوران من مكان إلى آخر.

ومن خلال شخصية (نوبصر) نكشف مقدار الحب والألفة الهائلين، اللذين يعيش عليهما هذا الرجل بالقرب من بيت (أبو خلف)، (أبو غزالة) التي يريد لها زوجة له شرعاً، ومن خلال عيني (نوبصر) نتعرف وسائل الإدارة لياً عند الفلاحين في القرية، كما نتعرف أحاديثهم بكل مأساويتها وأملها في القبض على حياة جديدة جميلة وسعيدة، كما نتعرف عاداتهم وتواريخهم، فهو ينقل للآخرين من رفاقه الجنود أن نصف أهالي (البطيحة - القرية) لاجئون طردوا قسراً من أرضهم في فلسطين من الجانب الآخر الغربي لبحيرة (طبريا) وسكنوا في قرية (البطيحة) مؤقتاً بانتظار العودة الآتية لا ريب (فهم ما زالوا يقبلون مفاتيح بيوتهم بين أيديهم مذهولين مما حدث وصار. كما أنهم ما زالوا يقرؤون في (كواشين) الأرض، يقرؤون حد حدود الأرض، ومساحتها، وصفاتها) كما لا يزال الكثير منهم ينتظرون الغائبين عنهم، هؤلاء اللذين شردوا في المدائن الفلسطينية والقرى، والأودية والمغر، وكهوف الجبال، وبيارات البرتقال والكريفون. (مثل تلك العجوز الفلسطينية التي راحت تجلس على مفترق طرق القرية تسأل القادمين إن رأوا ابنها، أو سمعوا عنه شيئاً، تلك العجوز (الذاكرة) الشاكية تذكرنا اليونانيات اللواتي كن ينتظرن عودة الأزواج والأبناء من الحروب المديدة المهلكة، وبالنساء العربيات القديمات اللواتي كن عالقات بالدروب يسألن عن أخبار من استشهد، ومن بقي حيا في أثناء الفتوحات الماجدة.

إن صوت تلك العجوز الخافت (صوت الذاكرة) وناقوسها، والباحث عن صفائه في عودة الابن. هو من النبرات العالية في الرواية التي تهز القلب وتوجعه. كما يهز جرس القلق الحيران.

كانت تجلس سائدةً ظهرها إلى جذع الشجرة، ومعها عصاها. كانت حزينة. تنظر إلى الغرب، إلى الأفق فوق النهر. فهناك قتل أغلب أهلها، إنها تنظر عودة ابنها الذي ذهب - بعد خروجه مطروداً - لعند والده. وحتى الآن لم يعد. هذه حالتها منذ عام 1948، تجلس، وتسأل وتنادي، وقد تحجر دمعها).

ومن الشخصيات الواضحة في الرواية شخصية (أبو خليل) الرجل التاجر الطامع بكل ما هو جميل، وبشكل أناني، وفردى رخيص، والذي يتدخل في شؤون الجنود عند الضباط وصف الضباط كي يمنع الجنود من الذهاب إلى القرية لأنهم - على حد زعمه وتقولاته - يتحرشون بالفتيات فقط، ويلعبون بعقولهن. غير أن الحقيقة ليست كذلك، فالجنود يذهبون إلى القرية من أجل غايات كثيرة مثل شراء - الحاجيات من الحدود وشراء الحليب، واللبن والبيض والدجاج، وغسل الثياب - وتبلور شخصية (أبو خليل) في الرواية مع نهوض المنافسة والمحاكاة مع الجندي (نوبصر) وذلك عندما يعلن أبو خليل عن رغبته بالزواج من (غزالة) بنت (أبو خلف) عشيقة (نوبصر) والكارهة لـ (أبو خليل) المتزوج، والمتقدم في العمر، والذي له (عر أولاد) أبو خليل الذي يطلب من (أبو خلف): اسمع يا أبا خلف أنا أريد غزالة، وأعطيك ابنتي وخمسين رأس من الماعز فوقها - وحين تلتقي (غزالة) ابنة (أبو خليل) تقول لها: يا مها قولي (لأبوك) غزالة لا تريدك زوجاً وإذا أصر وأقنع والذي سوف يرى الليل نهائراً. والنهار ليلاً وبعد هذا تحفل الرواية بالكثير من الشخصيات المنارة جيداً، وأخرى مبنية بناء تكاملياً، كما تحفل بالكثير من الشخصيات المتوارية والمحدودة الإطلاق والتعبير.

أما المكان في الرواية فقد أفرد له الكاتب عناية خاصة، حيث جاء قلقاً موارئاً بالتقلبات والوجوه والأحداث في سبب من طبيعة القلق والحيرة التي يعيشها الجنود والأهالي الحدوديون، وحياتهم المهددة بالفناء في كل لحظة وإن فالمدينة، سواء أكانت دمشق أم القنيطرة، مكان طارئ في حياة الجنود إنه المكان السحري الذي يمتص ساعات الإجازة القصيرة جداً، والنفادة دوماً، المدينة الجميلة التي لا تستطيع المحافظة على أيّ منهم مهما بالغت في ألقتها له، فهي مثل المرأة التي تبيع جمالها لمن يملك، إنها ليست أكثر من حل جميل، لحظات حلوة هاربة، وأنفاس دافئة زائلة، محطة ليس إلا، محطة دفؤها خادع، ونهارها دولاب، وليلها بارد وطويل وموجع.

والقرية، على الرغم من أنها مكان ألوف، وممتع، ومطمئن بالنسبة للجنود، إلا أنها تظل أيضاً مكاناً طارئاً للجنود الذاهبين والقادمين معاً، ولللاجئين المنتظرين شرارة العودة. فهؤلاء الجنود، وأولئك اللاجئون لا يؤثثون المكان قط، ولا يشتغلون عليه بسبب من صفته الطارئة، والمؤقتة.

كذلك الأمكنة الأكثر اختزالاً في الرواية، مثل الخنادق، والخيام، ونقاط الحراسة، فهي أمكنة مغلقة، تضيق على الجنود في الليل والنهار، أمكنة لا اطمئنان فيها ولا دفء، أمكنة حاضنة لتفريخ القلق المرعب، والخوف اليومي، وساعات الحيرة الطويلة، كذلك في حال الأمكنة في القرية بتفريعاتها الصغيرة، فالبيوت بلا نوافذ من الجهة الغربية الجهة المطلة على العدو مخافة أمرين.

الأول: رصاص العدو الدائم الطيشان.

والثاني: النظرات المنكسرة المطلة على بحيرة طبريا وأغوارها، والدنيا الجميلة التي غادرها اللاجئون.

وقرية جرابا، ليس لبيوتها نوافذ من جهة الغرب، وجدرانها من البازلت، فهي تصد الطلقات التي تطلق باتجاهها.

بل تغدو بعض مفردات المكان أكثر انغلاقاً وخوفاً. مثل الملاجئ وقد صارت، لمرات عدة مقبرة للجنود والمدنيين معاً.

أكثر من ستين جريحاً كانوا محشورين في الملجأ، حرقهم العدو كي لا يكونوا شهوداً على المذبحة، وفي زاوية الملجأ كان جريح يحاول الهرب من الحريق، لا زال رأسه سالماً لم يتفجر بعد، لقد تشبث بالباب لينقذ نفسه، ولكن شد الآخرين له والإمساك به. جعلاه يحترق معهم.

حتى الأمكنة الأكثر بهجة، مثل الغدران، والينابيع، والمخاضات، تظل أمكنة طارئة غير قادرة على عقد صداقات ألفة مع الآخرين. إنها أمكنة خارجية، أو قل غرضية، موجودة لقضاء شأن أو غرض. ليس أكثر من ذلك، وكل هذه الأمكنة الكبيرة والصغيرة، مسيجة بانفجارات الزمن، وقلقها البادئ ناتج من نواتج تداخلات الزمن وانكساراته، وحيرة الشخصيات ودورائها في ساحة الرغبات الشاسعة والبعيدة في آن واحد.

5- وقارئ رواية (الذئاب) لابد له من أن يقف عند تلك البقع الأرجوانية الوافرة الحضور بين تضاعيف الأحداث، وتشابك الشخصيات، والتي تمد الرواية بنسغ لا بد منها، أو قل بماء القلب لتهض وتكمل.

والمعروف أن نثر البقع الأرجوانية في النص الروائي يحتاج إلى مهارة كبيرة في التأليف والإبداع، كما تتطلب الخبرة المتعددة الوجوه والقدرات والحضور في العمق والدلالة.

من هذه البقع الأرجوانية في رواية (الذئاب) ذلك الخيط الخفي الذي يخترق الرواية من أولها إلى آخرها والمتمثل بصوت المجنون الداعي إلى الحرب والمواجهة، إنه الصوت الذي يرد على جوقة شديدة الاتساع والتعددية آنذاك، هي جوقة الانكسارات، والخيبات، والحياة القاسية الوعرة، على الرغم من الآلام الكثيرة الموجعة التي عاشها المجنون بعد أن فقد أهله وأبناءه في فلسطين، إنه يقف على شرفة الدنيا، ويطل على طبريا، وينادي:

الله أكبر، أين أنت يا علي الله أكبر، نحن بحاجة إليك يا قاهر اليهود في خيبر.

هذا المجنون في الرواية هو من يعلق جرس الكارثة في أعلى الأمكنة، وهو، أيضاً، من يقرعه بشبات وعزم دائمين.

وقصة العجوز المنتظرة لعودة ولدها من الجهة الغربية لنهر الشريعة (نهر الأردن)، هي بقعة أرجوانية أخرى، إنها الانتظار لمن لن يأتي، انتظار الوجد والأسى الحزين.

وبقعة أرجوانية أخرى نلاحظها في الرواية، تبدو من خلال المقابلة المؤلمة ما بين امرأتين، واحدة، عربية هي خديجة الحبلى التي قتلها اليهود بكل وحشية مع جنينها الذي اندلق من بطنها راعشاً مبروداً، قلقاً على دفنه، وعلى مصير أمه الراحلة، والثانية يهودية وحبلى أيضاً، تقع في كمين للجند العرب السوريين مع زوجها الذي يهرب ويتركها لمصيرها الذي لا يكون إلا سلاماً ورأفة بها، وبالجنين الذي استدار وبدا من تحت ثياب أمه.

ورابع البقع الأرجوانية في الرواية تتمثل بعظمة التضحية وجلالها الشمولي لاستشهاد الرقيب ماجد فوق رشاشه، بعد أن كتب بدمه الطري (يعيش الوطن)

ياصبع راجفة، راعشة بحنو على حروف الكلمتين ومستعجلة كي لا تفارقها الروح مفارقة الرحيل الأخير.

وبقعة أرجوانية أخرى شديدة الألم والفاجعة، بعيدة في وجهها الآخر على ما كل هو إنساني، وبشري تلك المتمثلة باستشهاد الممرض حسن داخل الملجأ وهو يداوي جروح أصدقائه الجنود، وجروح أعدائه اليهود، دونما تفريق، استشهاد حسن الصارخ بالحب كاملاً للوطن، وبالوفاء لترابه وأبنائه، مشهد دموي مرعب حقاً، فقد قدم اليهود بحرق الملجأ بمن فيه كي لا يكون الجرحى شهوداً على بشاعة المذبحة.

أما آخر البقع الأرجوانية في الرواية فهي المتمثلة في ذلك المشهد الغريب لقطعان البقر التي يطردها اليهود يومياً باتجاه مواقع الجنود العرب على الحدود، وباتجاه القرى والمخافر الأمامية، وعبر حقول الألفام من أجل أن تفتح بحوافرها وأجسادها الثقيلة ثغرات آمنة للغزاة إذا حاولوا عبور النهر باتجاه الشرق للإغارة على القرى والثكنات، وقد حدث أن عبرت قوات العدو نحو الشرق الحدودي ليلاً، ومن الثغرات ذاتها التي فتحتها قطعان البقر سابقاً.

6. وبعد، لو قُيِّض لواحد منا، وعصر هذه الرواية، (الذئاب) لرشحت منها كل أحزان النصف الأول من الخمسينيات النبيلة التي أوقدها الجنود في خنادقهم، والأهالي في بيوتهم الرطبة، وهم يرون الحياة تمضي في غير الطريق الذي ارتجوه، ولرشحت منها أيضاً دموع الأمهات التي لم تنطفئ بعد، وهن يستقبلن أولادهن، الشهداء بالصمت الجليل حيناً، وبالزغردات المرناة حيناً آخر، ولرشحت منها أيضاً دموع هؤلاء الفتيات الجميلات، بنات قرיתי "البطيحة" و"جرابا" اللواتي منين النفس أن يعشن بقية العمر في أبهاء الحلم

قرب عشاقهن الجنود، بعيداً عن عذابات القلع والزرع، وحلب البقر، ورق
الزبل، والعمل كالبهائم دونما نتيجة أو أمل، لكن الجنود، وقبل نضوج الحلم،
ينادون دائماً، تنتهي خدمتهم الإلزامية، أو يُنقلون، ولا يبقى سوى تأوهات
وحسرات أولئك، الفتيات اللواتي لدعتهن جمرة الحب اللذيذة.
أيضاً، لو قُيِّض لنا، وعصرنا هذه الرواية، لرشحت منها دماء هؤلاء الجنود
والأهالي الذين ضحوا بأرواحهم من أجل عزة الوطن وكرامته، دماء لو فاضت
لمألت أقصى القلوب وأشدّها شراسة بالأسى الإنساني الشفيف.

* * *

قصيدة السقيلية *

د. رضا رجب

يا جنة ذات رمان وأعناب
عصفورة أومأت من فتحة الباب
وفي كنيسته بيتي ومحرابي
حب الوجود.. ولي في الحب أسبابي
قصيدة.. أطعمت تيهي وإعجابي
تحاولي شرح أوصافي وألقابي
بكلّ وجدي وأحزاني وأتعايي
وبالتقى والهدى طهرت أثوابي
والظلم ولّى كليل الظفر والنايب

سُقيلية.. يا بؤابة الغاب
يا نجمة التلّ.. يا جرس الكنيسة.. يا
صليب عيسى صليبي.. وهو مئذنتي
ودير "مريمك العذراء" يمنحني
وكلماً هزّ قلبي نخلة سقطت
عندي تفاصيل.. لا تعني سواي.. فلا
إذا سألت عن الماضي.. فهذا أنذا
أخلصت لله في سري وفي علني
وكل من ألقوا بي تهمة رحلوا

طال الغياب طيوفاً فوق أهدايي
وأن أحسك وشماً فوق أعصايي
لكنني عشت عمري غير مرتاب
وكان دوشي يعاني ألف حطاب
أعيشها بين صوفي وإرهايي
ولا تنكر لي في الحب طلابي
سكبت يوم تلاقينا بأكوابي

يا درة الغاب.. حسبي أن أراك وقد
وأن أضلك ضمّ المستغاث به
حسبي من الحب أني قد شقيت به
كانت مسيرة عمري نهر أسئلة
وكان وجدي يعاني من مكابدة
ولم يعب مرة شعري أساتذتي
يا درة الغاب.. كم خمر وكم عسل

* ألفت في دير مريم العذراء في السقيلية مساء 2011/3/25 بمناسبة إعلان نتائج مسابقة المفكر والروائي محمد إبراهيم العلي بمبادرة من موقع الفنان غيث العبد الله.

كأنَّ كلَّ العُصافيرِ التي شردتْ
وحيثُ أسألُ عَمَّنْ كنتُ أعرفهمْ
كان الوفاءُ قميصي.. ماضياً وغداً
يا درّة الغابِ.. هذا الدَّيرُ يجمعنا
«أبو الندى» باسمين في عشيتِه
هذا الوقورُ.. الكبيرُ الآن.. كانَ له
ويُثَّه كانَ للدُّنيا.. ومكتبُه
وقصَّةُ الوطنِ الميمونِ قصَّتهُ
وأنتِ أجملُ فصلٍ في روايتهِ

سقيليَّة ما هذي التلالُ سوى
نحنُ عندكِ نجني الشَّهد من طبقِ
خيامكِ انتصبَتْ من دونِ أطنابِ
وزادنا منكِ حبَّ غيرِ كَدَابِ

وحيثُ أذكرُ "إيليا" أرى قمرأً
خمسَ وعشرونَ "زانتِي صداقتُه
به أداوي أسى قلبي وأوصابي (5)
كأنَّما هي عذبُ الماءِ في آبِ

يا درّة الغابِ أوراقِي مبلَّلة
في عيدِ ميلادي اليَوْمَ التَّقيُّكِ.. يا
بذكرياتِي في سلمي وإيجابي
أمِّي وعيدي وميلادي.. و"عتابي" (6)

حماة 2011/3/25

(4) أبو الندى: اللواء والفكر محمد إبراهيم العلي.

(5) إيليا صليبا: مطران حماة.

(6) إشارة إلى أنني من واليد 1952/3/25 وبالمصادفة أقيمت المناسبة مع يوم ميلادي.. وعتاب: اسم قريتي.

كل الشكر والتقدير لأبونا شحود الذي كان يحلم ببناء هذا الدير
فلبيت له رغبته وساعدته في بناء هذا الدير.
عليه الرحمة...

بسم الله الرحمن الرحيم

السيدات والسادة الأكرام

السلام عليكم

السلام على مريم بنت عمران، التي قال فيها الله، في قرآنه الكريم (سورة مريم).

السلام على النبي عيسى بن مريم كلمة الله وروحه.

السلام على الأنبياء والمرسلين من أبو البشر آدم، إلى آخر الأنبياء محمد ابن عبد الله صلى
الله عليه وسلم.

السلام على بطريركية بعلبك وسائر المشرق وراعيا البطريرك هزيم ابن هذه المنطقة
الخيرة، أتمنى له الصحة وله احتراسي

السلام على أبرشية حمص وراعيا سيادة المطران ليلى، له تقديري ومحبي.

الرحمة والسلام على أبونا للخورى شحود (أبو إبراهيم) الذي سعى بكل جهد مع المطران
ليلى لبناء هذا الدير وكان من أصناف المتقنين والرحمة على روحه ثاقية.

أبها الأعراء، لقد عرفت هذه القرية وأحببتها منذ صغري، وكان لها دائما تقديري ومحبي.

ولقد لاضلت مع آخرين حتى أصبحت هذه القرية منطقة للغاب بكامله، كما بنلت مجهودنا
حقيقيا مشاركا لآخرين في بناء هذا الدير

لأنني اعتبر نفسي مسيحيا منذ ظهور الممبوع عليه السلام ومسلما منذ ظهور محمد صلى الله
عليه وسلم، وقوميا منذ ظهور الفكر القومي، كما أنني ضد الظلم منذ ظلم قبايل لأخيه هابيل

لذلك جلبت شجرة زيتون لأزرها في هذا الدير، ليمتد ملي بقاء المكان الحقيقي لأزرها
فيه وتعبيرا عن شكري وإمتنقي بطريركي الخاصة لأصحاب هذه الدعوة، وأتمنى للمقيمين
في هذا الدير من رهبان وراعيات وتلاميذ كل التوفيق في عملهم.

وختاماً أطيب التحية والسلام، لمشايخ المنطقة ورجال الدين من مسلمين ومسيحيين، ومن
جميع المذاهب والمطوائف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد إبراهيم الطلي

2011/3/25

الأكسرخوس
حنانيا عبدوش
كاهن رعية السقيلية للروم الأرثوذكس

الابن الروحي العزيز سيادة الوزير محمد إبراهيم العلي المحترم . . .

أسمى آيات الشكر والمحبة نرفعها لكم باسمي وباسم إخوتكم أهالي مدينة السقيلية ، على جهودكم
وكرمكم الكبيرين الذين تجلوا بتسليم البناء والذي كان يشغله الجيش الشعبي ليصبح مقراً
لدير رقاد السيدة في السقيلية ، إلى الكنيسة الأرثوذكسية في السقيلية .
وهذه ليست غريبة ولا وافدة على هذا العهد الميمون ، المبارك عهد السيد الرئيس حافظ الأسد
حماء الله ورعاه ، وبهذه المناسبة نرفع له أسمى آيات المحبة والوفاء والولاء ، ونعاهد سيادته على
متابعة المسيرة خلف قيادته الحكيمة حتى يتم تحرير الأراضي المحتلة تحت رايته المظفرة .

دعاؤنا الأبوي لكم دائماً

السقيلية في ١٥ / ٤ / ١٩٩٦

الأكسرخوس : حنانيا عبدوش

كاهن رعية السقيلية

للروم الأرثوذكس

الأكسرخوس
حنانيا



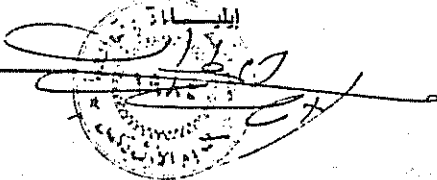
الرقم : ٣٧ / ص
التاريخ : ٢٠٠٨ / ٧ / ٢

الصدیق العزیز الأديب الكبير معالي الوزير
محمد إبراهيم العلي
حفظه الله

تحية ومحبة ودعاء وبعد،
نقابل تكمركم بتسليم البناء الذي كان يشغله الجيش الشعبي في
السقيلية ليكون نواة لدير باسم "دير رقاد السيدة البتول"، بعميق الشكر
والحبة والتقدير. ونسجل لكم هذه البادرة الطيبة في تاريخ أبرشية حماة
للروم الأرثوذكس بمداد الفخر والاعتزاز والاعتراف بالجميل.
هذا ونعتبر عطاءكم حلقة في سلسلة العطاءات التي قدمها عهد القائد
العظيم الخالد الرئيس حافظ الأسد (رحمه الله)، الذي يتابع مسيرته المباركة
رئيسنا الحبيب القائد الشاب الدكتور بشار حفظه الله وأيده دائماً بالنصر
المؤزر.

وإذ نتمنى لكم دوام العافية والتوفيق وعائلتكم المباركة، نسأله تعالى أن
يرمقكم بعين عنايته ويشملكم دائماً بنعمه الإلهية.

محبتكم
مطران حماة وتوابعها





المؤتمر القطري الاستثنائي بعد 16 تشرين الثاني 1971 في شهر نيسان المعقود في
المسرح العسكري في شارع بيروت
في الصف الأول الرئيس حافظ الأسد - عبد الله الأحمر - محمود الأيوبي - محمد إبراهيم
العلي

“الرفيق غينادي زوغانوف المحترم

الأمين العام للحزب الشيوعي الروسي

تحية الصداقة والتقدير،

يسرّني أن أعرب لكم عن خالص تقديري، وامتناني، وعظيم
شكري على محبتكم، وجهودكم الكبيرة التي تبذلونها من أجل تعزيز
أواصر الصداقة بين الشعبين السوري والروسي..

وفي الذكرى التسعين للثورة البلشفية، أتمنى للحزب الشيوعي في
روسيا الاتحادية التقدم والازدهار من أجل أن يعمّ السلام في العالم.

راجياً للشعب الروسي الصديق كلّ التقدم والتطور، ومتمنياً لكم
شخصياً موفور الصحة والعافية والسعادة.

مع محبتي وتقديري

محمد إبراهيم العلي

٢٠٧ / ١١ / ١٥



محمد إبراهيم العلي وقد تزيّن صدره بميدالية الكاتب الروسي شولوخوف
ووشاح وسام صداقة الشعوب من مجلس السوفييت الأعلى

ПОЧЕТНАЯ ГРАМОТА

Век М.А. ШОЛОХОВА

Награждается

Доктор

Мухаммед Ибрагим аль-Али

за выдающийся вклад в развитие
культуры и укрепление братских
отношений между народами
России и Сирии



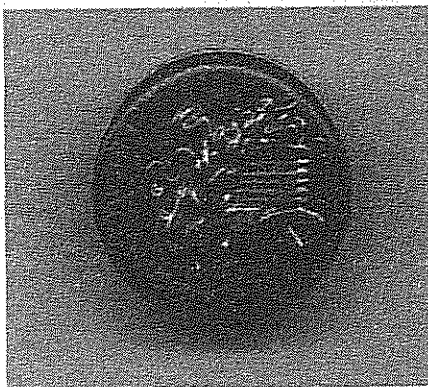
Секретариат правления Союза писателей России

В. Ефимов



Мухаммед Ибрагим аль-Али

100 лет

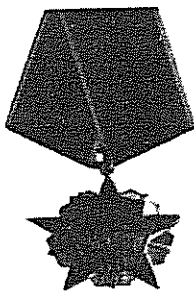
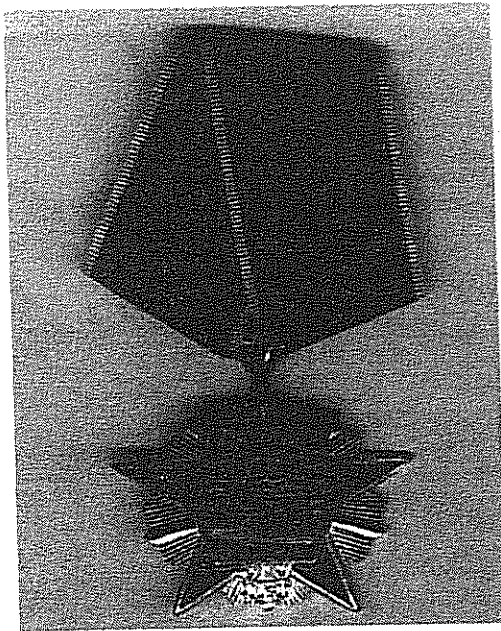


منح محمد إبراهيم العلي وسام شولوخوف

بمناسبة مرور مئة سنة على وفاته



منح محمد إبراهيم العلي
دكتوراه فخرية من اتحاد كتاب روسيا

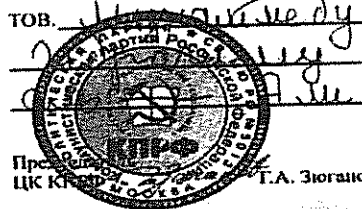


УДОСТОВЕРЕНИЕ

ЦК КПРФ награждает
памятной медалью

"90 лет Великой Октябрьской
Социалистической революции"

ТОВ. Ибрагимов



Председатель
ЦК КПРФ

Г.А. Зюганов

منح محمد إبراهيم العلي
وسام الاستحقاق الروسي

محمد إبراهيم العلي في سطور..

- * ولد محمد إبراهيم العلي عام 1934 في قرية أم حارتين المجاورة لسكة حديد حماة . وهي آخر قرية من محافظة حماة المجاورة لمحافظة إدلب .
- * نشأ وترى في قرى عدة كانت تابعة للإقطاع الزراعي في محافظة حماة وذاق منذ طفولته مآسي هذا النظام البشع حتى عام 1948 عندما رحل أهله نكثاً إلى الغاب .
- * حصل على الشهادة الابتدائية عام 1947 من المدرسة المحمدية الشرعية بحماة ثم على الشهادة الإعدادية عام 1951 من ثانوية ابن رشد بحماة .
- * انتسب إلى حزب الشباب سنة 1947 الذي سمي فيما بعد العربي الاشتراكي، ثم انتسب إلى حزب البعث العربي الاشتراكي بعد توحيد الحزبين ولا يزال عضواً عاملاً فيه حتى الآن .
- * عين معلماً بين مضارب البدو على نهر الفرات ونهر الخابور أحد روافد الفرات مدة سنتين، وعلم في مدرسة الصور شرق دير الزور للسنة الدراسية 1953 . 1954 .
- * في 1954/10/19 دعي للخدمة الإلزامية مجدداً وعريفاً ثم رقيباً، وكانت خدمته في المخافر الأمامية من الجولان، على نهر الشريعة وبحيرة طبريا .
- * عند انتهاء خدمته الإلزامية نجح في امتحان الشهادة الثانوية دراسة حرة، وانتسب على الكلية الحربية في حمص في 1957/1/6 وتخرج في 1959/4/6 من القاهرة بمرتبة ملازم .
- * اتبع دورة مظاهرات في القاهرة، ودورة مدرب معلم صاعقة في أنشاص، وتخرج في 1959/12/10 (الدورة رقم 6) .

* عين في كتيبة المظلات في القاهرة حتى الانفصال بتاريخ 28 أيلول 1961، وانتقلت الكتيبة إلى حلب، واشترك بأحداث حلب المشهورة . حركة الضباط الأحرار.

* عين أول قائد للحرس القومي بعد الثورة، وظل قائداً له بعد أن سمي بالجيش الشعبي حتى عام 2005.

* انتخب عضواً في المحكمة الحزبية من قبل المؤتمر القومي السابع عام 1965.

* شارك في الأحداث اللاحقة التي حدثت في مسار الثورة وبشكل خاص في حركة 23 شباط 1966.

* أسهم في تأسيس حركة فتح (قوات العاصفة)، كما شارك في تأسيس طلائع حرب التحرير الشعبية وقوات الصاعقة.

* اتبع دورات عسكرية عدة: قائد سرية، وقائد كتيبة، ودورة أركان.

* شارك في حرب تشرين التحريرية عام 1973، ومنح الوسام الحربي من الدرجة الأولى، كما منح عدداً من الأوسمة الأخرى في حياته العسكرية.

* انتخب عضواً في اللجنة المركزية لحزب البعث 1985 . 2005.

* منح وسام صداقة الشعوب بمرسوم من مجلس السوفييت الأعلى عام 1987 تقديراً لدعمه للعلاقات الثقافية السورية . السوفييتية، ورواياته المترجمة للغة الروسية.

* منح شهادة دكتوراه فخرية في الإبداع الأدبي من اتحاد كتاب روسيا في 2007/11/15.

* حاز على النجمة الذهبية للكاتب الروسي «شولوخوف» عن أعماله الأدبية المترجمة إلى اللغة الروسية.

* عضو اتحاد الكتاب العرب منذ عام 1978.

* كرّمه اتحاد الكتاب العرب في حفل تكريمي في 2007/11/25 ومنح درع الاتحاد

عن نشاطه الفاعل والحيوي في الوسط الثقافي.

* منح وسام الحزب الشيوعي الروسي من رئيس الحزب الشيوعي الروسي في موسكو

تقديراً لمواقفه الوطنية والإنسانية، وذلك في 2007/11/15 في حفل تكريم أقيم

في المركز الثقافي الروسي في دمشق بحضور رئيس اتحاد كتّاب روسيا.

* كرّمته القيادة القومية للحزب بتاريخ 8 نيسان 2009 بوصفه أحد قدامى منتسبي

حزب البعث العربي الاشتراكي، لدوره الوطني والقومي في خدمة أهداف الحزب،

مع كوكبة من رفاقه، وقدمت له درعاً تذكارية وشهادة تقدير.

* أُحيل على التقاعد في 2005/5/31 بناءً على طلبه، ليتفرغ لأعماله الأدبية.

• صدرت له المؤلفات الآتية:

1.	المراي الجزء الأول	رواية	1977
2.	المراي الجزء الثاني (المختاتير)	رواية	1984
3.	المراي الجزء الثالث (الحان)	رواية	1991
4.	المراي الجزء الرابع (المحطة)	رواية	1992
5.	المراي الجزء الخامس (العجيرة)	رواية	1994
6.	المراي الجزء السادس (الطغيان ج 1)	رواية	1978
7.	المراي الجزء السابع (الطغيان ج 2)	رواية	1979
8.	المراي الجزء الثامن (الطغيان ج 3)	رواية	183
9.	القناديل الجزء الأول	رواية	1980
10.	القناديل الجزء الثاني (المطاردون)	رواية	1982
11.	التحول الكبير	رواية	1978
12.	نجمة الصبح	رواية	1981
13.	الذئاب	رواية	1988
14.	الدولاب	رواية	2005
15.	شوك الدردار	مجموعة قصصية	1987
16.	حياتي والإعدام الجزء الأول	سيرة ذاتية	1995
17.	حياتي والإعدام الجزء الثاني	سيرة ذاتية	2002
18.	حياتي والإعدام الجزء الثالث		2003

• ما ترجم من أعماله

1. الطغيان (ثلاثة أجزاء) ترجمت إلى اللغة الروسية
2. نجمة الصبح ترجمت إلى اللغة الروسية
3. التحول الكبير ترجمت إلى اللغة الروسية والإسبانية والألمانية

المحتوى

- الإهداء
- مقدمة
- الفصل الأول: سورية الطبيعية
- الفصل الثاني: أصول العائلة.. وهجرتها
- الفصل الثالث: حماء وثورة الشيخ صالح العلي
- الفصل الرابع: الحركة التصحيحية 1970 - اللحظات الأولى، التحالفات، والأحداث
- الفصل الخامس: محاضرات
- الفصل السادس: الشهادات:

أدباء، كتّاب، ساسة، ضباط في الجيش

- الرجل العصامي.. ورجل المهمات الصعبة، والقائد القدوة: د. رزق إلياس
- مواهب متعددة ورؤى واسعة.. فالييري غانيتشيف — ترجمة: عدنان جاموس
- البطولة في الأدب والحياة - أوليغ فوفين
- الشعب لا يقهر - أناتولي كاربوف — ترجمة: هاشم حمادي
- رجل الوطنية.. والأدب - حسن عبد العزيز العلي
- رأي.. وتصويب - د. كمال الطويل
- إهمال لا إهمال: د. عبد السلام العجيلي
- محمد إبراهيم العلي في ذاكرتي — د. عيسى درويش
- حكاية وطن في رجل - المبدع والبندقية.. إلهام سلطان
- الرجل الأديب.. د. حسن حميد
- قصيدة السقيلية.. د. رضا رجب

■ حين أصدر الأديب والمناضل محمد إبراهيم العلي سيرة حياته في ثلاثة مجلدات. شغل الناس بها ليس لأنها استعادة لزمن جميل مضى، ولا لأنها توارىخ لها معانيها في نفوس الناس وخواطرهم، ولا لأنها تبدي أفعال الأجداد والآباء وهم يبنون الحياة السورية في عهد دولة الاستقلال فحسب، وإنما لأنها تعيد كتابة الحقائق والأحداث كما وقعت من دون إضافات أو محو من جهة، ولأنها تعيد الاعتبار لوطنيّين ترفعوا عن الكثير من المغريات كي يظلوا في مربع الوطنية الصافية مثل الينابيع من جهة ثانية.

هنا، وفي الجزء الرابع من السيرة الذاتية للأديب والمناضل محمد إبراهيم العلي حقائق ووقائع وأحداث جديدة تعيد للتوارىخ زهوها، وللأعلام الذين بنوا وأعطوا كل ما يملكون من أجل الوطن.. اعتبارهم الحقيقي. إنها السيرة الشاهدة على أحداث سورية خلال العقود الزمنية الماضية. ■

